



الجزء الثاني

غرام سوان

Looloo

www.dvd4arab.com



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٠، شارع ستان، الرياض - ١١٤٦١ - ٩٠٥٥٥٥

محمي مراد



البحث عن الزمن المفقود

غرام سوان

ترجمها عن الفرنسية : دكتور نظمي لوقا

الجزء الثاني

Looloo

www.dvd4arab.com

وكان من عادتنا أن نعود دائماً من نزهاتنا على الأقدام في وقت ملائم للصعود لزيارة عمي ليوني قبل العشاء : وفي الأسابيع الأولى من عطلتنا التي نقضيها في كبراي ، وهى الأسابيع التي كان النهار فيها قصيراً ، كان يتسنى لنا أن نرى ، ونحن في طريق عودتنا إلى شارع الروح القدس ، انعكاس الأفق الغربى من نوافذ البيت ، وبقعة قرمزية منعكسة على مياه البركة ، في توهج ناري مصحوب أحياناً بلذعة برد ، ويقترن هذا الوهج في ذهني بتصور النار المشتعلة التي فوقها - في تلك اللحظة نفسها - يجرى شواء الدجاجة التي ستمدني - بدلاً من اللذة الشاعرية التي وجدتها في السير بالخلاء - بلذات حسية هي لذات الغذاء الجيد ، والدفع والراحة :

ولكن في الصيف ، عندما كنا نعود إلى البيت ، لم يكن وقت غروب الشمس قد حان . وبينما نكون في الطابق العلوى نؤدى زيارتنا المعتادة لعمي ليوني ، تأخذ الأشعة في الغوص إلى أن تستقر على حافة نافذتها ، وتتشابك مع الستائر الداخلية الكبيرة وأربطتها التي تثبتها في الجدار ، وتثر دوائر ذهبية على خشب الليمون المصنوع منه أثاث حجرتها ، وتضيء الحجرة كلها بتلك الأشعة المائلة التي تجعل ظلال الأشياء مستطيلة كأنها جذوع الأشجار في الغابة . ولكن في بعض الأيام - وإن كان هذا نادر الحدوث - يكون الوقت قد انقضى ، فلا نرى وهجاً نارياً منعكساً على البحيرة ، ولا نثاراً ذهبياً على أثاث حجرة عمي ، بل يكون كل شيء شاحباً ، إلا أن

ضوء القمر يفتش المساحة كلها وينعكس على تموجات ماء البحيرة . وفي هذه الحالة ، عندما نقرب من البيت ، نبتين شخصاً واقفاً على عتبة الباب ، وتقول لي ماما :

- رباة ! هذه فرنسواز واقفة تبحث عنا . ولابد أن عمك قد انتابها القلق : ومعنى هذا أنا تأخرنا !

ومن غير أن نتوقف لنخلع عنا ملابس الخروج نصعد على الفور إلى حجرة عمي ليوني لكي نظمئها ، ونثبت لها بمثلنا الجسدي أمامها أن كل تخيلاتنا المذعورة لم يكن لها أساس من الصحة ، وأنه لم يحدث لنا مكروه : وكل ما هناك أننا مشينا اليوم في « طريق جيرمنت » . وعمي تعرف جيداً أن المرء حين يسير في هذا الاتجاه لا يدرى بالضبط متى ينتهى سيره ومتى يعود : وعندئذ تقول عمي :

- هاك يا فرنسواز ! أو لم أقل لك إنهم لابد قد ساروا اليوم في طريق جيرمنت ؟ يا إله السموات ! لابد أنهم يتصورون الآن جوعاً ! ولا بد أن فخذ الضأن الذى أعدده لهم قد جف الآن جداً بعد كل هذه الساعات من الانتظار : إذن أنتم مشيتم اليوم في طريق جيرمنت ؟

وتجيبها أُمي :

- ولكني كنت أظنك تعرفين هذا يا ليوني : وأحسب فرنسواز رأتنا نخرج من البوابة الصغيرة ، من حديقة الطابق

ذلك أنه كان هناك في ضواحي كبراي طريقان ، كان من عادتنا أن نسير فيهما في نزاهتنا على الأقدام ، وهما طريقان متضادان بكل معنى الكلمة . بحيث إننا كنا نخرج من باب مختلف للبيت كى نسير في أحد الطريقين ، حسب اختيارنا : وهذان الطريقان يمر أحدهما في اتجاه ميز جلبيز لا فينيز Meséglise la Vineuse ، وكنا نسميه « طريق سوان » ، لأنه كان لا بد لنا كى نصل إليه أن نمر على امتداد حدود ضيعه المسيو سوان : والطريق الآخر هو « طريق جيرمنت » . ولم تكن لى - والحق يقال - معرفة بميز جلبيز لا فينيز أكثر من الطريق المقضى إليها ، ومن بعض أهلها الذين قد يأتون في أيام الأحد لاستنشاق الهواء في كبراي : وهم أناس لم تكن عمتى ولا أى أحد منا يعرفهم على الإطلاق ، ولذا كنا نستنتج أنهم حتماً « أناس لا بد أنهم جاءوا من ميز جلبيز » : أما عن جيرمنت فقد أتيت لى أن أعرفها يوماً ما معرفة جيدة : ولكن هذا اليوم لم يحن إلا فيما بعد . وطوال فترة بفاعتى ، كانت ميز جلبيز شيئاً بعيداً عن متناول يدي مثل خط الأفق ، لأنها كانت مكاناً يظل متوارياً بين طوايا الريف مهما سار الإنسان نحوه قدماً ، وهو ريف ليس بينه وبين الريف المحيط بكبراي وجه شبه . أما جيرمنت فلم تكن تعنى عندي أكثر من هدف نهائى أقصى ، هدف مثالى أكثر منه واقعياً : فطريق جيرمنت كان حينئذ ضرباً من الاصطلاح الجغرافى المجرد ، كالقطب الشمالى أو كخط الاستواء ! ومن ثم كان السير في طريق

جيرمنت للوصول إلى ميز جلبيز ، أو العكس ، يبدو لى تناقضاً أشبه بالدوران إلى الشرق لكى تصل إلى الغرب : ولما كان من عادة أبى دائماً أن يقول عن « طريق ميز جلبيز » إنه يضم أبعد منظر عرّفه على الإطلاق للسهل الممتد ، وإن « طريق جيرمنت » مكان نموذجى لمنظر النهر ، لذا تصورت كلا منهما كائناً مستقلاً متميزاً ، فيه تماسك لا يوجد إلا فيما يختلقه الذهن من تصورات ، وصرت أرى أقل تفصيلاً شيئاً بالغ النفاسة ، يتطوى على امتياز باهر ، وإلى أن نصل إلى رى أحد الطريقين ، لا تستوقفنى المناظر التى أمر بها . وحالى هذا أشبه بحال مشغوف بالذهاب إلى المسارح ، بحيث لا يعير الشوارع والحارات الكثيرة المفضية إلى المسرح نفسه أدنى التفات ، مهما كانت مواطن الجمال فيها . وكنت أقيس البعد بين الطريقين لا بالكيلومترات والأمطار ، بل بتباعد مكانيهما في عقل ، ذلك التباعد الذى زاده مرور الزمن ، لأننى كنت أحتفظ لكل منهما في ذهنى بمستوى منفصل . وقد زاد هذا الاعتقاد رسوخاً في ذهنى أنه لم يحدث قط أن مرنا في الطريقين معاً في يوم واحد ، أو في سياق نزهة واحدة ، بل كنا نخصص لكل منهما يوماً مستقلاً ، فلا عجب أن ينفصلا تمام الانفصال ، كأن كلا منهما لا علم له بوجود الآخر ...

فإذا قررنا المضى في يوم إلى طريق ميز جلبيز انطلقنا (بلون إسرار لا موجب له حتى لو كانت السماء ملبدة بالغيوم ، لأن هذا

الطريق لم يكن طويلاً جداً ولا يبعدنا عن البيت كثيراً) : وكأننا لا نوى الذهاب إلى مكان معين ، فنخرج من الباب الأمامي لبيت عمي ، وهو الباب المفتوح على شارع الروح القدس : ويحيينا في الطريق الرجل الذي يصلح البنادق : ونلقى بخطاباتنا في صندوق البريد ، ونبلغ تيودور رسالة من فرنسواز أثناء مرورنا به أن ما عندها من الزيت أو البن قد نضب ، ثم تغادر البلدة من الطريق الذي يمر على امتداد السور الأبيض لبستان المسيو سوان المترى : وقبل أن نصل إلى هناك يلقانا على الطريق عبر أشجار الليلك في هذا البستان ، وكأنه خرج خصيصاً ليرحب بالغرباء . وكانت أشجار الليلك ذات الأوراق الخضراء الغزيرة تبرز لنا من السور أزهارها القرمزية التي تتألق حتى في الظل بضوء الشمس الذي اخترنته من استجمامها فيه . وبعض هذه الأشجار تتوارى عنا وراء كوخ أنيق يقيم فيه ناظر ضيعة سوان ، له سقف من القرميد على شكل جملون قوطي الطراز ، وأحسب جنات الربيع خليقة أن تبدو فظة مبتذلة بالقياس إلى تلك الحوريات الشابة التي تضيء على هذه الحديقة الفرنسية سحر بلاد العم :

ومع أني كنت شديد الشوق إلى تطويق هذه الأشجار المنة القوام بذراعي ، وجذب هاماتها الرشيقة العطرة لأشم شذاها ملء خياشيمي ، إلا أننا كنا نمر بها من غير أن نقف عندها . لأن والدتي انقطعت عن زيارة تانسفيل Tansonville منذ زواج سوان ، ولكي

لا يبدو كأننا نطل على بستانه ، كنا بدلاً من السير في الطريق الذي يتأخم ضيعته ثم نمضي مباشرة إلى الحقول ، نختار طريقاً آخر يدور حول الضيعة من الجهة الأخرى ، ويجعلنا نبعد كثيراً عن البيت : وذات يوم قال جدي لأبي :

— ألا تتذكر أن سوان أخبرنا أمس أن زوجته وابنته سافرتا إلى ريمس وأنه سيتنزه هذه الفرصة لقضاء يوم أو يومين في باريس ؟ ففى وسعنا إذن أن نمر بجوار البستان ، ما دامت الاثنتان ليستا هناك : فذلك يجعل طريقنا أقصر .

وفي ذلك اليوم وقفنا قليلاً بجوار السور . وكان موسم الليلك قد انتهى أو كاد : ولكن بعض أشجاره كانت ما تزال مزهرة سامقة كأنها شمعانات عالية . ولكن معظم الأشجار ذبلت فوقها الأزهار التي كانت منذ أسبوع واحد كأنها بحر زاهر بالزبد الأبيض والأحمر وله عبير فواح : أما الآن فهي ذاوية جافة لا عطر لها . وبين جدي لأبي كيف أن معظم معالم المكان لم تزل كما هي : وكيف أن بعضها تغير منذ ذلك اليوم الذي تمشى فيه في الحديقة مع سوان الأب ، يوم وفاة زوجته : وانهز هذه الفرصة كي يروي لنا مرة أخرى تلك القصة القديمة :

وكان أماننا درب يحف به نبات الكبوسين ، تحت وهج الشمس مباشرة ، يقضي إلى البيت : أما عن يميننا فكان البستان يمتد مترامياً إلى مسافة كبيرة ، فوق أرض مسنونة . وكانت هناك بحيرة

زخرفية تحيط بها الأشجار العالية ، أنشأها والدها سوان ، وعند أقدام الدرب الذى يقضى إلى هذه البحيرة الصناعية أنواع شتى من زهور الزيتة الصفراء والزرقاء والحمراء ، فى غزارة عظيمة زادت هذه البحيرة وتماثيل حوريات الماء جمالا على جمال .

ولما كانت الآنسة سوان غير موجودة ، فقد وقانى هذا من الحجازة برؤيتها عندما تظهر عند أحد هذه الممرات ، وأن أكون موضع ازدراء هذه الفتاة الصغيرة الممتازة التى تتمتع بصداقة برجوت ، ومن عاداتها أن تذهب معه لزيارة الكاتيدراليات . ولكن هذا الأمان جعل توقفنا واكتشافنا لأول مرة لتانسفيل أمراً لا قيمة له عندي ، مع أن الضبيعة كانت فيما يبدو مصدر متعة كبيرة متجددة لدى جدى وأبى . وقد كنت أتمنى أن يخيب ظنهما وأن أرى - على غير توقع - الآنسة سوان تبرز فى البستان مع والدها ، وفى مكان قريب مناجداً ، بحيث لا يتسع لنا مجال للهرب أو الروغان ، وبذلك يتحتم علينا أن نخبيهما ونتعرف إليهما .

ولذا عندما لاحظت فجأة مسلة من القش ملقاة منسية على العشب بجوار شخص (سنارة) كانت فليتنه عاتمة فوق سطح البحيرة ، بذلت كل جهدى كما أشغل انتباه جدى وأبى فى اتجاه آخر ، بعيداً عن هذه العلامة التى تدل على احتمال وجودها فى الضبيعة . ولكن بما أن سوان قال لنا فى الليلة السابقة إنه لن يرحل على الفور لوجود ضيوف فى البيت لديه ، فن الجائر أن يكون هذا الشخص خاصاً بأحد

هؤلاء الضيوف : ولم يترام إلى سمعى وقع أى قدم على درب من الدروب . وفى مكان ما وسط الأشجار العالية كان هناك طائر متوار مثابراً على محاولة تقصير ذلك النهار بإطلاق نغمت صوتية يسر بها عمق الصمت السائد من حوله فى كل اتجاه . ولكنه لم يتلق على صيحاته هذه جواباً سوى الصمت الأبدى الذى جدد اللحظة الراهنة فى مكانها ، بدلا من التعجيل بانقضائها : وكانت الشمس تنصب بلا رحمة من سماء ثابتة صافية لا تتحاب فيها . وسطح الماء ساكن فى هذه القيلولة كأنه يحلم ولا شك بدرود هائل ، مركزه هذه الفلينة الطافية . وفجأة بدأت الفلينة تغوص قليلا . ونخيل إلى أنه من واجبي أن أصبح لأبيه الآنسة سوان إلى أن السمكة بدأت تعض الطعام ، مجازفاً بذلك رغم رغبى من أن تعرفنى

وفى كانت هذه الفكرة تراودنى اضطرت فجأة ليجرى وراء جدى وأبى ، اللذين كانا يتناديانى ، متعجبين لأنى لم أتبعهما منذ البداية وقد انحرفا فى الدرب الصاعد إلى الحقول الفسيحة :

وكان هذا الدرب الذى يصعد التل غاصاً على الجانبين بنبات الزعرور البرى الطيب الرائحة الذى كنت قد رأيته يوم الأحد يزين مذبح الكنيسة ، فكان جانبي للدرب كنانس صغيرة متوارية تحت أكوام هذه الزهور المكومة فوق مذايحها ، وكان عيبرها من الثراء والغزارة كأننى مائل تماماً أمام مذبح العذارى ، والشمس تنصب أشعتها من فوق كأنما هى هابطة من نافذة مفتوحة : فانبهرت

أنفاسي بهذه الأحاسيس ، التي أغرقني دفعة واحدة ، حتى لقد حاولت أن أبعد عيني عنها ، لكي يتسنى لي أن أعود إليها بلذة متجردة وتشوق جديد . ولكن عينا حاولت ، فأبنا حولت بصري مضجعا في التل وجدت تلك الأزهار البيضاء ذات الأريج الفواح كأنما هي بحر بلا انتهاء . وامتألت نفسي بإحساس غامض بشهوة هذا الجمال الفطري الذي لا يدرك له سر ولا يسر له غور ! وتمنيت لو كانت هناك أنواع أخرى من الزهور ، كى يتيح هذا التنوع لعيني راحة تزيد من متعتها :

ولاحظ جدى استغراقى في هذا الجمال ، فقال لى مشيراً إلى سور تانسفيل :

— أنت مغرم بالزعرور البرى . انظر إلى هذا الزعرور الوردى هناك ، أليس جميلاً حقاً ؟

وكان ما أشار إليه نبات زعرور برى حقاً ، ولكنه وردى الأزهار ، وكانت أجمل فعلا من الأزهار البيضاء التى حولى . وقد تكاثرت هذه الأزهار الوردية بعضها فوق بعض ، فلم يظهر من الأوراق الخضراء شيء . كانت فى أبهى زينة كأنها تبرجت احتفالا بعيد دينى . وأنا شديد الوله باللون الوردى . أحب البسكويت إلى ما كان محلى بالسكر الوردى . وأحب الجبن إلى نوع وردى : والجبن العادى أجعله ودياً بأن أهرس فيه ثمار الشليك الحمراء : وقفز قلبى فرحاً بهذه الأزهار الوردية التى كأنها حسناء يافعة برزت

فى أبهى زينتها وسط عجائز مهلهلات الثياب ، فأزرت بسائر الأزهار التى من حولى فى كل مكان !

وقد أتاح لنا ارتفاعنا على منحدر التل أن نرى جانباً مما فى داخل بستان سوان الكبير ، فلمحنا ممشى تحف به أزهار البانسيه والياسمين وأزهار مختلفة الألوان ، وعلى الأرض المفروشة بالحصى خرطوم للرى مطلى باللون الأخضر ، متعرج وفيه ثقب ينساب منها الماء وينثى على تلك الأزهار ، وينعكس الضوء على تلك القطرات المناسبة فيلونها باللون قوس قزح . وفجأة توقفت جامداً فى مكافى ، عاجزاً عن الحركة ، مثلما يحدث عندما يبدو شيء لا يحتاج إلى أعيننا فحسب كى ندركه ، بل يحتاج إلى إدراك أعمق يستوعب كياننا كله . فقد كانت هناك فتاة صغيرة ذات شعر أشقر محمر ، يبدو أنها عائدة من نزهة على الأقدام ، وفى يدها شقرف ، واقفة تنظر نحونا ، رافعة إلينا وجهاً ينتشر فوقه النمش الوردى : وكانت عيناها السوداوان تلمعان ، وإن كنت فى ذلك الحين لا أعرف ، ومازلت لا أعرف كيف أحلل انطباعاتى القوية إلى عناصرها الموضوعية ، لأننى لا أمتلك — كما يقولون — ما يكفى من قوة الملاحظة لتحديد وعزل لون هاتين العينين ، لذا ظلت فترة طويلة بعد ذلك كلما فكرت فيها ، تذكرت عينيها اللامعتين هاتين وكأن لونهما لازوردى ناصع ، لا شيء إلا لأن بشرتها شقراء .

وحدثت فيها أول الأمر بنظرة لم تكن مجرد رسالة من العينين ،

بل وكان من هاتين النافذتين قد تجمعت كل حواسي لتلظل منهما متحجرة لهفانة ، نظرة تكاد تصل إلى الجسم الذي تنبجه نحوه وتلمسه وتحضنه وتنطلق به ، بل وتلمس وتحضن الروح أيضاً مع الجسد ، وخامرني الفزع من أن يستعجلني جدي وأني في أى لحظة إذا لاحظا وجود الفتاة ، فينتزعاني منها ويعلاني أجرى أمامهما وأسبقهما بدلا من التلكنؤ خلفهما : فرشتها بنظرة أخرى متوسلة ، كل أمنيتها أن تنبها لوجودي ، وتراني ، وتعرفني ، وكانت هي تنظر إلى الأمام ، وإلى الجانبين ، كأنما لتبين جدي وأني ، ولاشك أن الانطباع الذي تكون لديها أننا جميعاً قوم مضحكون بخفاء ، لأنها لم تلبث أن أشاحت بوجهها في عدم مبالاة وازدراء ، وتوارت كأنما لتجنب وجهها مهانة البقاء في مجالها البصري : بينا واصلا هما سيرهما من غير أن يلاحظا وجودها ، وعندئذ نظرت نحوي من غير أن يبدو علي وجهها تعبير معين ، وكأنها لم ترنى ، اللهم إلا ابتسامة يسيرة لم أستطع تأويلها بمقتضى ما تلقيته من آداب السلوك إلا على أنها علامة على التقزز البالغ . وأشارت بيدها إشارة فجأة ، كنت قد تعلمت فيما تعلمته من قواعد السلوك أنها إذا وجهت إلى شخص لا نعرفه بصورة علنية فليس لها إلا معنى واحد ، هو الإهانة المقصودة :

وصاحت سيدة ترتدى ثوباً أبيض بصوت ثاقب ينم عن سلطان ، لم أكن رأيها حتى تلك اللحظة :

— جيلبرت : هيا ! ماذا تصنعين ؟

وكان على مسافة قصيرة منها سيد في بدلة من الكتان ، ذات بطلون قصير ، لم أكن قد رأيته أيضاً ، راح يحدق إلى بعيتين تكادان تطفران من رأسه . وفي الحال اختفت ابتسامة الفتاة . ومضت بمسكة بشعرها من غير أن تلتفت لتنظر مرة أخرى ناحيتي ، في طاعة غامضة مأكرة .

وهكذا نمنا إلى سماعي اسم جيلبرت Gilberta ، وكأنه طلسم سحري ربما أتاح لي في يوم من الأيام أن أعيد اكتشاف من أضلني هذان المقطعان اللذان يتكون منهما اسمها شخصية محددة عليها ، مع أنها قبل ذلك بلحظة واحدة كانت مجرد شيء رأيته بغموض ، وها هو هذا الاسم قد تراءى لي عبر الأزاهير والخيال والياشين ، حاداً ورطباً مثل الماء المنبثق من الخرطوم الأخضر ، فتضمخت به طبقات الجو وموجات الهواء التي مر بها ، حتى أن هذا الهواء تميز من كل هواء آخر بتلك الحياة التي تنبعث من صاحبة هذا الاسم ، وبه يناديه أولئك السعداء الذين يعيشون في صحبتها . واقترن هذا الاسم بذلك الزهر الوردى الفريد من الزعرور البري الذي يتوج هامة سور حديقته . وبذلك العالم الخالص الذي تعيش فيه ، والذي أجهله أنا ولا ينبغي أن أنفذ إليه .

وبينما نحن نبتعد صاعدين التل سمعت جدي يهمهم لأبي :
— يا لسوان المسكين ! وبأها من حياة تلك التي يسومونه إياها ! تصور أنهم أرسلوه بعيداً كي ينسني لها أن تبقى وحدها مع

صاحبها شارلى ! فهذا هو شارلى ، وقد عرفته على الفور ! وتصور
أن الطفلة في سنّها هذه تختلط بمثل هذه البيئة !

ولحظة اشدت على وقع انطباع تلك اللهجة الأمّرة المستبدة التي
كلمتها بها أمها ، وكيف أن جيلبرت لم ترد عليها ، فأشعرتني أنها
مضطرة لإطاعة شخص آخر ، وأنها بذلك ليست أمي منزلة من
العالم أجمع كما كنت أتخيل ، فهذا هذا وسكن من عذابى بعض الشيء ،
وأحيا عندي بعض الأمل ، ولطف حرارة حبي . ولكن سرعان
ما انتقد هذا الحب في أعماقي من جديد ، كرد فعل حاول به قلبي أن
يرتفع إلى مستوى جيلبرت ، أو أن يهبط بها إلى مستواه .

أحببتها ، وكنت أسفاً لأن الوقت لم يتسع لي - ولم تسعني سرعة
خاطري - كي أهيئها ، أو أميء إليها بأى صورة ترغبها على
تذكرى على نحو ما . كنت أعرف أنها رائعة الجمال ، لدرجة أنني
تمنيت لو أتيح لي أن أعود أدرجى لكي ألوح لها بقبضة يدي
وأصيح بها :

— أعتقد أنك قبيحة ، بشعة ، مقرزة للغاية !

ولكني مع هذا مضيت مبتعداً عنها ، حاملاً في حنايا صدري
إلى الأبد منذ تلك اللحظة أول نموذج لسعادة فوق متناول غلام صغير
مثل بموجب قوانين الطبيعة التي لا يمكن خرقها ، وهذا النموذج هو
صورة فتاة صغيرة ذات شعر ضارب للحمرة ، وبشرة مرقشة
بنمش وردى ، ممسكة في يدها بشقرف ، وهي تبسم وتحقق في

تحديقاً غامضاً لا يتم على شيء معين . وها هو السحر الذي ملأ مثل
صحابة من البخور تلك الفجوة بين أزهار الزعرور البرى الوردية ،
التي من خلالها سمعت أنا وهي نبرات اسمها ، قد بدأ يقهر ويغطي
ويعطر ويحمل كل ما له ارتباط به ، حتى جذبيها للذين كان جدى
سعيدى الحظ بمعرفتهما ، ومهنة سمسة الأوراق المالية المحيدة ،
بل وجيرة الشانزليزيه التي تقطن بها في باريس .
وعند عودتنا قال جدى :

— يا ليونى ! كم كنت أتمنى لو كنت معنا بعد ظهر اليوم :
فأ أحسبك كنت سوف تعرفين نانسنفيل . ولو واثقتى الجرأة لكنت
قطعت لك فرعاً من ذلك الزعرور البرى الوردى الذى تحببته كثيراً .
ثم روى لها جدى حكاية نزهتنا ، إما لكي يسليها ، أو ربما لأنه
كان لم يزل لديه بعض الأمل في أنها قد تتأثر بهذه الأوصاف الجميلة
المثيرة فتنهض من فراشها وتخرج إلى الخلاء . ذلك أنها فيما مضى من
الزمان كانت شديدة الشغف بتانسنفيل ، ثم إن زيارات سوان كانت
هى الزيارات الوحيدة التي تسمح بها في الوقت الذى أوصدت فيه
بابها في وجوه الناس جميعاً . ومثلاً كانت في تلك الأيام المتأخرة ترسل
إليه — عندما يأتي ويطلب زيارتها لأنها كانت لم تزال الشخص
الوحيد في البيت الذى يطلب زيارته — وتقول إنها متعبة في هذه
اللحظة ومخلدة للراحة ، ولكن يسرها أن تراه في فرصة أخرى ،
قالت هذا المساء لجدى :

— أجل : يوماً ما عندما يكون الجو جميلاً سأستقل العربية إلى بوابة ذلك البستان :

وكانت في ذلك صادقة مخلصه ، لأنها كانت تود أن ترى سوان وتانسفيل مرة أخرى ، ولكن كانت الرغبة وحدها هي ما تقدر عليه الآن بما تبقى لها من قوة ، أما تحقيق هذه الرغبة فكان فوق طاقتها .

وفي بعض الأحيان كانت فترة من الجو المعتدل تمددها بمزيد من الحيوية ، فتنهض وترتدى ثيابها ، ولكن قبل أن تصل إلى الحجرة الخارجية ينتابها التعب مرة أخرى ، وتلج في العودة إلى فراشها .

وكانت هذه العملية التي بدأت لديها — وإن كانت بالنسبة لها قد بدأت في وقت مبكر مما ينبغي بالنسبة لجميعنا — عبارة عن التخلي التام والعام عن الحياة والنشاط ، ذلك التخلي الذي يحدثه التقدم في السن استعداداً للموت : إنه مرحلة « الخادرة » التي تلاحظ كلما امتد العمر بإنسان أكثر مما يجب ، حتى لدى العاشقين القدامى الذين عاشوا بعضهم لبعض بكل ولع ، ولدى الأصدقاء القدامى الذين تربط بينهم أوثق الصلات العقلية والتعاطف ، وإذا بهم بعد سنة معينة لا يكلفون أنفسهم عبور الشارع ليرى كل منهم صاحبه ، ويكلفون عن التراسل ، ويعلمون عندئذ أنهم لن يتواصلوا بعد الآن في هذه الدنيا : ولا بد أن عمى كانت مدركة تماماً أنها لن ترى سوان بعد

ذلك ، وأنها لن تغادر بيتها أبداً : ولكن هذه العزلة التامة بدت مقبولة لديها بكل التأهب لها ، ولنفس السبب الذي يجعلها بالنسبة لنا لا تطاق ، أي لأن هذه العزلة مفروضة عليها بسبب تناقص قوتها التدريجي المتواصل ، الذي كان في وسعها أن تعيشه في كل يوم ، بما يسببه كل فعل من أفعالها من الإجهاد ، هذا إن لم يكن مؤلماً بالفعل ، فيضني ذلك على همودها وعزلتها وسكونها بحر الراحة المنعش ؟

ولم تذهب عمى لتشاهد الزعرور البري الوردى في سياج البستان ، ولكن في كل ساعات النهار كنت أسأل بقية الأسرة أليست مزمنة أن تذهب ، وهل لم يكن من عادتها في الزمن الغابر أن تذهب كثيراً إلى تانسفيل ؟ وكنت بهذه الأسئلة أحاول أن أستدرجهم للحديث عن الآسنة سوان أو عن والديها وجدليها ، الذين بدوا لي في عظمة الآلهة ومجدهم الأثيل ، وكان اسم سوان قد غدا لي شبه أسطوري ، فكنت حين أتحدث مع أفراد أسرتي أشتاق شوقاً مرضياً إلى سماعهم يتفوهون به : أما أنا فلم أكن أجسر على النطق به ، إلا أنني كنت أستدرجهم إلى مناقشة أمور تؤدي بطبيعتها إلى ذكر جيلبرت وأسرته . وبذلك أحس أنني لست منبوذاً من صحبتها على نحو ما : وقد اضطر أبي إلى تصحيح عبارة لي أخطئ فيها عمداً ، بأن أزعم أن مهنة جدي كانت قبل أيامه ، أو أن الزعرور البري الوردى كان في عرض الطريق ، فيقول أبي :

— كلا . هذه المهنة بدأت بوالد سوان ، والزعرور البري
الوردي في بستان سوان ، في سياج البستان :
وعندئذ أسكت قليلاً كي ألتقط أنفاسي ، لأن الجهد الذي
بذلته كان خائفاً . ولأن مجرد سماع الاسم كان يرهقني ، لأنه يحرك
المكانن المقترنة به في فؤادي . ويثير لدى لذة لا تعدلها لذة ،
وأعجب لأن التفوه بهذا الاسم لا يسبب لم أي نوع من اللذة .
وأحول الحديث إلى سياق آخر حرصاً مني على عدم اقتضاح سرى .
ولأنني أخشى أيضاً أن أفسد براءة قلوبهم لو سرى إليها شيء من
الوابع التي يثيرها في سريري هذا الاسم .

* * *

وفي تلك السنة حدد والداي موعد العودة إلى باريس قبل التاريخ
المعتاد في كل سنة . وفي صباح يوم السفر عقصت شعري ، تأهباً
لمواجهة المصور ، ووضعت على رأسي قبعة جديدة . ولبست ستره
من القطيفة ، وبعد ذلك بقليل عثرت على أمي — بعد أن ظلت تبحث
عني في كل مكان — واقفاً منهمر العبرات فوق التل المرتفع الملاصق
لتانسفيل ، أودع الوداع الأخير نبات الزعرور البري ، وأضم
فروعه الحادة إلى صدري ، وبلا مراعاة للجهود المضنية التي بذلت
في عقص شعري وتجميعة على جبهتي ، كنت أظأ بقسدي أوراق
العقص التي انتزعها من شعري ، والقبعة الجديدة أيضاً ! ولم تتأثر
أمي على الإطلاق بدموع الغزيرة ، ولكنها لم تستطع أن تكتم صرخة



وبعد ذلك بقليل عثرت على أمي — بعد أن ظلت تبحث عني في كل مكان — واقفاً منهمر العبرات فوق التل المرتفع .

Looloo

فزع عندما رأته حطام قيعتي الجديدة ، وتمزق سترتي الخملية ! ولكني لم أسمع صرختها واحتجاجها ، بل واصلت مناجاتي الباكية : — يا زعروري البري الغالي ! أنت لا تريد شقائي ، ولا تحملي على فراقك ! أنت لم تسبب لي أذى ! لذا سأحبك على الدوام ! وجففت دموعي ، ورحمت أقطع على نفسي العهود للزعرور البري ، لأنني عندما أكبر ، لن أحتو حذو سائر الناس الحمقى ، بل لأنني — حتى وأنا في باريس — في أيام الربيع الجميلة ، بدلا من الزيارات والإصغاء للثرثرة العقيمة ، سوف أقوم برحلات خلوية إلى الريف لأرى بواكير أشجار الزعرور البري المزهرة !

ومتي وصلنا إلى الحقول ، لم نكن نغادر أشجار الزعرور البري على امتداد مسيرتنا في طريق ميزجليز ، بل كنا نمر بها دائما ، أو يحمل إلينا الهواء دائما عبيرها . وهذه الرياح كانت في وجداني سر عبقري كبير : ففي كل سنة ، يوم وصولنا إلى هناك ، لكي أشعر أنني فعلا في كبراي ، كنت أذهب حتماً لأتساق التل ، كي أشعر بهذه الرياح تتحرك ثيابي ، وتدفع بي للجري في اتجاهها : فالمرء يجد دائما في صحبته تلك الرياح عندما يمشي في طريق ميزجليز ، في ذلك السهل المترامي الذي يمتد كيلومترات لأعوذ لها ، بغير عائق : وقد علمت أن الآتية سوان كان من عادتها أن تكثر من الذهاب لقضاء بضعة أيام في لاون Laon ، على بعد كيلومترات كثيرة جداً ، ولكن كان يعزيني عن هذا أن لا عائق أمام انفساح المنظر والطريق :

وفي ساعات ما بعد الظهر الحارة عندما أشعر بتفحة هواء تهب من أقصى الأفق ، فتنبأيل أمامها رعوس سنابل القمح في الحقول البعيدة ، وتنساب كالفيضانات فوق هذه المساحة الشاسعة ، لتستقر في النهاية دافئة موسوسة بين الأعشاب تحت قدمي ، كنت أحس أن هذا السهل المترامي المشترك بيننا ، يجمعنا مثلاً يفرق بيننا ، وكأنه يربط كلا منا بالآخر : وأتخيل أن هذه النسمة نفسها قد مرت بها أيضاً ، وأن همس هذه الرياح يحمل في رسالة منها ، وإن عجزت عن فهمها ، فأحاول أن أقبض على النسيم الذي يهب من ناحيتها ، وأشمه وهو يمر بي :

وكانت عن يساري قرية تسمى شامبييه Champieu ، وعن يميني كنت أستطيع أن أتيين عبر حقول القمح منارتي كنيسة سانت أندريه ديه شان St. André des Champs ، وهما مستدقان ، صفراوان ، خشناتان ، كأنهما منبلتا قحح :

وعلى مسافات منتظمة ، من بين زينة أوراقها التي لا شبيه لها ، والتي لا يمكن الخلط بينها وبين أي أشجار أخرى للفاكهة ، كانت أشجار التفاح تعرض على الأنظار بتلاتها البيضاء الناعمة كالساتان ، أو تميز في عناقيد ومجموعات حيية براعمها المتوردة التي لم تنفتح بعده وفي غصون سيري في طريق ميزجليز لاحظت لأول مرة الفل الدائري الذي تلقى أشجار التفاح على الأرض المشمسة ، ولاحظت أيضاً تلك الخيوط من الحرير الذهبي التي تنسجها أشعة الشمس

الغاربة تحت أوراقتها ، وقد أرى أني يضرب بعصاه فيها بينما من غير أن تحيد عن مسارها المستقيم .

وأحياناً يتسلل قر أبيض متسلقاً سماء ما بعد الظهر كأنه سحابة صغيرة « مخفية » ، أو كأنه ممثلة لم يحن دورها بعد للظهور على المسرح ، ولذا تذهب في ثيابها العادية إلى الصالة لتشاهد مع الجمهور تمثيل بقية أعضاء الفرقة ، برهة ، ولكنها تجلس في مؤخرة الصفوف لأنها لا تريد أن تلفت إليها الأنظار !

وكنت فيما مضى أسعد برؤية صورة القمر في الكتب والرسوم ، وإن كانت هذه الأعمال الفنية مختلفة جداً — على الأقل في أعوامي الباكرة قبل أن يرهف « بلوخ » عيني وذهنى للهارمونييات الدقيقة — عما يبدو لي القمر اليوم ، ولعل تلك الكتب كانت رواية بقلم سانتين Saintine ، أو منظرأ بريشة جليز Gleize ، يبدو فيه القمر وكأنه منجل فضي فوق صفحة السماء . وهي أعمال غير ممنكة في تلك الأيام تضاهي في فجاجتها انطباعاتي ، وكانت شقيقتنا جدتي تغضبان جداً لإعجابي بها . فقد كان من رأيهما أنه ينبغي ألا يوضع أمام أنظار الأطفال ليستحوذ على إعجابهم وذوقهم الفطري إلا تلك الكتب والصور التي يجدر بهم أن يعجبوا بها عندما تنمو عقولهم وتنضج أذواقهم . ولا شك في أنهما كانتا تعدان القيم الجالية أشبه بالموضوعات والأشياء المادية التي لا يفوت الرؤية الصافية الخالية

من الغيوم والأكدار أن تميزها ، بدون حاجة إلى أن تبدأ القلوب باختران بدورها ثم تستنبتها وتنضجها مع مرور الزمن ببطء :

* * *

وعلى امتداد طريق ميز جليز ، في مونجوفان Montjouvain ، بيت مشيد على حافة بركة كبيرة ، ويشرف عليها تل وعمر المرتقى تكسوه الشجيرات ، يعيش فيه فاتي Vintueil ولذا كنا كثيراً ما نصادف ابنته تقود دوكارها بأقصى سرعة على ذلك الطريق . وبعد ستة معينة لم نعد نراها أبداً وحدها ، بل في صحبتها دائماً صديقة ، هي فتاة أكبر منها سناً ، لها سمعة سيئة في المنطقة . وأخيراً استقرت نهائياً ذات يوم بصفة دائمة في مونجوفان . وقال الناس :

— لا بد أن المسيو فاتي المسكين قد أعماه الحب فلم يعد يرى ما يتحدث عنه كل الناس ، وترك ابنته — وهو الرجل الذي يرتاع إذا استخدمت أي لفظ بمعنى سيئ — تأتي بفتاة مثل هذه لتعيش تحت سقفه . وهو يقول : إنها امرأة ممتازة جداً ، ولها قلب من ذهب ، وإنها كانت خليقة لو وجدت المران والتدريب أن تكون لها موهبة موسيقية نادرة . ولكن من المؤكد أن ما تعلمه هذه الفتاة لابنته ليس الموسيقى !

ولكن المسيو فاتي أكد فم أنها تعلمها الموسيقى ، ومن الغريب حقاً أن الناس يثيرون دائماً الإعجاب بصفتاتهم العادية جداً لدى أقارب كل من لم اتصال جسدي به . فاتي الجدي — الذي شير

به بين الناس - يرغم صحبايه على إبراز كل ما يمكنهم إظهاره من الأثرة والكرم والنجدة ، وبذلك يتألقون في عيون الناظرين إليهم . وكان الدكتور برسييه ، مؤهلاً بصوته العالى وحاجبيه الكثر للقيام كما يهوى بدور المشهر المرائى ، من غير أن يهدر سمعته وشهرته بطيبة القلب وسرعة الغضب ، ولذا كان يجعل الخورى وسائر الناس يضحكون إلى أن تدمع عيونهم ، بأن يقول بصوته الأجش : — ما قولكم الآن فى هذا ؟ يبدو فعلاً أنها تعرف الموسيقى مع صديقتها الآسة فانتى . أبدهشكم هذا ؟ أنا شخصياً لا أعرف شيئاً على الإطلاق ، سوى ما قاله لى بابا فانتى بالأمس : ثم لأنه من حق هذه الفتاة تماماً أن تشغف بالموسيقى . وأنا شخصياً لن أفكر فى إحباط الموهبة الفنية لأى فتاة . ويبدو أيضاً أن هذا رأى فانتى . ولذا يعزف هو الموسيقى كذلك مع صديقه ابنته : بحق السماء ! لا بد أن ذلك البيت صار جوقة موسيقية حقيقية ! ما الذى يضحككم بحق السماء ؟ لم أقل شيئاً سوى لأنهم يعزفون الموسيقى أكثر مما يجب ، هؤلاء الثلاثة ! وقد قابلت بابا فانتى منذ أيام قرب الجبابة : وكان لا تكاد تحمله قدماء !

وكل من شاهد كما شاهدنا نحن المسيو فانتى ، فى ذلك الحين ، وهو يتجاشى من يعرفهم من الناس ، ويشيح بوجهه كلما لحظهم من بعيد ، يجده قد تغير فى أشهر قلائل وصار شيخاً ، غارقاً فى هوة من الأحزان ، عاجزاً عن بذل أى مجهود ليس من شأنه أن يقضى

مباشرة إلى سعادة ابنته : وصار يقضى أياماً بأسرها إلى جانب قبر زوجته : حتى أن كل من رآه أدرك أن الرجل يموت موتاً بطيئاً وهو كسير القلب ، ولا يكاد أحد يصدق أنه لا يلقى بالآلى كل الإشاعات التى تلاك من حوله . ولعله كان يعرف ، بل وكان يصدق ما يقوله جيرانه . وربما لا يوجد أحد من الناس - مهما كان صارم الفضائل مترماً فيها - ليس معرضاً لأن يجد نفسه - بحكم الظروف المعقدة - يعيش عن كسب من نفس الرذيلة التى كان أعلى الناس صوتاً بالنديد بها ، من غير أن يعرفها فى البداية تحت ذلك القناع الذى تتخذه عندما تمثل بين يديه ، لكى تكون أشد تمكناً من إيلايه : وقد يكون مصدر هذا العذاب أحب الناس إليه وآثرهم لديه : ولكن رجلاً له مثل حساسية المسيو فانتى لا بد أن يكون ألمه أضعاف ألم رجل عادى عجمت الحياة عوده وعلمته الصلابة ، وهو يرى نفسه مضطراً للإذعان لتلك المواقف النابية التى يزعم الناس - وعن خطأ ما يزعمون ! - أنها لا تحدث إلا فى الأوساط البوهيمية دون سواها : فالواقع أن هذه الرذائل التى توصف بالشذوذ تزدهر وتؤتى ثمارها من بذور غرسها الطبيعة نفسها فى نفس الطفل ، حين مزجت بين صفات أمه وأبيه ، على نحو ما مزجت بين لوفى عينيها .

وبالغة ما بلغت معرفة المسيو فانتى بسلوك ابنته ، إلا أنه لم يترتب على هذا أى نقصان فى توطئه بها إلى حد العبادة : فحقائق الحياة لا تنوغل إلى الخيال الذى تستقر فيه معتقداتنا . ولأن حقائق الحياة

ليست هي التي أنجبت هذه المعتقدات ، لذا فهي عاجزة عن تدميرها والقضاء عليها . أجل إنها تستطيع أن توجه إليها الضربات ، وتكيل لها التفتيد والتسخيف ، ولكنها هيئات أن تنال منها أو توهنها . وطوفان الشقاء والأمراض الذي يتصب على أسرة ما بلا انقطاع ، لا يمكن أن يحملها على فقدان إيمانها برحمة الله أو مقدرة الطبيب . ولكن عندما نظر مسيو فانتى إلى ابنته وإلى نفسه من وجهة نظر الناس ، ومن وجهة نظر سمعتهما ، وعندما حاول أن يقف إلى جانبها في نفس المستوى الذي يشغلانه معاً في تقدير جيرانهما ، عندئذ تحم عليه أن يصدر حكمه بالإدانة ، فيدين نفسه ويدينها اجتماعياً بأحط التعوت والألفاظ التي استخدمها ألد أعدائه في كبراي . وإذا به يرى نفسه ويراه في الدرك الأسفل . ولذا اصطبغت سمته بتلك المهانة . وهاله الفارق بينه وبين من يراهم جذرين بالاحترام من حوله (مع أنهم من قبل كانوا أقل منه بكل المقاييس) وتقطعت نفسه حشرات وهو يبحث عبثاً عن وسيلة ترفعه إلى مستواهم .

وذاث يوم ، فيما نحن سائرون مع سوان في أحد شوارع كبراي ، وجد المسيو فانتى نفسه فجأة - وهو خارج من شارع آخر - وجهاً لوجه أمامنا جميعاً ، بحيث لم يجد فرصة للروغان . وعندئذ وجد المسيو سوان من واجبه بمقتضى تلك الرحمة المتعالية التي يتمتع بها رجل المجتمع الذي حنكه الدنيا - وأيضاً بحكم الحلال أهوائه الخلقية - أن ما استولى على فانتى من الخزي والعار مبرر

كاف لمعاملته بمودة من شأنها أن ترفع من شأن سوان في عين نفسه ، لما فيها من قيمة كبيرة نادرة يفتقر إليها الرجل ، فتحدث طويلاً مع المسيو فانتى ، مع أن علاقته السابقة به كانت سطحية ، ودعاه - قبل أن ينصرف عنا - أن يبعث بابنته ذات يوم لثعب في حدائق تانستيل : وهي دعوة لو أنها وجهت من عامين لكانت خليقة أن تغضب المسيو فانتى أشد الغضب - بسبب تمسكه بالفضيلة وإدائته لزواج سوان - إلا أنها ملأته الآن حبوراً ففاض بحياه بالعرفان . وشعر بأن هذه الدعوة تدعم عظيم لوقف ابنته . إلا أنه لحياته الشديد لم يجد من اللائق استغلال هذا الكرم وقبول الدعوة ، وآثر أن يحتفظ بها رصيلاً أفلاطونياً يكفيه منه الشعور بالرضا .

وبعد أن انصرف سوان ، قال لنا بنفس الحماسة والإجسال اللذين يجعلان حسناوات الطبقة الوسطى يقعن فريسة السحر الثقافي والجسدى لإحدى الدوقات ، مهما كانت قبيحة حقاً :
- ياله من رجل ساحر ! ما أظفه ! ومن المؤسف حقاً أن يكون قد تردى في هذا الزواج المنكود !

وعندئذ بدا مبلغ ما في نفوس الناس - حتى أشدهم إخلاصاً - من رياء ، فإذا بهم حين يتحدثون مع أى شخص يحسون عنه رأيهم الحقيقي فيه ، ثم يصرحون به متى ابتعد عنهم . ولذا رأيت أسرتي تنضم إلى المسيو فانتى في التنديد بزواج المسيو سوان ، مستندين إلى مبادئ وأعراف وتقاليده ، وكأن هذه المبادئ والأعراف - وهم

يتحدثون إلى المسيو فاتني - ليست متبهة في مونجوفان ، لأن الكلام معه كان بصيغة حديث بين مجموعة متجانسة النوع من الناس.

ولم يرسل المسيو فاتني ابنته لزيارة المسيو سوان ، فكان المسيو سوان أول من أسف لذلك ، لأنه تذكر بعد لقاء المسيو فاتني أنه كان ينوي منذ مدة طويلة أن يسأله عن شخص يحمل نفس الاسم ، يظنه سوان من أقربائه : وكان ينوي أن يسأل المسيو فاتني عن هذا الموضوع عندما يحضر مع ابنته إلى تانسفيل :

ولما كان طريق ميز جليز أقصر الطريقتين اللذين كنا نستخدمهما في سيراتنا حول كمبراي ، ولذا كنا نخصصه للأيام ذات الطقس غير المستقر : وكثر في هذا الموسم سقوط الأمطار ، لذا لم تغب عن أنظارنا حافة غاية تانسفيل ، كي يتسنى لنا في أي لحظة أن نجري لنحتمي تحت سقف أوراقها الكثيفة .

وفي كثير من الأحيان كانت الشمس تخفي خلف سحابة ، تخفي قرصها ، ولكن أشعة الشمس تصبغ حوافها بألوان ذهبية ، ويختفي للضوء الساطع من المنظر المحيط بنا ، وكأن كل مظاهر الحياة فيه قد توقفت ، في حين ترتسم قرية روستفيل على صفحة السماء بكل تفصيلاتها الدقيقة بصورة مذهلة : وجرفت الرياح غراباً من فوق مجثمه ، فطار مبتعداً واستقر على مبعده ، في حين تكتسب الغاية على حافة الأفق لوناً أزرق أعرق من سائر صفحة السماء الشاحبة ،

كأنما نقشت صورتها نقشاً بارزاً مثل تلك النقوش التي مازلنا نراها في البيوت القديمة :

ولكن في أيام أخرى يبدأ المطر في المطول ، بعد أن نكون توقعنا ذلك وتلقينا تحذيراً عنه من جانب البارومتر الذي يعلقه صانع النظارات في مدخل محله : وتساقط قطرات المطر في مجموعات كأنها الطيور المهاجرة في لحظة معينة ، وتهطل من السماء في انتظام كأنظمة الطواير الزاحفة . ولا تلمح بين صفوفها المترصة أي اختلال ، بل تتواكب القطرات وتسود صفحة السماء مثلاً يسود لونها بأسراب طيور السنونو المهاجرة إلى الجنوب . ونحتمي تحت الأشجار : وعندما يخيل إلينا أن الانهمار قد انقطع ، نجد قطرات متباعدة تهطل ، بمعدل أبطأ ، وفي تباعد ، إلا أننا لا نبالي بها ونبرز من تحت ملاذنا الأخضر ، ونلعب مع بقايا المطر لعبة الاستخفاف : نرفع وجوهنا ، وإذا بالقطرات التي تجمع في تجويف ورقة كبيرة تفاجئنا لتهبط فوق وجوهنا من ارتفاع الشجرة الشاهق .

وفي كثير من الأحيان أيضاً نجري لنحتمي بمدخل كنيسة « سانت أندريه ديه شان » ونحن نعثر ونتخط بين تماثيل قدسيها : ويألفنا من كنيسة فرنسية الطابع حقاً ! ففوق بابها صور القديسين ، وملوك القروسية وفي أيديهم الذنابق ، وصور حفلات الزواج والجنائز منحوتة هناك على نفس الهيئة التي تتجلى في ذهن فرانسواز العامى . وقد سجل النحات هناك أيضاً بضعة أحداث مقترنة من أرسطو

ومن فرجيل : تماماً على نحو ما تنطق فرنسواز في مطبخها لتحدث عن القديس لوى Louis وكأنها كانت تعرفه شخصياً ، لا شيء سوى استخدام هذا الحديث لبيان الفرق بينه وبين جدى وجدلى اللذين كانت تعدهما أقل قداسة وبراً وصلاحاً .

وفى وسع المرء أن يتبين هنا أن الأفكار التي كانت لدى فنان العصر الوسيط ولدى فلاح القرون الوسطى (وفلاحة من هذا النوع ها هي حبة ترزق تطهو لنا الطعام فى القرن التاسع عشر) عن التاريخ الكلاسيكى وتاريخ المسيحية الباكر ، أفكار تستحق الصفح والتسامح لما تنسم به من بساطة أمينة إلى حد السذاجة ، وهى فى الحقيقة ليست أفكاراً مستفاعة من الكتب ، بل من تقاليد قديمة ومباشرة وشفوية ونابضة بالحياة .

وهناك شخصية أخرى من شخصيات كبرى كنت أميزها أيضاً بقوتها وتغطيتها فى المحتويات القوطية لكنيسة « سانت أندريه ديه شان » ، وهى شخصية الفتى تيودور Théodore ، مساعد البقال كامى Camus . والواقع أن فرنسواز كانت تحس فى أعماقها أن تيودور هذا معاصر من مواطنيها ، لأن عمى عندما كانت العلة تشتد عليها ، بحيث يستعصى على فرنسواز أن تحملها وحدها لتنتقلها من فراشها إلى كرسيها ، لا تسمح لخادمة المطبخ بالصعود لمساعدتها ، بل ترسل فى طلب تيودور . والعجيب أن هذا الفتى الذى كان معروفاً فى القرية - ويحق - بأنه « ابن سوء » .

كان يفيض بذلك الروح الذى يجلبه الترحات على مدخل كنيسة سانت أندريه ديه شان ، ولا سيما فى أمارات الاحترام الواجب - فى نظر فرنسواز - بإزاء « المرضى المساكين » ، وعلى الخصوص نحو « سيدتها المسكينة » ، ولذا كان يبدى وهو يتحنى لرفع رأس عمى من فوق وسادتها نفس البساطة والحاسة التى يبدىها الملائكة الصغار فى تلك اللوحة الكنسية ، وما أكثرهم فيها حاملين فى أيديهم الشموع الرقيقة وهم يحضون بجثمان سيدتنا العذراء . وكأنهم بأجسامهم العارية الهامدة كأشجار الشتاء ماتوا أيضاً ، فى انتظار يوم تدب فيه الحياة ويورقون ، على هيئة وجوه سوقية كلها بساطة ممزوجة بالخيث ، مثل وجه تيودور ، ولها نضرة التفاح الناضج !

وهناك أيضاً ، تمثال ليس مثبتاً فى الجدار مثل أولئك الملائكة الصغار ، بل هو منفصل عن المدخل ، وبحجم أكبر من الحجم البشرى الطبيعى ، لامرأة منتصبه القائمة فوق قاعدة ، مثلاً تقف نساء البشر فوق مواطئ الأقدام ، لتحتفى من الاتصال بالأرض الرطبة ؛ ولله القديسة وجنتان مليتان وتديان ناهدان قويان بارزان من تحت ثيابها كعنفودين من العنب الناضج داخل كيسان ، وجهتها ضيقة ، وأنفها قصير يدل على العناد ، وعيناها غائرتان ، ومنظرها يدل على القوة وصلابة البشرة والبسالة والإقدام مثل الريفيات فى هذا الإقليم . وكان هذا التشابه الذى أضفى على التمثال نفسه رقة وحيوية لم أكن أتوقعهما فيه ، كان يتأكد كثيراً بوصف إحدى الفتيات من

الحقول المجاورة ، وقد جاءت كما جئنا لتحتفى تحت مدخل الكنيسة لتحتفى من المطر ، فيتيح لنا وقوفها بجوار تمثال القديسة أن ندركه مدى صدق ذلك العمل الفني ، على نحو ما يتسلق النبات الطبيعي واجهة منحوتة فوقها أوراق نبات ، فإذا بك تحس من هذا التجاور مدى صدق الفنان وإخلاصه للطبيعة الحية :

وأما أعيننا - ونحن هناك - نرى عن بعد الأرض الموعودة أو الملعونة ، ترى روسنيل التي لم يتح لى أن أفذ وراء أسوارها . وعندما يكف المطر عن المطول فوقنا تظل روسنيل قريبة العاصفة كأنها بلدة ملعونة من تلك البلدان التي ذكرتها التوراة وقالت إن الرب صب عليها سهام غضبه . وأحياناً نرى هذا العقاب يرتفع عنها بعد حين ، ويشملها غفو الرحمن ، وتشرق شمس مرة أخرى على مساكها بأشعة غير متساوقة .

وفي بعض الأحيان قد يسود الطقس بحيث تضطر للاحتباء داخل بيتنا ، وعندئذ يبدو مشهد البيوت تحت المطر والغيوم أشبه بالمنظر البحرية ، ومن فوق البيوت تدنو السحب المطيرة ، وترعد السماء وتهرق : وتلوح الأنوار من النوافذ ، وكأنها أنوار قوارب ألقت مراسيها طول الليل في عرض البحر :

ولكن ما أهمية المطر أو العاصفة ؟ إن الطقس السيئ في الصيف ليس إلا نوبة عارضة من غضب سطحي عابر بالقياس إلى اعتدال الجو السائد في معظم الأيام : وهذا تقيض جو الشتاء على طول الخط :

وفي مثل تلك الأيام أجلس في الرواق الصغير أطالع كتاباً ، وانتظراً لوقت العشاء ، وأرنو من خلال النافذة ، وأصغي لتساقط الماء من أشجار كستنائنا ، مدركاً أن هذا المطر من شأنه أن يخلو خضرة أوراق حديثتنا ، وأشعر بالاطمئنان إلى أن المطر مهما انهمر طول الليل ، في الغد سيكون الجو صحوً ، وسأجد سباح تانسفيل وقد ازدادت أوراق نباتاته اخضراراً ونضارة ، تلك الأوراق التي يحاكي شكلها شكل القلب : وبدون قلق أرقب أشجار الحور في شارع بيرشان Perchamps وهي تنضرع إلى الله متوسلة وطالبة منه الرحمة ، وتنحني في خوف أمام العاصفة : وبدون قلق أيضاً أسمع من الطرف الأقصى للحديقة آخر دمددمات الرعد وهي تتردد بين أشجار الليلك :

وإذا ظل الطقس سيئاً طول فترة الصباح ، تتخلى أسرتي عن الزهرة ، وأبقى في البيت . ولكني بعد فترة تعودت أن أخرج بمفردي في مثل تلك الأيام وأسير صوب ميزجلز لافينيز ، أثناء ذلك الخريف الذي نحتم علينا فيه أن نحضر إلى كبراي لنسوى قسمة ضيعة عتي ليوني ، لأنها ماتت أخيراً تاركة فريق جيرانها شاعرين بالانتصار لوفاتها : فريق من كانوا يصرون على أن أسلوب حياتها من شأنه أن يضعفها ولا بد أن ينتهي بقتلها ، وفريق من كانوا يقولون إنها تعافى من مرض غير وهمي ، بل عضوي ، وقد أبدت وفاتها فرامتهم : وهكذا لم يسبب موتها حزناً حقيقياً لأحد من عاشوا

بعدها ، اللهم إلا لشخص واحد ، ولكن حزن هذا الشخص الواحد كان ضارياً في عنقه . ففي الأسبوعين الأخيرين من مرض عمي الأخير لم تبارح فرنسواز حجرة عمي لحظة واحدة . ولم تخلع ثيابها قط ، ولم تسمح لأى أحد سواها أن يصنع لعمي شيئاً ، ولم تفارق جنباتها إلا بعد أن أودع القبر فعلاً .

وعندئذ فهما أخيراً أن ذلك الرعب الذى عاشت فيه فرنسواز خوفاً من كلمات عمي الغليظة القاسية ، ومن شكوكها وغضبها ، قد أوجد لديها شعوراً عميقاً أخطأنا حين حسبناه الكراهية ، في حين أنه كان الإجلال والحب . وها هى سيدتها الحقيقية التى كان من المستحيل عليها أن تتجاهل أوامرها ، ومن المستحيل عليها أيضاً أن تتكهن بها سلفاً ، ومن العسير عليها أن تتخلص من مناوراتها ، وإن كان من السهل عليها أيضاً استغلال طيبة قلبها . ها هى طاغيتها المستبدة ، وملكتها المطلقة قد قضت نجحها . أما نحن فلم يكن لنا وزن يذكر بالقياس إلى مثل هذه السيدة الفذة . فقد مضى زمن طويل على ذلك العهد الذى كنا نحن فيه - عند قدومنا لأول مرة إلى كبرى إرى لقضاء العطلة - نعد في نظر فرنسواز على قدم المساواة من حيث المكانة والأهمية مع عمي ليونى .

وفي ذلك الحريف ، كان والداى مشغولين في جميع الأيام طول الوقت بالإجراءات القانونية التى كان لا بد من الانتهاء منها ،

وبالمناقشات مع المحامين والفلاحين ، فلم يكن لديهما متسع من الوقت للزهرات سيراً على الأقدام التى جعلها تقلب الجو القامى مخوفة بالمتاعب ، فشرعا يسبحان فى بانجروج بدوتهما ، إلى طريق ميز جلير ، ملفوفاً في دثار صوفى سميك كان يحميني من المطر . وكان يشجعني على لفه حول كفتي ما كان يبدو على فرنسواز من غيظ بسبب ألوانه الأسكتلندية الزاهية ، ولرفضها التصديق بأن لون ملابس الإنسان لا علاقة له مطلقاً بالحزن والحداد . ولا سيما أنها كانت تجد حزننا لوفاة عمي ليونى غير كاف في نظرها ، لا لشيء إلا لأننا لم ندع الجيران بعد تشييع جنازتها إلى مأدبة حافلة تليق بمقام الفقيده الرقيق . كما أننا لم نكن نستخدم نبرة خاصة كلها خشوع وإجلال عند ذكر اسمها الكريم . أما أنا فما كان أعظم ذنبى في نظر فرنسواز لأنني كنت أحياناً أجرؤ على الدندنة ببعض الألحان الموسيقية التى أعشقها ، كما هى عادتي . وكانت تعتقد أن مراسم الحداد ومظاهره كما تصفها الكتب القديمة - وأنا في هذا متفق معها تماماً - على غرار ما ورد في « أغنية رولان » Roland وما يبدو في لوحات مدخل كنيسة « سانت أندريه ديه شان » ، أليق وأكثر جاذبية وصحراً . ولكن - لسبب ما لا أدريه - ما إن كنت أرى فرنسواز تدنو من مكاني ، حتى تتملكني رغبة جارفة في استئثاره غضبها ، وأنتهز أول ذريعة للتحدث عن عمي الراحلة ، قائلاً لها : كم أنا أسف لوفاتها ، رغم ما كان فيها من سخافة وغرابة أفكار .

وأن سبب حزني ليس أنها كانت عمي ، فقد كان من الممكن جداً أن تكون عمي ومع ذلك أبغضها كل البغض بحيث لا يسبب موتها لي أي حزن أو أسف : وهي عبارات لو وردت في كتاب لأدهشتني بسخافتها وعمقها !

فإذا ما هبط الوحي والإلهام على فرنسواز كأنها شاعرة ، واندفعت تنفوه بعبارات وخواطر محمومة غاضبة عن واجبات الإحساس بالحزن وبروابط الدم في الأسرة الواحدة ، وما تحفل به حياة الأسرة من ذكريات رقيقة عزيزة ، ثم أرتج عليها فقالت في النهاية يائسة :

— أنا لا أعرف كيف « أهرب » عن نفسي !

وهي تعني بكلمة « أهرب » كلمة « أعبّر » فهي تحطئ مثل كثير من الأميين في نطق الألفاظ الفصيحة التي تسمعها وتصر مع ذلك على استخدامها . وعندئذ أهرأ منها بغلظة جديرة بالذكور برسييه ، فترد على قائلة :

— إن قربانك لها على كل حال قرابة « جيولوجية » ! ومن واجبك أن تحترم « جيولوجيتك » !
فأهر عندئذ كنتي وأقول لها :

— لأنها بلا شك طيبة بالغة مني أن أناقش الأمر مع عجوز أمية مثلك لا تستطيع أن تتكلم لعتها .

مقلداً حذلقه الرقاء الذين يسخرون من بساطة الجهلاء ...

وكانت نزهاقي في ذلك الخريف أحفل بالمتعة ، لأنني كنت أمضي فيها بعد تخضية ساعات طويلة أطالع كتاباً ما : وعندما أشعر بالتعب أو الملل من القراءة ، طيلة الصباح في البيت ، ألتقي بذلك الدثار الأسكتلندي المخطط فوق كنتي وأغادر البيت ، وقد ادخر بدني من ساعات الجلوس والسكون الطويلة رصيداً كبيراً من الطاقة الحيوية ، وناق إلى إفراغها في الحركة والوثب والنشاط في جميع الاتجاهات : ويقضي على جدران البيوت وسياج تانسفيل وأشجار غابة روسفيل ، وللشجيرات التي يوليها مونجوفان ظهوه ، أن تتحمل ضربات عصاي أو مفلتي ، وتردد أصداء صيحاتي التي تعبر عن حيوري : وما كانت تلك الضربات والصيحات التلقائية إلا تعبيرات عن الأفكار والخواطر المضطربة التي تموج بالهجة في أعماق نفسي ، ولا تريد أن تستقر إلى أن تنضج وتجد التعبير المنظم عنها ، فتأبني إلا أن تنفجر على هذه الصورة ، وعلى هذا النحو يكون ما يخرج منا اعتباطاً إنما هو طريقة لتخليصنا من عبء هذه الإحساسات الزاخرة الطامية التي تنوء بحملها ، ولا نعرف كيف نترجمها إلى تعبيرات فنية :

وعندما حاولت أن أسترجع وأحصى كل ما أنا مدين به لطريق ميزجلير ، وكل اكتشافاتي المتواضعة التي عثرت عليها بالصدفة أو ألهمني إياها هذا الطريق ، تذكرت أنني كنت ، في غضون ذلك الخريف ، في إحدى نزهاقي هذه بالقرب من الهوة الملتفة الأشجار التي تحمي مونجوفان من الخلف ، وإذا بي أدهش لأول مرة بحسب

التناسق بين انطباعاتنا والصور العادية للتعبير عنها . فبعد ساعة من المطر وعصف الرياح ، اللذين كافحتهما كفاحاً شديداً ، وصلت إلى حافة بركة مونيوفان ، وإذا بكوخ صغير له سقف من القرميد ، يحتفظ فيه بستاني المسيو فانتى بأدواته . وفجأة أشرقت الشمس مرة أخرى ، وسطعت أشعتها الذهبية التي غسلها المطر في قبة السماء ، وعلى الأشجار ، وعلى جدار الكوخ ، وعلى قرميد السقف الذي لم يزل مبتلاً ، وقد جثمت على حافته دجاجة . وكانت الريح تجذب الأعشاب البرية النابتة في الجدار ، وتجذب ريش الدجاجة بعنف ، وخلت الريح تنقاً من العشب ومن ذلك الريش خففة وبأقصى سرعة تندفع بها مثل هذه الأشياء الخفيفة التي لا حياة فيها . وانعكست صورة السقف القرميدي على سطح البركة الذي بدا صافياً في ضوء الشمس ، فكأنما أرى مربعاً من الرخام الوردى اللامع لم أر له مثيلاً من قبل . وافتقر وجه الماء عن ابتسامة شاحبه تحاكي ابتسامة السماء في تلك اللحظة ، فصاحت بأعلى صوتي من فرط حساسي ، وأنا ألوح بالمظلة :

— مرحي ! مرحي ! مرحي !

وحاولت أن أتعمق بواعث حيوري . وفي هذه اللحظة مر بي فلاح ، اصطدمت مظلتي بوجهه ، فكشّر عن أنيابه متجهماً وأنا أقول له :

— يا له من يوم جميل ! ما أبهى أن يخرج فيه المرء للنزهة .

وكان رده الجاف درساً لي تعلمت منه أن المشاعر البشرية لا تجيش على نحو واحد في جميع قلوب البشر طبقاً لنظام مسبق . واكتشفت فيما بعد أنني كلما قرأت ساعات طويلة حتى الملل وصرت توافاً للحديث ، وجدت الصديق الذي أتحرق شوقاً لحديثه معي قد قرغ لثوه في هذه اللحظة من ساعة طويلة من الحديث ، ولم يعد يتمنى شيئاً سوى أن يتركه الناس يتخذ للقراءة في صمت وسكينة . وأما إذا كنت أفكر بكل إعزاز في والدي ، وأدبر في نفسي أنسب الخطوط لإدخال السرور عليهما ، يكونان هما في هذا الوقت بالذات قد اكتشفا سوء تصرف بدر ميني ونسيته تماماً ، فيشرعان في تقريري بكل عنف في اللحظة التي ألقى بنفسي فيها عليهما لأقبلهما بحمارة وشوق !

وأحياناً ينضاف إلى الخبور الذي أستعده من نزهي وحدي شعور آخر ، وتستبد لي الحيرة بين هذين الشعورين فلا أدري أيهما أرجح ، وهذا الشعور الآخر هو الرغبة في أن أرى فناء فلاحه تنتصب واقفة أمامي ويتاح لي أن أضمها بين ذراعي . ولأن هذا المخطر داهني فجأة ، ولم يتح لي أن أتعب مضدري بين أفكارى الأخرى المتنوعة ، لذا كانت اللذة التي تصاحب هذه الرغبة تبدو لي من نوع أرقى من التذاذي بأفكارى الأخرى .

لقد وجدت في ضوء هذه الرغبة مزية إضافية لكل ما كان يحول بذهني في ذلك الوقت : في الانعكاس الوردى لقرميد السقف :

وفي العشب البرى النبات في الجدار ، وفي قرية روسنفيل التي طالما
تمنيت أن أدخلها ، وفي أشجار غاباتها ومنازة كنيسةها : ودخلتني
اعتقاد بأن هذه الصور الجميلة هي التي ولدت في نفسي تلك الرغبة
في معانقة الفتاة المرجوة : ولكن تلك الرغبة في ظهور تلك المرأة
زودني بما هو أكثر من المتعة بجبال الطبيعة والاحتياج به ، لأن هذا
الجمال الطبيعي جعل ما يمكن أن أجده من اللذة في أحضان تلك المرأة
أكثر رحابة وأعمق أثراً . لقد خيل لي أن جمال الأشجار التي أراها
إنما هو جمال تلك المرأة أيضاً ، فقبلتها وهي التي يمكن أن تجعلني للسيد
المهيمن على جمال ما في هذا الأفق من رحابة ، وما في قرية روسنفيل
من خيال ، بل وعلى الكتب التي قرأتها في تلك السنة : واستمدت خيالي
مزيداً من القوة من اشتهاى لها ، فامتسع هذا الاشتهاى حتى شمل كل
ممالك خيالي وعوالمه ، فلم يعد لهذه الشهوة حدود :

وقضلا عن هذا ، كما أن لحظات الاستغراق في تأمل للطبيعة
توقف نشاط العقل العادي ، ونعتقد أعمق الاعتقاد بأصالة وحقيقة
وجود المكان الذي قد نجد فيه أنفسنا - كذلك لم تكن المرأة التي
اشتيتها في تلك اللحظة أي نمط كيفما كان لجنس المرأة ، بل نتاجاً
ضرورياً وطبيعياً لثربة الأرض التي أمشي فوقها : ففي ذلك الحين
كان كل ما عدا ذاتي ، أهم وأكثر واقعية مما يبدو للرجال الناصجين .
ولم أكن أميز بين التربة ومخلوقاتنا . لذلك اشتيتها فتاة فلاحسة من

ميزجليز أو روسنفيل ، أو فتاة صائدة سمك من بلبيك ، تماماً كما
كنت أشتي بلبيك وميزجليز ؟

ولو أن اللذة التي تتيحها لي هاتيك الفتيات كانت زائفة ،
لفقدت كل إيماني بها ، إن كان في وسعي أن أغير من أحوالها ،
فإن قابلت في باريس فتاة صائدة أسماك من بلبيك أو فلاحسة من
ميزجليز لكان ذلك أشبه بتلقي بحارة لم أرها من قبل على الشاطئ ،
أو نبات فطري لم أراه من قبل غابات ميزجليز : وذلك خليق أن يجرد
الهدية من كل متعة حقيقية ، ويجرد الفتاة من كل المفاتيح التي أغدقها
عليها خيالي الخصب : أما أن أتجول في غابة روسنفيل من دون فتاة
فلاحسة أعانقها فذلك يجعلني أجهل سر هذه الغابة الخفي ، وجمالها
المكنون : فالفتاة المشتهاة التي لم أرها قط إلا مرقشة بظلال أوراق
شجر الغابة ، كانت في حد ذاتها نباتاً محلياً ، وكل ما هناك أنها نبات
أطول من سائر النباتات التي أراها حولى ، ولها بنية تتيح لي أن ألمس
فيها للنكهة الحميمية للأرض التي اتبثقت من ثراها .

وكنيت أصدق هذا واعتقدته طواعية (واعتقد كذلك أن
المداعبات والملاحظات التي توصل بها هذه النكهة الخاصة إلى حواسي
كانت في حد ذاتها من نوع خاص ، وتفضي إلى لذات لا يمكن أن
أحصل عليها إلا منها هي) لأنني كنت ما أزال - وسأظل لفترة
طويلة - في تلك الفترة من العمر التي لم يفصل فيها المرء بين حقيقة
لذته الحسية وبين النساء المختلفات اللواتي في صميم تنوع هذه

الذات ، ولم يحولها المرء بعد إلى فكرة عامة بحيث إنه بعد ذلك يعد أولئك النسوة مجرد أدوات متباينة للذة واحدة في جميع الأحوال .
والواقع أن اللذة لا توجد منعزلة ومتشكلة في الشعور باعتبارها الموضوع الأقصى الذي ينشد المرء من ورائه صحة امرأة ، أو باعتبارها سبب القلق الذي يشعر به وهو يتحرق شوقاً إلى هذه الصحة ، بل لا يكاد المرء يفكر عندئذ في نفسه ، بل كل تفكيره في كيفية الهرب من نفسه ، بل إن هذه اللذة تظل غامضة وكامنة ، وتشتد حتى تصل إلى قمة النشوة أو نوبة البرحاء في اللحظة التي تقترب منها وتوقظها لذات أخرى نجدها في النظرة الرقيقة الحنون ، أو في قبلة تلك التي يجانبنا ، ولكن اللذة القصوى تبدو لنا عندئذ وكأنها شعلة عرفان لرقعة قلب رفيقنا ولوعها بنا ، ذلك الولع الذي نقيسه بالسعادة التي تغمرنا بها ...

ولكن وا أسفاه ! عبثاً توسلت إلى حارس جب روسفيل أن يخرجني من أغوار هذا الجلب المظلم لإحدى بنات تلك القرية ، التي تمثلت فيها كل سحر هذه القرية التي لا أعرف عنها إلا ما سمعته من الحجرة العلوية الصغيرة ، وهو برجها العالي ، وقد اندفعت مع أوهام خيالي حتى ارتبجت أوصالي ، ثم شاعت فيها لذة غامضة ، وكنت أهرب إلى هذه الحجرة العلوية المنعزلة كمن أحظى بها خلسة ، ثم يستولي عليّ هود كهمود الموت .
والمخ درياً منعزلاً أحسبه ينضوي بي إلى ما أشهى ، وأمضى فيه

حتى مدخل كنيسة سانت أندريه ، ولكن عبثاً أصبو إلى أن أجدها هناك الفتاة الفلاحة التي كنت - ويا لسخرية الأقدار - أجدها مثلها دائماً هناك حينما أكون في صحة جدي . ولكن صحبته كانت تمنعني من التحدث إليها . وأثبت نظري على جذع شجرة بعيدة ، على أمل أن تبرز لي من خلفها وتطفئ نحوي . ولكن تحديق العميق يظل بلا جدوى ، ويظل الأفق خالياً تماماً . ويبدأ الليل في إسدال أستاره : فأثبت نظري في قنوط على أديم الأرض الجرداء ، ثم أنصرفت وأنا أصب على أشجار روسنفيل لا ضربات الجبور ، بل ضربات الغيط ، لأنه ما من مخلوق بشري تراهي لي بينها . وأوطن النفس على العودة إلى البيت من غير أن أضم بين ذراعي المرأة التي أشبهتها بكل عنف : وأعود أدراجي إلى كبراي ، ومع كل خطوة أخطوها يتضاءل أمل في الالتقاء بها ..

ولكن ، أتراني - لو ظهرت - كنت أجسر على الحديث معها ؟ أصبني لو حاولت ذلك لظننتني مجنوناً ، لأنني لم أكن أعتقد أن شهورتي التي تسبقني في نزهاقي هذه من الممكن أن يشعر بمثلها أحد سواي . فهي لم تكن في حسابي إلا مخلوقة صنعها خيالي واختلقتها حرارة دماي ... ولم تعد - وأنا في طريق العودة - تبدو لي مرتبطة أدنى ارتباطاً بالطبيعة ، وعالم الأشياء الحقيقية ، التي فقدت منذ الآن كل سحرها وكل معناها ، ولم تعد تعني عندي إلا هيكلاً تقليدياً ،

أشبه بأحداث رواية تجري في عربة قطار ، حيث يطالعها مسافر
ليزجي بها الوقت :

ولعل انطباعاً آخر تلقينه في مونجوفان ، بعد ذلك بضع سنوات
- وهو انطباع لم يكن له في ذلك الحين معنى - هو الذى ولد عندي
فيما بعد فكرتي عن هذا الجانب القاسي من الانفعال البشرى الذى
يسمى « السادية » : وسوف نرى ، في الأوان المناسب ، أن ذكرى
هذا الانطباع ستقوم لسبب آخر بدور هام في حياتي .

ففي أثناء موجة من الحر الشديد ، قال لي والدائ اللذان كانا
قد اضطررا للتغيب طيلة يوم كامل إن في وسعي البقاء في الخارج إلى
ساعة متأخرة كما أشاء : وذهبت حتى بركة مونجوفان ، حيث
استمتعت مرة أخرى بمنظر انعكاس قرميد سقف الكوخ ، ووقدت
بعد ذلك في الظل ورحت في النوم بين الشجيرات على المنحدر الوعر
الذى يرتفع خلف البيت : في نفس المكان الذى كنت في مرة سابقة
قد انتظرت والدى منذ سنوات عندما دخلا لزيارة المسيو فانتى :
وكان الظلام قد أوشك على الإطباق عندما استيقظت ، وأردت
أن أنهض وأنصرف ، ولكنني رأيت الآنسة فانتى (أو ظننت على
الأقل أنني عرفتها ، لأنني لم أكن رأيتها كثيراً في كمبراي ، وفي
المرات التي رأيتها فيها كانت ما تزال طفلة ، ولكنها الآن أوشكت
أن تكون شابة) ولعلها كانت قد عادت إلى البيت لتوها ، ووقفت

أمامي ، على بعد أمتار قليلة مني ، في نفس تلك الحجرة التي استقبل -
فيها والدها والدي ، وقد حولها الآن إلى حجرة جلوس صغيرة لها :
وكانت النافذة نصف مفتوحة ، والمصباح مضاء : فأمكنني أن
أرغب كل حركة من حركاتها من غير أن تتمكن من رؤيتي . ولكنني
إن انصرفت فلا بد أن أحدث خشخشة بين الأشجار ، فتسمعنني ،
وقد يحظر لها أنني كنت مختبئاً هناك لكي أتجسس عليها :

كانت مرتدية ملابس الحداد الكامل ، لأن والدها كان قد
توفي منذ مدة وجيزة . ولم تكن ذهبت لزيارتها وتعزيتها ، لأن والدي
لم تر ذلك ، بسبب خروج الفتاة على حلود وأصول الحياء . وإن
كانت قد رثت لحالها من كل قلبها ، فأني لم تنس النهاية المخزنة لحياة
المسيو فانتى ، وتفانيه الشديد . لأنه في البداية قام بدور الأم والمرية
والخادمة لابنته ، ثم تعذب بما سببته له من سوء السمعة ، ولم تفارقها
صورة وجه الرجل الملعوب في سنواته الأخيرة ، وكانت تعلم أنه
تمخلى نهائياً عن تبيض أعماله الأخيرة ، التي كنا نحسبها قطعاً صغيرة
هزيلة لمعلم موسيقى مسن وعازف أرغن القرية المتقاعد ، وظلناها
ليست ذات أهمية تذكر في حد ذاتها ، وإن كنا لا نؤذيها بقيمتها
الكبرى لديه ، لأنها كانت الدافع الأكبر له على الحياة ، وإذا به
يضحى بها في سبيل ابنته ، ولم تكن هذه القطع مدونة ، بل مسجلة
في ذهنه فحسب في الغالب ، والقليل منها مدون على أوراق متناثرة
وتكاد تعذر قراءتها ، ولا بد لها الآن أن تظل مجهولة إلى الأبد :



وكانت النافذة نصف مفتوحة ، والمصباح مضاء . فامكنتني
أن أركب كل حركة من حركاتها من غير أن تتمكن من رؤيتي ..

وفكرت والدق أيضاً في تلك التضحية الأخرى التي اضطر إليها
المسيو فانتى وهي أشد قسوة عليه ، ألا وهي تنازله عن أمه في أن
يرى ابنته مستقرة سعيدة ذات مستقبل شريف محترم . ولما
استرجعت أتى في ذهنها كل تلك المحن الماحقة التي انتهالت على
رأس معلم عتي للموسيقى ، استولى عليها حزن شديد ، وارتجفت
وهي تفكر في لا بد أن تحسه الآنسة فانتى الآن من حزن مزوج
ولا شك بالندم لأنها تسببت في موت أبيها : وتقول أبى :

— يا للمسيو فانتى المسكين ! لقد عاش لابنته ، وها هو الآن
مات بسببها ، من غير أن يجد جزاءه . فعسى أن يجده الآن : ولكن
في أى صورة ؟ إن هذا الجزاء لا يمكن أن يكون مصدره أحد
سواها .

وفي الطرف الأقصى من حجرة جلوس الآنسة فانتى ، فوق
رف المدفئة ، صورة شمسية صغيرة لوالدها ، ذهبت بسرعة كي
تحضرها ، في نفس اللحظة التي سمع فيها من الطريق في الخارج
صوت عجلات عربة ، ثم رأيت الآنسة فانتى تلتقي بنفسها فوق
أريكة وقربت إلى جوارها متضدة صغيرة وضعت فوقها الصورة
الشمسية ، تماماً كما حدث منذ وقت طويل أن وضع المسيو فانتى
بحواره القطعة الموسيقية التي كان يود لو عزفها لوالدى . وعندئذ
دخلت صديقتها ، ورجبت بها الآنسة فانتى من غير أن تنهض ، وقد
شيكمت يديها وراء رأسها ، وانتحلت بجسمها جانباً من الأريكة ،

كمن توسع لها مكاناً . ولكنها ما كادت تصنع ذلك حتى بدا أنها شعرت أنها ربما تكون قد أوحث لصديقتها بوضع خاص ، ووجدت في ذلك شبهة الإلخاف عليها . وفكرت أن صديقتها ربما فضلت أن تجلس على مسافة منها فوق كرسي . وأحست أنها كانت متطفلة ، ففزع قلبها الحساس من هذه الفكرة ، وعادت تمد جسدها فوق الأريكة بأسرها ، وأغلقت عينيها وبدأت تتأهب ، دلالة على أنها تريد النوم ، وأن هذه الرغبة وحدها هي التي حدث بها إلى الرقاد على الأريكة .

وبرغم الألفة القطة المتعطرة التي كانت تعامل بها صديقتها ، أمكنني أن ألاحظ أنها تنطوي على تودد محتفظ ومتذل ، وعلى احتجاز متوتر كان من سمات أيها . وسرعان ما نهضت وذهبت إلى النافذة ، حيث تظاهرت بأنها تريد إغلاق المصراعين الخشبيين ولكنها لم تفلح . وعندئذ قالت لها صديقتها :

— أبقهما مفتوحين . فأنا أشعر بالحر .

فأجابتها الآسة فاتني :

— ولكن هذا فظيع جداً . سيرانا الناس !

ثم حدثت أن صديقتها ربما ظنت أنها قالت تلك الكلمات لكي تستحجها على الرد بكلمات أخرى ، تريد في الواقع أن تسمعها منها ، ولكنها على سبيل الحذر كانت تريد من صديقتها أن تكون البادئة بالكلام . ولذا أردفت بسرعة :

— عندما أقول « يرانا الناس » أعني بالطبع أنهم سيروننا ونحن نقرأ ، ومن بواعث الضيق أن يعتقد الإنسان أن كل شيء ثافه يقوم به يمكن أن يراه أحد الناس .

وبالكرم الغريزي في طبيعتها ، وبتهذيب غير خاضع لسلطانها ، امتنعت عن التفوه بالكلمات المدروسة التي شعرت أنها لا غنى عنها لتحقيق رغبتها بالكامل .

وقالت لصديقتها بسخرية مرة :

— أوه . طبعاً ! من المرجح جداً أن الناس ينظرون إلينا في هذا الوقت من الليل ، في مثل هذه البقعة الكثيفة السكان !

ثم استطردت لكي تؤكد هذه الغمزة ، بالطريقة التي تعلم أنها ترضي الآسة فاتني :

— وماذا لو رأونا ؟ أفضل لنا ألف مرة أن يرونا !

فارتجفت الآسة فاتني ، ونهضت واقفة على قدميها ، فقد كان قلبها الحساس يجهل الكلمات التي ينبغي أن تتدفق تلقائياً من شفيتها ، لكي تنتج ذلك المشهد الذي كانت حواسها المتلهفة تصرخ مطالبة به . وحاولت أن تذهب إلى أقصى ما تستطيع من حدود طبعها الحقيقي لكي تجد اللغة المناسبة لشابة تمارس الرذيلة ، ولكن الأنفاظ التي كانت مثل هذه الشابة خليقة أن تنفوه بها بإخلاص وصدق بدت في قفها غير واقعية . والقليل الذي سمح لها أن تقول له قبل ينبرة

متوترة ، بحيث شل تيبها ميلها إلى حرية الكلام وجراثمه . وظلت طول الوقت تقطع كلامها هذا لتقول :
 - أواقفة أنت أنك لا تشعرين بالبرد ؟ هل الحر شديد جداً ؟
 ألا تريدن الجلوس وحدك لكي تقرأ ؟
 وختمت كلامها بعبارة لا شك أنها سمعت صديقتها تقولها لها في مرة سابقة :

- إن أفكار سيادتلك تبدو لي حارة جداً هذا المساء !
 وعلى الفور أحست الآتسة فانتى بلذعة قبلة صاحبها المفاجئة على أصل عنقها ، من فرجة صدر ثوبها ، وأطلقت صيحة صغيرة وجرت هاربة . وبعد ذلك بدأت كل منهما تطارد الأخرى في أرجاء الحجرة ، متدافعتين على الأثاث ، وأتمامهما الطويلة ترفرف كالأجنحة ، وهما تفرقان وتنفقان مثل طيرين في حالة هياج جنسى :
 وأخيراً سقطت الآتسة فانتى في إعياء على الأريكة ، حيث حجب جسدها عني جسد صديقتها التي مالت فوقها . ولكن ظهر الصديقة كان الآن إلى جهة المتصدة التي فوقها صورة معلم الموسيقى الشيخ : وأدركت الآتسة فانتى أن صديقتها لن تراها إلا إذا لفتت نظرهما إليها ، فصاحت وكأنها لم تراها إلا في هذه اللحظة :
 - أوه ! ها هي صورة أبي تنظر إلينا ! لا أدري من الذي وضعها ها هنا ! أنا متأكدة أنني نبت عليهم عشرين مرة بأن هذا ليس مكانها المناسب !

وتذكرت على الفور كلمات الميوفانتى التي استخدمها عندما اعتذر لوالدى عن وجود النوتة الموسيقية فوق البيانو : وصار واضحاً أن هذه الصورة الفوتوغرافية كانت تقوم عادة - بطبيعة الحال - بدور في شعائرها الغرامية ، وأنها كانت تتعرض يومياً للتدنيس والإهانة كجزء من تلك الشعائر ، لأن الصديقة أجابتها بنبرة من الواضح أنها كانت جزءاً من تلك الشعائر أيضاً :

- دعيه هنا ! فلم يعد في استطاعته أن يثير المصاعب في وجهنا .
 أنظنيته يمكن أن يبدأ الآن في التذمر والبكاء والأنين ؟ أنظنيته يستطيع الآن - هذا القرد المسن القبيح الصورة - أن يطردك من البيت إذا رآك الآن في هذا الوضع والنافذة مفتوحة ؟
 وأجابتها الآتسة فانتى :

- أوه : من فضلك !

وهو تأنيب لطيف رقيق يشهد لها بالطيبة الصادقة ، لا لأنها فالتة مدفوعة بالسخط لسباعها هذه النعوت لوالدها الراحل (فهي بلا شك قد روضت نفسها على كثبان هذا الشعور في مثل هذه اللحظات الشهوية ، مستخدمة سلسلة من المغالطات مع نفسها) بل لأن هذا التأنيب الرقيق كان العنان الذي تتحكم به في إبطاء عمليات ومشاعر الإرضاء الحسى الذي شرعت صديقتها في إمدادها به : ومن الجائز أيضاً أن هذا التعبير المتسامح الباسم الذي واجهته به وردت على تلك الإهانات المذمومة لتلميذتها ، وأن هذا

التأنيب الرقيق المرائي بدا لطبيعتها الصريحة السخية صيغة مخزية ومغرية بصورة خارقة من صيغ السلوك الإجرائي التي كانت تحاول أن تتخذه . ولكنها لم تستطع أن تقاوم جاذبية أن تعاملها بإعزاز هذه المرأة التي أبدت تلك القسوة التي لا ترحم نحو هذا الرجل الميت الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولذا وثبت إلى ركبتي صديقها فجلست فوقها وقدمت لها جبينها كمن تقيلها ، تماماً كما تفعل اللبث مع أمها ، وكأنها أحست بملء الجوارح أنهما على هذه الصورة يمكن أن تصلا معاً إلى منتهى القسوة بسرقة المسوق فانتى واختلاس حقوقه الأبوية المقدسة ، كأنما هما قد نبشتا قبره فعلا .

وتناولت صديقة الفتاة رأسها بين يديها وطبعت على جبينها قبله بكل الوداعة التي تنبعث من حبها للآنسة فانتى ، ولرغبتها في إدخال العزاء والتسرية على الحياة المملة الكثيرة التي تحياها اليتيمة . ثم قالت وهي تتناول الصورة :

— أتدريين ماذا أحب أن أصنع بهذا الشيخ المنزوع ؟

وهستت في أذن الآنسة فانتى بشيء لم أتبينه . فصاحت الفتاة :

— أوه ! إنك لن تجسرى على هذا ؟

فصاحت الصديقة بضراوة متعمدة :

— لا أجسر أن أبصق عليها ؟ على هذا القبح ؟

ولم أسمع شيئاً أكثر من هذا ، لأن الآنسة فانتى التي بدت الآن بهجة ، ومرتبكة ، ومشغولة الذهن ، وبادية الحزن عادت إلى

النفاذة وأغلقت المصراعين الخشبيين : ولكنني عرفت الآن ما هو الجزاء الذي تلقاه المسوق فانتى من ابنته بعد موته ، لقاء كل ما بذله من تضحيات وتحمله من عذاب طويلة حياته بسبب هذه الابنة !

ومع هذا فكرت بعد ذلك أنه لو قبض للمسوق فانتى أن يكون حاضراً هذا المشهد ، لظل رغم كل شيء يؤمن بسلامة فؤاد ابنته ، وأنه ليس مخطئاً في هذا الإيمان على طول الخط . صحيح أن مظهر الشر كان قوياً جديداً في كل أعمال الآنسة فانتى ، وبمنازلة عظيمة عليه ، بحيث لا يمكن العثور على هذه المظاهر إلا لدى شخص « سادى » بتعبير هذه الأيام ، فالمرء لا يتوقع إلا وراء أضواء خشية مسرح باريسى — لا في ضوء مصباح في بيت ريفى عادى — أن يرى فتاة تستدرج صديقها إلى البصق على صورة أبيها الذى عاش ومات لأجلها دون سواها . وعندما نجد في الحياة الواقعية رغبة في التأثير الميلودرامى ، فالغريزة السادية هي المشغولة عموماً عن هذه الرغبة . ومن الجائز أنه بدون الحد الأدنى من الميل نحو السادية يمكن أن نجد فتاة تظهر هذه القسوة الشائنة الفاضحة — كما فعلت الآنسة فانتى — بتدنيس ذكرى أبيها المتوفى وتحدى رغباته ، ولكنها ما كانت لتعبر عن هذا عمداً بمثل هذا العمل الفجح في رمزيتها : وفي هذه الحال كان العنصر الإجرائي في سلوكها خليقاً أن يبدو أقل وضوحاً لغيرها من الناس ، بل ولنفسها أيضاً ، لأنها ما كانت لتعترف بينها وبين نفسها أنها ترتكب خطأ . ولكننا إذا تركنا المظاهر جانباً ، وجدنا عنصر

الشر في نفس الآنسة فانتى - في المراحل الأولى على الأقل - لم يكن خالصاً غير مشوب . والشخص السادى من نوعها فنان في الشر ، وذلك ما لا يستطيعه شخص كلى الشر ، لأن الشر في هذه الحالة ما كان ليبدو خارجياً ، بل ليذا لها طبيعياً في حد ذاته بالنسبة لها ، ولما تميز عن ذاتها : وفي هذه الحالة ما كانت لتجد لذة خاصة في تدنيس احترام الموتى وعصيان الطاعة البنوية :

إن الساديين من طراز الآنسة فانتى أشخاص عاطفيون جداً ، وفضلاء بطبيعتهم ، حتى أن اللذة الحسية نفسها تبدو لهم سيئة ، وامتيازاً خاصاً بالأشوار ، وعندما يسمحون لأنفسهم في لحظة ما بالتمتع بها يحاولون أن يحسدوا كل المظهر الخارجى للأشوار ، لأنفسهم ولشركائهم في الإثم ، لكي يحصلوا على وهم مؤقت بأنهم أفلتوا من رقابة طبائعهم الرقيقة المترمة وهربوا فعلاً إلى عالم اللذة اللا إنسانى :

وأمكننى أن أفهم كيف كانت تصبو إلى هذا الحرب عندما تحققت أنه كان من المستحيل عليها اصطناعه . ففي اللحظة التى أرادت فيها أن يظن بها أنها تقيض أهبها ، كان ما أوحى به إلى هو الأساليب السلوكية الخاصة ، في التفكير والكلام ، لذلك الشيخ معلم الموسيقى المسكين ، والحق أن صورته لم تكن شيئاً في نظرها ، فالذى دنسته للمعاونة على لذاتها ، ولكنه بقى حائلاً بين هذه اللذات وبينها وحال دون أى استمتاع مباشر بها ، كان الشبه بين وجهه ووجهها ، وزرقة

عيني أمه التى أورثها ابنته ، كأنها حلية طريقة تحتفظ بها الأسرة جيلاً بعد جيل ، وتلك الحركات الودية الصغيرة ، فكأنها لغة مميزة تحول بين الشر الكامن في الآنسة فانتى وبين طبيعتها ، وتمدها بعقلية غير مهياة للشر ، مما يجعلها تنظر إلى هذا الشر وكأنه لا يختلف عن الواجبات الاجتماعية التى لا تخصى التى يجب أن تؤديها كل يوم :

ليس الشر هو الذى كان يمددها بفكرة اللذة التى تبدو لها ذات جاذبية طاغية ، بل اللذة هى التى كانت تبدو لها شراً . ولما كانت كل مرة تنغمس فيها في اللذة تحس هذه اللذة مقترنة بأفكار شريرة لا توجد في ذهنها الفاضل في الأحوال العادية ، لذا انتهى بها الأمر إلى أن ترى في اللذة نفسها شيئاً شيطانياً ، فوحدت بين اللذة والشر .

ولعل الآنسة فانتى كانت تشعر في أعماقها بأن صديقتها ليست سيئة تماماً ، وأنها ليست مخلصة وهى تنفوه بعباراتها القطيعة النابية : وهى على كل حال كانت تحظى بلذة تلى تلك القيلات على جبينها ، وتلقى تلك الابتسامات والنظرات : ولعلها كلها مصطنعة ، ولكنها قريبة الشبه في طريقة التعبير عنها بحيث لا يمكن التمييز بينها وبين ما يرسم على وجه مخلوقة لم تجبل على الرقة والمعاناة ، بل على التهلك والقسوة . فيتاح لها أن تخذع نفسها لحظة وتصدق أنها تستمتع على النحو الذى تستمتع به فتاة لديها فعلاً هذا النفور من ذكرى أهبها ، وهى مع هذه الشريكة الشاذة :

ولعلها ما كانت لتفكر في الشر على أنه طاعة نادرة بهذه الصورة ،

وشاذة جداً ودخيلة على الطابع ، ويعتصم أن تجربها ، لو كان تسفى لها أن تميز في نفسها ، وفي سائر الرجال والنساء ، تلك اللامبالاة بالآلام التي يسببونها : وأن هذه اللامبالاة - أيّاً كان الاسم الذي يطلقونه عليها - هي النوع الوحيد من التسوة الصادقة الرهيبة الباقية ؛

ولئن كان « طريق ميزجلين » غاية في السهولة ، فالأمر مختلف جداً عندما كنا نسير في « طريق جيرمنت » ، لأن هذا يقتضي مسيرة طويلة ، ويجب أن نستوق أولاً من حالة الطقس . فعندما كان يبدو أننا دخلنا في فترة طويلة من الجو اللطيف ، وعندما أسمع فرنسواز مغناطة من عدم نزول قطرة واحدة من المطر فوق « الحاصلات المسكينة » الظامّة ، فتتطلع إلى السماء ولا ترى فيها إلا سحابة صغيرة بيضاء تطفو هنا وهناك فوق سطح السماء اللازوردى الهادئ ؛ فتناوّه بصوت مرتفع وتصيح :

— ما أشبهها بسرب من كلاب البحر تسبح هنا وهناك ! ولا تفكر في إسقاط بعض المطر لأجل خاطر الفلاحين المساكين ، حتى إذا فضج القمح تماماً ، بدأ المطر يهطل بلا رحمة ، غير مهال بالمحصول ، وكأنه ينهمر فوق البحر !

وبعد أن يسأل أبي البستاني مراراً ويتلقى منه إجابات متكررة مشجعة ، عندئذ يقول أحدنا على مائدة العشاء :

— غداً ، إذا ظل الطقس على اعتداله ، ذهبنا في اتجاه جيرمنت !

وفي هذا الطريق نخشى فعلاً بعد الغداء مباشرة ، ونخرج من بوابة الحديقة الصغيرة التي تخفى بنا إلى شارع بيرشان Perchamps الضيق ، الذي ينحرف بعد ذلك في زاوية حادة . وقد اندثر هذا الشارع الضيق بعد ذلك ولم أعد أعثر له على أثر عندما عدت في الرجولة إلى كبراي . فقد كانت بيوته وكنيسته تحمل طابع القرن الثاني عشر .

وتمر بعد ذلك في شارع العصفور أمام المنزل العتيق الذي كان له فناء كبير جداً ، كانت في الزمن الخالي تقف به عربات ودقة مونبسنسييه Monpensier ودقة جيرمنت ودقة مونمورنسي Montmorency ، عندما كن يأتين إلى كبراي لبعض المازعات القضائية مع مزارعين ، أو لتلقى الاحترامات منهم ، ونصل أخيراً إلى أجرة يترامى من بين أطرافها العالية. برج كنيسة سانت إيلير . وكنت أتمنى أن أجلس هناك لأقضى ساعة النهار كله هناك في القراءة والإصغاء لصوت الأجراس ، لأن المكان هناك بديع جداً وشديد الهدوء ، بحيث إنك حين تسمع رنين الساعة فجأة لا تحسب أنه عكر صفو السكون ، بل تحس أنه خلص النهار من سطحيته المعتادة .

وأهم عناصر سحر طريق جيرمنت أننا كنا طول الوقت تقريباً نمر إلى جوار مجرى نهر فيفون Vivonne . وكنا نبدأ بعبوره ، بعد عشر دقائق من مغادرتنا البيت ، على معبر للمشاة يسمونه بون

فيه Pont Vieux أى الجسر القديم : وفى كل عام ، عندما نصل إلى كبراي ، أنطلق بعد القداس فى صباح يوم عيد الفصح - إذا كان الجو صحواً - وأركض إلى هناك وسط القوضى التى تسود صباح يوم العيد ، لأرى النهر وهو يتدفق أمامى فى مثل زرقة السماء بين ضفتين ما زالتا سوداوين جرداوين من أثر الشتاء الطويل ، ولا تثبت فيهما إلا أجمة من الترجمس البرى الأصفر الكبير ظهرت قبل أوانها ، وبضعة من أزهار الربيع المبكرة ، وهنا وهناك تنبثق وسطها شعلات زرقاء من أزهار البنفسج ، وقد تمايلت تحت ثقل عيرها الفواح ؟

وفضى الجسر العتيق إلى درب مزدوج يظله فى الصيف أوراق شجر البندق الضاربة إلى الزرقة ، وتحته يجلس صياد سلك لابساً قبعة من القش ، وكأنه ضرب يجذوره فى ذلك المكان . وأنا أعرف كل من فى كبراي ، وكنت أستطيع دائماً أن أثبتن الحداد أو صبي البقال وهما متنكران فى زى الشياص أو مدرعة المشد فى القداس ، ولكنى لم أستطع قط التعرف على الشخصية الأصلية لهذا الصياد . ولكن لا بد أنه كان يعرف أسرقى ، لأنه كان من عادته أن يرفع قبعته عندما تمر به ، وعندئذ كنت أهم بالسؤال عن اسمه ، عندما يشير أحدهم لى أن أزم الصمت حتى لا أزعج وأنفر السمك . ونغضى فى الدرب المزدوج الذى يحاذى قمة ضفة سريعة الانحدار ، ترتفع فوق مجرى المساء عدة أقدام . أما على الجانب الآخر

فالأرض منخفضة وتبسط لتتحول إلى مروج عريضة تصل إلى القرية ، بل وإلى محطة سكة الحديد البعيدة : وفى هذه المروج تتناثر بقايا وأطلال قلعة كونتات كبراي الأقدمين ، نصف متواربة بين الأعشاب الطويلة . وفى العصور الوسطى كان مجرى نهر فيفون حاجزاً طبيعياً يحسى هذه القلعة من هجمات دوقات جيرمنت ورؤساء ديور مرتينفيل Martinville ، ولكن لم يبق من هذه القلعة الآن إلا بقايا أبراجها ، متناثرة فوق مسطح الحقول المترامى ، لا تكاد تراها العين ، مع أنه من فوقها كان الرماة يلقون القذائف على الأعداء ، وكان المراقبون يرصدون الحركات عن بعد حتى كليرفونتين Clairefontaine ، ومارتنفيل ، وبايو Bailleau ، وكلها أرباص وقرى خاضعة لسلطان جيرمنت ، وتتكون منها حلقة تحيط بكبراي . ولكن ها هى القلعة تهاوت الآن وسط العشب ، وسويت بالأرض ، يسلفها ويلهو فيها غلمان مدرسة الأخوة المسيحيين الذين يأتون إليها فى أوقات طوهم أو حاملين كتبهم لاستظهار دروسهم . فما هى إلا معالم ماضى انقضى وأندثر تحت التراب ، وصار للسائر على ضفة النهر معبراً للمريض الذى يستنشق الهواء . ولكن هذا الأثر المندثر كان مع هذا يمدنى بفذاء فكرى ، يجعل اسم كبراي ليس مجرد علم على البلدة الصغيرة التى أعرفها اليوم ، بل علماً على مدينة تاريخية مختلفة تماماً ، تسيطر على مخيلتى بتلك المعالم البعيدة المطموسة تحت قناع من العشب ترصعه الأزهار البرية الصفراء الحريفة الرائحة .

ذلك أن هذا العشب المزهر المعروف باسم « الحوذان » كان شديد الغزارة في هذا الموضع ، بزهره الذى يشبه لونه مع البيض ، ويجعل المرج كله يبدو في وهج الشمس ذهبي اللون ، يكاد يبهى أنفاسي بجباله . وكنت منذ طفولتي كلما سرت على الضفة الأخرى أمد ذراعي إلى هذه المروج وأتمنى لو احتضنتها... قبل أن يستطيع لساني تطلق اسمها الذى يصلح اسماً لأمير فرنسي في قصة من قصص الجنيات ، أو لمرئاة جاء من مجاهل آسيا البعيدة منذ قرون ، ولكنه استقر هاهنا في هذه القرية ، قانعا بأقفاها المتواضع ، وبذلك اللمحة التي تترأى له من محطة سكة الحديد . إلا أنه لم يزل محتفظاً بتألقه الشاعرى من ذلك الشرق الأقصى .

وأستمتع أيضاً بمنظر القدور الزجاجية التي كان الأولاد يدلونها في نهر فيقون ، ليصطادوا بها السمك الصغير ، فتتمتلي هذه القدور الزجاجية بالماء وتحتويه ، في الوقت الذى يحتويها فيه الماء ، فأشعر لمنظرها بانتعاش لا أجده لهذه القدور وهى ملاءنة بالماء على مائدة الطعام . وقررت أن آتى يوماً ما ومعى شخص (سنارة) لكى أصيد السمك . ورجوت والذى وأنا على المائدة وحصلت على كسرة خبز أخذتها معى وألقيت بفئاتها في نهر فيقون ، خيل لى أن لها تأثيراً كياوياً ، لأن الماء سرعان ما صار من حولها صلباً بعناقيد بيضاوية من أفراخ الضفادع ، التي كانت قبل ذلك متوارية في الماء

الجارى ، ولكنها كانت شديدة اليقظة فانتهزت هذه الفرصة لتدخل في مرحلة التباور المنظور بالعين .

وسرعان ما يغص مجرى نهر فيقون بالنباتات المائية . وهى تبدو في البداية فرادى ، زينة من زنايق الماء مثلاً ، لا يمكن أن يتركها الماء - الذى نبت لسوء حظها في مجراه - تنعم بالراحة أو الهدوء لحظة واحدة ، حتى لكأن هذه الزينة معدية ميكانيكية تنطلق من إحدى الضفتين لتصل إلى الضفة الأخرى : لكى تعود على الفور من حيث أتت ، مكررة على الدوام رحلتها المزدوجة : وإذا ما ارتطمت بالشاطئ طال عودها الأخضر حتى ليكاد ينكسر ، لى أن يستولى عليه التيار من جديد ، فيعود بالنباتات التمس المنكود لى ما يمكن أن نسميه موضع انطلاقه ، ولكنه مكتوب عليه ألا يستقر هناك لحظة ، قبل أن يتحرك منطلقاً من جديد . وهناك أجده في كل نزهة في إثر الأخرى ، في نفس حالته المنكودة ، التي تشبه حالة بعض ضحايا النورستانيا ، الذين كان جدى يعد من بينهم عمى ليونى ، فهؤلاء الضحايا يكررون يومياً ، وعاماً في إثر عام ، عاداتهم نفسها بلا تغيير ، وهى عادات غريبة لا يمكن تفسيرها . ولكنهم يحتفظون بها حتى النهاية ، مع أنهم يقولون دائماً إنهم بنون تغييرها ، ويتخيلون ذلك فعلاً . إلا أن هذه التخيلات لا تجدى إلا في دفع حركتهم الدورية كزنبورك الساعة إلى الدوران المستمر : هكذا أيضاً كانت حال زنايق الماء هذه ، وهى أيضاً شبيهة بحالة تلك الخرافات

المعدبة إلى الأبد بحركاتها المتكررة ، والتي استوقفت نظر دانتي Dante وهم يسؤلهم عنها ، لولا أن فيرجيل مرشده في رحلته بالجحيم استعجله ، مثلاً يستعجلني والدتي فأسرع بالمضي خلفهما برعبي .

ولكن بعد قليل يبطئ التيار ، حيث يمر النهر وسط ضيقة فتح مالكتها أبوابها للجمهور ، وفي هذه الضيقة كان يمارس هواية الحدائق المائية ، بحيث يتحول النهر الضحل البطيء هناك إلى بحيرات صغيرة تنبت فيها زنايق الماء . أما ضفاف النهر فتكثر حولها الأشجار الكثيفة ، التي تنعكس أوراقها على وجه الماء فتكسبه لوناً أخضر قائماً في الغالب . وإن كنت في بعض الأيام التي تعود فيها بعد هبوب عاصفة كثيراً ما ألمح في ثنايا هذا الماء بقعاً تضرب إلى الزرقة ، وتكاد تكون بنفسجية اللون أحياناً ، كأنما قد رصع هذا الماء بالميناء على الطريقة اليابانية : وهنا وهناك ، فوق السطح تطفو زنبقة مضرجة القلب بالحمرة كأنها الشليك ، وسط البتلات البيضاء . وفيما وراء هذه المنطقة كانت الأزهار أكثر ، إلا أنها أشد شحوباً ، وأقل لمعاناً ، وأكثر التفافاً ، وموزعة بالصدفة على شكل فستونات بدیعة تميلت أنها تطفو على وجه الماء ، كما رأيت الورد الطلحي في أكاليل متفرقة . وفي ركن منها رأيت أنواعاً عادية من الزنايق ، ذات اللون الوردي الأنيق أو الأبيض ، مثل أزهار الجرجير ، وقد غسلت فغدلت كانخرف . وفي موضع أبعد من هذا

أيضاً أزهار أخرى أشد كثافة كأنها حوض أزهار عائم ، أو كأنما أزهار البانسيه قد طارت من حديقة كما يطير الفراش وراحت تخلق بأجنحة زرقاء لامعة فوق هذه التخوم المائية الشفافة ، وفوق نخوم السماء أيضاً ، وتضفي على ماتحت الأزهار أرضية من لون أرق وأكثر حركة من أرضيتها . وفي فترة ما بعد الظهر والمساء ترتفع المساحات المائية البعيدة وتملأ السماء على حافة الأفق بأحلام الشمس الغاربة الوردية ، الدائمة التغير ، ولكن في تناسق وانسجام دائمين ، وتوحى باللانهاية . فبعد الظهر أو المساء تبدو هذه الحديقة المائية البعيدة وكأنها مزدهرة في قلب السماء :

وبعد أن يغادر نهر فيفون هذا البستان الرائع يمضي في تدفقه بمزيد من السرعة . وما أكثر ما راقبت ، ونقت إلى محاكاة راكب زورق ذي مجدافين — عندما أغلو حراً في الحياة كما أشاء — رأيت أنه وقد ترك مجدافيه واستلقى في قاع زورقه على ظهره ، ورأسه إلى أسفل ، وترك الزورق يطفو مع التيار ، بحيث لا يرى شيئاً إلا السماء التي كانت تمر من فوقه في هدوء ، وتضفي على وجهه أمارات السعادة والسلام .

وقد تجلس بين السوسن على حافة الماء ، وكأنما السماء بترانيتها في يوم عطلة ، فتتمدد بحابة كسول إلى أقصى امتدادها ، وبين حين وآخر يتقل هذا الكسل السائد على سمكة شبوط فتطل من الماء وتشق شقة متلهفة على النشاط .

فنجلس قبل أن نستدير للعودة ونقضي فترة طويلة هناك ، نأكل الفاكهة والخبز والشيكولاتة ، فوق العشب ، حيث تصل إلينا أصوات نواقيس سانت إيلير في موجات أفقية ضعيفة ، ولكنها لم تزل صلبة معدنية ، لم تذب تمام اللويان في الجو الذي تعودت على اختراقه ، بل تقطعت أوصاله مع الدقات الرنانة المتعاقبة ، فإذا بها تنبض وهي تمر تباعاً فوق الأزهار التي عند أقدامنا .

وكنا أحياناً نصل إلى منطقة تحف فيها الأشجار بصفة المساء ، فإذا بين الأشجار بيت خلوى من بيوت المتعة ، منعزل عن الدنيا لا يرى منها شيئاً اللهم إلا النهر الذي يغسل أساس جدرانها باستمرار . وقد نرى امرأة يلك وجهها وزياها على أنها ليست من أهل هذا الإقليم ، وتدل موضة زينتها على أنها ليست من أصل محلي ، ولا شك أنها جاءت إلى هنا لكي « تدفن نفسها » - كما يقولون - ولتذوق في هذه الوحدة الشعور بأن اسمها صار منسياً ، وأن اسم من فقدت قلبه غير معروف لأحد هنا أيضاً . وهي تطل من نافذتها فلا ترى شيئاً سوى الزورق المربوط إلى أسفل البيت بجوار بابها . وترفع السيدة عينيها في شروق حين تسمع من بين الأشجار التي تصطف على الشاطئ أصوات مارة هي على يقين من أنهم لم يعرفوها ولم تعرفهم من قبل ، ولم يعرفوا ذلك الحبيب الغادر ، وأن لا شيء في ماضي حياتهم يحمل طابعه ، فقد هجرت كل مكان يمكن أن تكون قدماء قد وطئناه ، أو يكون به أحد له به صلة . وكنت أنظر إليها أحياناً وهي

عائدة من سيرها في طريق هي على يقين من أنه لن يبرز لها من ثناياه ، وأراها تخلع قفازاً طويلاً من أصابعها المستسلمة ، حيث لا فائدة ولا لزوم لهذه الزينة الفاخرة الأنيقة .

ولم يحدث قط أننا في نزاهتنا على الأقدام في « طريق جيرمنت » توغلنا إلى حيث منبع نهر فيفرون ، الذي كانت صورته في ذهني ذات وجود مثالي ، لذا دهشت كثيراً عندما قال بعض الناس إنه موجود في نفس المحافظة ، وعلى مسافة كيلومترات معينة من كبراي . وهي دهشة تماثل دهشتي عندما قيل لي إن هناك نقطة معينة من سطح الأرض هي التي يقول الأقدمون إن فكى الجحيم قاغران عندها ! ولم يحدث قط أيضاً أننا وصلنا إلى ذلك الهدف الآخر الذي كنت أصبو كثيراً إلى بلوغه ، وهو « جيرمنت » نفسها . وكنت أعلم أنها مقر مالكيها ، الدوق والدوقة دي جيرمنت . وكنت أعلم أنهما شخصيتان حقيقيتان لها وجود حقيقي ، ولكني كلما فكرت فيهما صورتهما لنفسى إما كشخصيتين فوق لوحة مطرزة ، مثل لوحة « تنويج إستر » المعلقة في كنيسةنا ، أو متغيرتي الألوان كقوس قزح ، مثل صورة جيلبير الشرير في نافذته ، حيث كان لونه يتغير من خضرة الكرنب عندما انعس أصابعي في حوض الماء المقدس ، إلى زرقاء البرقوق عندما أصل إلى صف مقاعدنا ، أو غير محسوس اللون ، مثل صورة جنيفيف دي برايان ، جدة أسرة جيرمنت ، التي يربنا إياها فانوسى السحري متعلقة فوق ستائر حجرى أو على

سقفها . أى أنى كنت أتصور الدوق والدوقة دائماً في هيئة العهد الميروفنتجى ، في ضوء يرتقلى وكالمعمورين بأضواء أشعة الغروب في ولئن كانا برغم ذلك بالنسبة لى شخصين حقيقيين ، إلا أن صفتيهما ومقاميهما يجعلهما صنفاً خاصاً من البشر ، صنفاً غير مادى ، فيستوعب كيانهما كل ما تمر به في طريق جيرمنت وقصرهما الذى لم أره قط ، ومجرى نهر فيفون يزنايقه المائية وأشجاره الوارفة ، وفترات ما بعد الظهر الحارة المتوالية في رتابة . وكنت أعلم أنهما لا يحصلان لقب دوقة ودوق جيرمنت فحسب ، بل إنهما منذ القرن الرابع عشر ، منذ فشلت المحاولات المتكررة لمزيجة سادة كبرائى في ساحة القتال ، اتحدت أسرتهما بالزواج ، وبذلك صارا أيضاً كونت وكونتس كبرائى ، وبالتالي المواطنان الأولان لتلك المنطقة المعروفة اليوم باسم كبرائى ، ومع هذا فهما المواطنان الوحيدان اللذان لا يسكنانهما . فهما يملكان كبرائى ، ويسلكانهما في سلسلة ألقابهما ، ويستوعبانهما في شخصيتيهما ، ويصوران بلا شك تقواهما الحزينة الخاصة بها . وهما يملكان هذه البلدة من غير أن يملكا أى بيت فيها ، وبالتالي كأنهما يقطنان في العراء ، في موضع ما بين الأرض والسماء ، مثل جيلبير دى جيرمنت الذى لم أكن أرى منه في زجاج الطلغف النافى من سانت إيلير إلا الجانب الآخر الأسود ، إذا ما رفعت عيني لأتطلع إليه وأنا ذاهب إلى محل كاسى لشراء كيبس من الملح ، وكذلك كان يتفق لى وأنا على طريق جيرمنت أن أمر أحياناً

بصف من الحقائق الصغيرة الجيدة الرى ، على أسيجتها عناقيد من الأزهار الداكنة ، فأقف أمامها على أمل أن أجنى بعض الإضافة الثمينة إلى خبرتى ، لأنه يحيل لى أنى أرى جانباً من ذلك الريف على شواطئ الأنهار الذى طالما تمنيت أن أراه وأعرفه منذ قرأت وصفاً له في كتابات بعض المؤلفين الأثيرين عندى . وأمام هذه الأرض التى كأنها كتاب قصصى ، والتى تشققها مئات الجدول ، كنت أقف وأخيل « جيرمنت » وقد تجسست أمام عيني بعد أن سمعت الدكتور بيرسبيه يتحدث عن الأزهار والجدول والينابيع الساحرة التى يراها زائر بستان قصر الدوق والدوقة المتراى : وكنت أحلم عندئذ أن الدوقة جيرمنت أغرمت في فجأة ، فدعنتى إلى هناك ، وأنها قضت النهار بطوله بمجوارى تصيد السلمون المرقط ، ولما جاء المساء ، تناولت يدى في يدها ، ونحن نسير معاً بين حدائق أتباعها الصغيرة ، وتشير لى إلى الأزهار التى تحيل بعناقيدها الزهرية الحمراء والقرمزية فوق الأسوار الواطئة ، وتعلمنى أسماءها كلها . وكانت أيضاً تحملنى على أن أحدها عن كل القصائد التى أنوى نظمها .

وذكرتني هذه الأحلام بأننى ما دمت قد رغبت في أن أعيدو في يوم من الأيام كاتياً ؛ فينبغى أن أحدد منذ الآن أى نوع من الكتب سوف أكتب . ولكنى ما أكاد أوجه لنفسى هذا السؤال ، وأحاول اكتشاف بعض الموضوعات التى يمكن أن أضيق عليها مغزى فلسفياً ذا قيمة لا نهائية ، حتى أجد ذهني قد توقف كما تتوقف

الساعة عن العمل ، وأرى أمامي فراغاً ، أرى لا شيء ، واكتشف
أنى إما خال من الموهبة تماماً ، أو أن مرضاً من أمراض المخ قد عاق
تقدمه ونموه :

و كنت أحياناً أعتد على قيام أبى بتدبير كل شيء لى : فهو قوى
جداً ، وله مكانة كبيرة عند « ذوى الشأن » من الناس ، بحيث كان
يتيح لنا تجاوز حدود القانون التى كانت فرنسواز تقول لى إنها
كفتواتين الحياة والموت التى لا يمكن تحطيمها ، ومن ذلك أننا بفضل
نفوذه استطعنا أن نؤجل - دون سائر سكان الشارع - لمدة عام
كامل طلاء واجهة بيتنا فى باريس : أو كما استطاع أن يحصل من
الوزير لابن مدام ساذيرا - الذى كان الأطباء قد أمروا بوجوب
نقله إلى إحدى منتجعات المياه - أن يحصل على درجته العلمية قبل
الموعد بشهرين كاملين ، فأدى الامتحان مع الطلبة الذين يبدأ اسمهم
بحرف « ا » لا مع زملائه ممن يبدأ اسمهم بحرف « س » . فلو مرضت ،
أو خطفتنى القراصنة ، لكانت رسائله إلى العلى القدير - فى اعتقادى -
كفيلة بإنقاذى من الموت ، ولكان نفوذه مع القوى الخفية كفيلاً
بتخليصى من القراصنة . ولذا كلما تهددتنى خطر شعرت أنه خطر
وهى ، وأن أبى خليف قطعاً أن يخلصنى منه :

ولعل هذا الافتقار إلى الموهبة ، وتلك الفجوة السوداء التى
كنت أجدها فى ذهنى عندما أنبشه مجداً عن موضوع كتاباتى المقبلة ،
لم يكونا أيضاً إلا وهماً يقضى عليه تداخل من جناس ألف - الذى سيظهر



و كنت أحلم عندئذ أن الدوقة جيرمنت أغرمت بى فجأة ،
فدعتنى إلى هناك ، وأنها قضت النهار بطوله بجوارى ..

مع الحكومة ومع العناية الإلهية ، ما يكفل لي أن أكون الكاتب الأول في زمني . ولكن في أوقات أخرى عندما كان أبواي يتشد صبرهما لرؤيتي أتلكأ خلفهما بدلا من أن أتبعهما تبسداً في حياتي وكأنها جزء من واقع أكبر لم يخلق لمصلحتي ، ولا استئناف الأحكامه ، وأنا في قلب هذا الواقع المصادي مقيد لا حيلة لي ولا حليف ، ولا صديق ، ولا مجال للإمكان فيما وراءه . وفي هذه اللحظات لا أشعر بأن حياتي الواقعية من صنع أبي الذي يملك تغييرها وتعديلها كما يشاء ، وهو الشعور الذي كان يغلب على تفكيري معظم الوقت . وعندئذ يتبين لي أنني موجود على نحو ما وجد سائر البشر ، وأنتى لا بد حتماً أن أشيخ مثلهم ، وأموت يوماً ما مثلهم أيضاً ، ولن يعرفوا عني سوى أنني من أولئك النثر الذين لا مقدرة لهم على الكتابة . وهكذا قررت قانظاً أن أنخلي عن الأدب إلى الأبد ، برغم تشجيع «بلوخ» لي : هذا الإحساس الحميم التلقائي ... هذا الإحساس بتفاهة ذهني طمس كل الأحاديث التي تطربني ، على نحو ما يحس الإنسان الشرير بوخز الضمير الخفي عندما يسمع كل من حوله يطرون أعماله الصالحة ! وذات يوم قالت لي أمي :

- أنت دائم الحديث عن مدام دي جيرمنت . والدكتور بيرسبييه صنع الكثير لها منذ أربع سنوات عندما كانت مريضة ، ولذا سوف نحضر إلى كمبراي لتشهد زواج ابنته : وهكذا سيتاح لك أن تراها في الكنيسة .

وكان الدكتور بيرسبييه مصدر معظم ما سمعته عن مدام دي جيرمنت ، وكان هو الذي أطلعنا على نسخة من صحيفة مصورة كانت بها صورتها في الزى الذي كانت قد ارتدته في حفل راقص تذكرى أقامته الأميرة دي ليون P. De Léon :

وفجأة ، أثناء قداس الزواج تحرك الشاس من موضعه فأتاح لي أن أرى سيدة جالسة في مصلى خاص ، ذات شعر أشقر وأنف كبير ، وعينين زرقاوين لاثقتين ، ولفساع من الحرير البنفسجي المتناوج اللامع ، وعلى ركن أنفها شامة صغيرة . ولأنني استطعت أن أرى على صفحة وجهها الأحمر - كأنما هي تشعر بحر شديد - تفصيلات تشبه الصورة التي سبقت لي مشاهدتها ، ولأنني عرفت فيها تلك الأوصاف التي وصف بها الدكتور بيرسبييه الدوقة دي جيرمنت ، لذا عرفت أنها هي . وكان المصلى الذي تشهد منه صلاة القران هو مصلى جيلبير الشرير ، وتحته أحجار الضريح المصفرة البارزة مثل خلايا العسل في أقراص الشهيد ، الذي تتوى فيه عظام كوتات برايان القدسي . وتذكرت أنني كنت قد سمعت أن هذا المصلى خاص ومحجوز لآل جيرمنت ، يشغله من يحضر منهم حفلا كنسياً في كمبراي . وليست هناك سوى امرأة واحدة هي الجالسة في ذلك المصلى تشبه الدوقة جيرمنت المنتظر وصولها اليوم : فلا بد إذن أنها هي ! وكانت خيبة أمني عظيمة ، وكان مصدرها أنني كنت قد تخيلت الدوقة على هيئة لوحة مطرزة بألوانها الخاصة ، أو على هيئة لوحة

في نافذة ملونة ، وعلى أنها تعيش في قرن آخر ، ومن مادة أخرى غير طينة النوع البشري : ولم يدخل قط في حسابي أن يكون لها وجه آخر ، ولفاع بنفسجي مثل مدام ساذيرا : وكانت استدارة خدنها تذكرني جداً بوجوه أناس رأيتهما في بيتنا ، فداخلي الشك بأن مادة جسمها ليست فريدة ، بل تنتمي إلى فصيلة من الإناث تنتمي إليها أيضاً زوجات الأطباء والتجار . وروحت أقول لنفسي بإصرار :

— لأنها هي ! لا بد أنها هي مدام دي جيرمنت !

وأنا أنظر إليها بتركيز شديد ودهشة بالغة ، لفراط مبهينة شكلها للصورة التي كنت أنجليها لها في ذهني ، و تراودني في أحلامي ، حتى اللحظة التي انبرت فيها هذه السيدة أمام عيني منذ لحظة داخل الكنيسة ، وإذا بها في كل شيء ، حتى تلك الشامة المتقدمة على ركن أنفها ، تؤكد لي أنها واقع خاضع لكل قوانين الحياة ، على نحو ما تؤكد ارتعاشة خنصر بظلة المسرحية أنها مثلة آدمية حية ، وتنتي من أذهاننا ما توهمناه من أنها مجرد انعكاس فانوس سحري :

وهكذا صارت لهذه السيدة الواقعية التي طالما حلمت بها قوة سحرية إضافية على خيالي التي كانت قد شلت لحظة عندما صدمت بالمباهية بين توقعات أحلامي وبين الواقع ، وأخذت تؤثر في هذه المعرفة الجديدة ، وأقول لنفسي :

— قبل أيام شرلمان كان آل جيرمنت أجداداً عظاماً لهم حق الحياة والموت على أتباعهم : وهذه اللوحة دي جيرمنت سليله جنييف

دي برايان . وهي لا تعرف — ولا تقبل أن تعرف — أي أحد من الموجودين هنا اليوم !

وعندئذ ، بينا مدام دي جيرمنت جالسة في المصلي الخاص فوق لحد أجدادها الراحين ، راحت عيناها تتجولان هنا وهناك ، ورفعتهما إلى تيجان الأعمدة ، بل واستقرتا لحظة على شخصي ، كأنهما شعاع هابط من صحن الكنيسة ، إلا أنه شعاع أحسست أنه يعي ما يستقر عليه ، حينما استقرت على عيناها !

وظلت اللوحة جالسة في مكانها لا تتحرك ، وكأنها أم تعتمد ألا تظهر أنها ترى سلوك أطفالها الذين يتحدثون أثناء فوهم إلى أشخاص لا تعرفهم ، ولذا لم أستطع أن أجزم هل اللوحة تفر أو تشجب في أعماق قلبها ما تراه عيناها في تجوالها غير المكثرت :

وشعرت بأنه يهني جداً ألا تغادر الكنيسة قبل أن يتساح لي للنظر مدة كافية إليها ، مذكراً نفسي بأنني ظللت سنوات أنلهف على ذلك : ولذا ثبت نظري عليها ، كأنني بذلك التثبيت أتمكن من اختزان تلك التفصيلات التي بدت لي ثمينة جداً ، وأصيلة ، ولا نظير لها فيما يتعلق بوجهها . والآن كلياً فكرت في هذا الوجه لا أجد فيه إلا ما هو جميل ، وأضع هذا الوجه فوق مستوى وجوه البشر العاديين الذين جعلتني النظرة الأولى إليها أحلظ بينهم وبينها . وانتابني استنكار شديد عندما سمعت الناس يقولون ، في الجمع المحيط بي :

— إنها أجهل من مدام ساذيرا : : : أو الآخرة فانتبي .

كما لو كانت يمكن أن تقارن بهما من أى وجه من الوجوه :
ورحت أمعن النظر إلى شعرها الأشقر ، وعينيها الزرقاوين ، وخطى
وجنتيها ، وأغص النظر عن كل السبات التى يمكن أن تذكرنى
بوجوه نساء أخريات ، ثم هفت بينى وبين نفسى ، وأنا أتأمل هذه
الصورة غير الثابتة عمداً :

— ألا ما أحلاها ! أى نيل حقيقى ! إنها فعلا جيرمنت مجيدة ،
وسيلة جيتيف دى برايان ، تلك التى أراها الآن أمامى !
وأفلح تركيز انتباهى على وجهها فى عزل هذا الوجه تمام العزل ،
حتى أننى اليوم ، عندما أستعيد فى ذهنى حفل ذلك الزواج ، أجد
من المستحيل أن يترامى لى أى شخص من الحاضرين سواها ، وذلك
الشئ الذى أكد لى عندما سألتها أن هذه السيدة هى فعلا الدوقة
دى جيرمنت . أما هى فأراها إلى اليوم بكل وضوح ، ولا سى فى
اللحظة التى اتجه فيها المركب إلى حجرة ملابس الكهنة ، فى ذلك اليوم
الحار المشمس المطير فى تقطع ، حيث وجدت الدوقة نفسها وسط
كل أهالى كبراى الذين تجهل أسماءهم ، ولكن دونيتهم زادت من
رفعة مقامها بصورة أشعتها بالعطف عليهم عطفاً كله رثاء وإشفاق ،
ولا بد أن يساطتها وصهرها الطبيعى كان وقعهما عليهم بالغ الأثر ،
وأستطيع أن أرى اليوم بعين عقلى تلك الدهشة اللطيفة التى بدت من
عينيها ، من فوق لفافها البنفسجى الحريري الرفاف ، التى أضافت
إليها — من غير أن نجسر على توجيهها إلى أى أجد بالذات ، بل هى

موجهة إلى كل من يأخذ منها بنصيب ، الابتسامة الحية للملكة تعتذر
عن ظهورها بين رعاياها الذين تحبهم . واستقرت هذه الابتسامة على
شخصى ، أنا الذى لم أكف قط عن تعقبها بعينى . وإذا أتذكر تلك
النظرة التى حظيت بها أثناء القداس ، وكأنيما فى زرقة شعاع الشمس
الذى اخترق زجاج نافذة جيلبير الشرير ، أقول لنفسى :

— إنها تفكر فى بالطبع !

فقد توهمت أنى وجدت نعمة فى عينيها ، وأنها ستظل تفكر فى
بعد مغادرة الكنيسة ، وأنها قد تعاود هذا التفكير ذلك المساء فى
جيرمنت : وعلى الفور وقعت فى غرامها . وكما يكنى أحياناً لى
نحب امرأة أنها تنظر إلينا بازدياد — على نحو ما ظننت أن الأنسة
سوان نظرت لى — وتوهم أننا لا يمكن أبداً أن نالها ، كذلك يكنى
أحياناً أن تنظر المرأة إلينا برقة وحنان — كنظرة مدام دى جيرمنت
حينئذ — كى نتوهم أنها صارت تقريباً فى متناول يدنا ، فعيناها
الزرقاوان كالزهر الأزرق اللامع بعيدتان عن متناول يدى ، ولكنها
أهدتهما لى . وانجابت صحابة عابرة فانثقت النور القوي على الميدان
وعلى الكنيسة ، فأضنى وهجاً على البساط الأحمر المفروش خصيصاً
بمناسبة القران ، وخطت مدام دى جيرمنت فوقه باسمة ، وجرت
فوقه أذبالاً من الخمائل الوردى ، زادت من جمال وأبهة هذا الحفل ، فى
عدوية تجعلنا نفهم لم وصف بودلير صوت البوق بأنه كان «لذيذاً» .

وكثيراً ما ألتجئ على إحساسي بعد ذلك اليوم ، في غضون نزهاق بطريق جيرمنت ، شعور قوى بنقص استعدادي للعمل الأدبي ، وأنتى ينبغى أن أتخلى عن كل أمل فى أن أغدو مؤلفاً مشهوراً . وكان أسأى على ذلك عميقاً ، وأنا أتمسك وحدى كى أسترسل مع أحلامي لذا صرت - لكى أتجنب هذا الشعور المؤلم ، أتجنب بحيلة دفاعية من جانب عقلى كل تفكير فى قرض الشعر أو كتابة القصة بسبب قصور مواهبى عن ذلك . وعندئذ ، بعيداً عن كل هذه الاهتمامات الأدبية ، وبدون ارتباط أو تعلق بأى شيء ، يطل على فجأة وميض من أشعة الشمس من وراء أحد السقوف منعكساً على الصخور ، وتدفعنى رائحة الطريق المزهر إلى الوقوف فى مكانى ، لأنهم بالذلة الخاصة التى تمنحنى إليها كل ما حولى ، وأيضاً لأنه خيل إلى أن هذه الأشياء تحق وراءها ما لا تستطيع عيناى أن تتصلأ إليه ، وما تدعونى للاقترب منه والاستحواز عليه ، ولكنى مهما بذلت من جهد لا أستطيع أبداً أن أكتشف ما هو بالضبط . وكان وقوفى يطول وأنا جامد فى مكانى ، أحلق وأتنفس وأحاول بعقلى أن أتند إلى ما وراء المنظور والمشوم . وإذا اضطرتت للسير وراء جدي ، بعد ذلك حاولت أن أستعيد الإحساس بهذه الأشياء بإغلاق عيني ، وأركز ذهني على تذكر شكل السقف بالضبط ، ولون الصخر ، فقد كانا - لا أدري لماذا - فيما نجيل إلى يعجان بالأسرار ، وعلى استعداد للانفتاح أماًى كى أصل إلى كثرهما المكتون ، الذى ليسا هما إلا غلافه

الخارجى . وليس شيء من قبيل هذا الانطباع كفيلاً أن يعيد إلى الأمل الذى فقدته فى أن أصبح يوماً ما مؤلفاً وشاعراً . لأن كل انطباع منها كان مرتبطاً بموضوع مادى ليست له قيمة فكرية ، ولا يوحى بأى حقيقة مجردة . ولكنها على كل حال كانت تمنحنى لذة غير معقولة ، وتوهمنى بلون من خصوبة الدهن ، وبذلك كانت تنقذنى من الملل ، ومن إحساسى بعجزى الذى كنت أستشعره كلما فكرت فى موضوع فلسفى لعمل أدبى كبير .

وكان سلطان هذه الانطباعات المتعلقة بالشكل أو الرائحة كبيراً بحيث يدفعنى للبحث عما يكمن وراءها ، ولكنى كنت أجد عناء بلا طائل فى هذا البحث فألتدع بأول مبرر للكف عنه ، ويسعبنى الحظ ، فينادينى والدي لألتحق بهما ، وأقول لنفسى إنه من الخير أن أوجل ذلك إلى حين عودتى للمنزل ، ولا أضنى نفسى الآن بهذه المحاولة التى لا جدوى منها . وهكذا أكف عن الانشغال بالسر الكامن وراء شكل أو عبر ، وأمضى مستريح البال إلى أني أحمل هذه الأسرار معى إلى البيت محفوظة داخل أغلفتها الملموسة ، حيث أجددها ما تزال حية نابضة ، مثل السمكة التى أصطادها فى الأيام التى يسمح لى فيها بالصيد ، وأحلقها تحت العشب فى سلتى إلى المنزل ، فتصل حية طازجة رطبة .

ولكنى متى عدت إلى البيت بدأت أفكر فى أمور أخرى ، وبذلك يتبعثر ذهني - كعبرة الأشياء المتباعدة التى جمعها فى نزهتى

أو أعطاني الناس إياها - بين انعكاس الضوء على حفرة ، وضوت ناقوس ، ورائحة الأوراق المتساقطة ، ويضل بينها السر المزعوم الذي أحسست بوادره ، ولكن عقلي لم يستطع قط استخراجه من مكانته .

وحدث ذات مرة أننا ذهبتا في سيرنا إلى مدى أبعد مما تعودناه ، حتى أطبق المساء ، ولذا سرنا أن نرى الدكتور بيرسبييه يمر بنا في عربته بأقصى سرعة عائداً إلى كمبراي ، وعرفنا فتوقف ودعانا للوثوب والجلوس بجانبه . وجلست أنا على الصندوق بجوار الخوذي ، ومضت العربة تسابق الريح ، لأن الطليب كان ينبغي أن يمر قبل العودة على مرتفيل لوسالك Martinville lesac ، ليعود مريضاً في بيته . وأمام الباب طلب منا أن ننتظره . وعند ثنية في الطريق شعرت فجأة بتلك اللذة الخاصة التي لا تشبه أي لذة أخرى ، عندما لمحت برجى كنيسة مرتفيل ، اللذين كانت تتلاعب فوقهما أشعة الغروب ، في حين كانت سرعة العربة تحيل إلى دائماً أنهما يغيران وضعهما باستمرار . ثم لمحت برجاً ثالثاً هو برج كنيسة فييفيك Vieuxvicq ، وكأنه قائم بجوارهما ، مع أنه يفصل بينهما وبينهما بل وواد ، ويقوم على مستوى من الأرض أكثر ارتفاعاً من مستواهما . وبدت الأبراج بعيدة جداً ، ولذلك أدهشني أن أراها بعد بضع دقائق تقف بجوار كنيسة مرتفيل . ولم أعرف سبباً للذة التي شعرت بها عند رؤية البرجين على الأفق ، وكل ما هناك أنى تمنيت أن أحفظ

في ذاكرتي بهذه الخطوط المتقاربة التي تتحرك في ضوء الشمس ، ولم أرد أن أفكر فيهما في الوقت الحاضر . ونزلت من فوق الصندوق لأتحدث إلى والدي ونحن في انتظار أوبة الطليب ، ثم حان وقت التحرك ، فصعدت إلى مكاني ، وأدبرت رأسي كي أنظر إلى الوراء إلى البرجين ، وبعد قليل ألقيت عليهما لمحة وداع عند منعطف الطريق .

ولم أجد لدى الخوذي استعداداً للحدث ، فأتجهت إلى نفسي وحاولت استعادة منظر الأبراج الثلاثة ، وإذا بالسر المكنون المستعصى يتجلى لإحساسي على غير توقع ، وبملاّ جوانب نفسي بحيث لم أفكر في أي شيء غيره . وكنا في هذه اللحظة قد ابتعدنا كثيراً عن مرتفيل ، فأدبرت رأسي ولحت شبحتها وقد تحول إلى اللون الأسود لأن الشمس كانت قد اختفت تماماً . وجعلت كل ثنية في الطريق ، كل بضع دقائق ، توارى عنها ، إلى أن اختفت نهائياً . ولما كانت اللذة العميقة التي اجتاحتني على صورة كلمات ، اقترضت من الدكتور ورقة وقلماً ، وكتبت - برغم اهتزاز العربة المستمر - ما نفست به عن حماسي - وهو القطعة الثرية التالية ، التي اكتشفتها فيما بعد بين أوراقها ، وأنا أورها هنا ، بشيء يسير من التعديل هنا وهناك .

* * *

« وحدهما ، صاعدين من مستوى السهل ، وكأنهما ضائعان في

هذا الريف المكشوف المرامي ، انبثق إلى السماء برجا مرتفيل
 التوأمان : وسرعان ما رأينا ثلاثة أبراج ، فقد اندفع إلى وضعه هذا
 في مواجهتهما بقوة وجسارة برج ثالث ، هو برج « فيفيك » ،
 الذي انضم إليهما : ومرت الدقائق ونحن نتحرك بسرعة ، وظلت
 الأبراج الثلاثة قبالتنا لمسافة طويلة ، مثل ثلاثة طيور جائمة فوق
 السهل ، واضحة للعيان لا تتحرك في ضوء الشمس : ثم انسحب
 برج فيفيك ، إلى مسافته الصحيحة ، وظل برجا مرتفيل وحدهما ،
 وقد ذهبتهما أشعة الشمس الغارية ، التي كنت أراها من هذا البعد
 تتلاعب وتبتسم فوق جوانبهما المنحدرة . وأنفقنا وقتاً طويلاً في
 الاقتراب منهما حتى بدأت أفكر في الوقت الذي يجب أن ينقضي
 قبل وصولنا إليهما ، وإذا بالعربة فجأة ، وقد دارت حول منعطف ،
 تبلغ بنا إلى سفحهما مباشرة ، وكأنهما اندفعا فجأة ليقترحا طريقنا ،
 حتى لم يكده يتسع لنا الوقت للتوقف قبل الارتطام بمدخل الكنيسة :
 « واستأنفنا طريقنا ، وكنا قد غادرنا مرتفيل منذ قليل ،
 وغادرنا القرية التي صهبتنا في مسيرتنا بضع ثوان ، ثم اختفت ، وإذا
 ببرجي مرتفيل ، وبرج فيفيك يبرز ثلاثتها فوق الأفق لترقب فرارنا ،
 وتلوح لنا تلويحة الوداع يقمهما المغمورة بالشمس : وفي وقت
 ما ينسحب البرج الثالث ليقب الاثنان يرقبنا برهة ، ولما غير الطريق
 اتجاهه يروغ الثلاثة من نظري كثلاثة محاور ذهبية : وبعد قليل ،
 عندما اقتربنا من كبراي ، وكانت الشمس في هذه الأثناء قد غربت ،

رأيت الأبراج الثلاثة للمرة الأخيرة ، مجمعة في البعد ، ولاحت
 كثلاثة أزاهير مرسومة على صفحة السماء فوق خط الحقل. وجعلتني
 أفكر أيضاً في ثلاث عذارى ورد ذكرهن في أسطورة ، متروكات
 في مكان متزل ، بدأ الليل يطبق عليه ... وإذا بي أراهن ونحن نبتعد
 عنهن بسرعة ركض الخيول ، وقد رحن يتلمسن طريقهن ، وبعد
 حركات متعثرة من قدودهن النيلة ، تدانين ، حتى صارت كل
 منهن متوارية خلف الآخرين ، حتى لم يعد يبدو منهن الآن على
 صفحة السماء التي لم تزل وردية لإلا قوام واحد قائم فائن مستكين ،
 يوشك أن يتلعه الليل .

* * *

ولم أفكر بعد ذلك أبداً في هذه الصفحة . ولكنني في ذلك الحين ،
 وأنا جالس على الصندوق الذي كان من عادة حوذي الدكتور أن
 يودعه سلة كبيرة بها الدواجن التي كان قد اشترها من سوق
 مرتفيل ، أحسست عندما فرغت من كتابتها بسعادة غامرة لأنني
 خلصت ذهني تماماً من وسواس تلك الأبراج ومن السر الذي يكن
 فيها ، وكأنني شخصياً دجاجة وضعت أخيراً بيضتها ، فشرعت أغني
 بأعلى صوتي :

* * *

وكنت أثناء نزهاتي تلك أظل طول اليوم أفكر في اللذة التي
 سأحصل عليها من صداقة الدوقة جبرمت . ومن صيد السلمون

المرقط ، ومن الطفو وحدى في زورق فوق صفحة نهر فيفون .
وكنت لشدة نهمي إلى السعادة لا أطلب شيئاً من الحياة - في تلك
الأوقات - أكثر من أن تكون سلسلة من « العاصري » المرحية .
ولكن عندما ألح في طريقنا إلى البيت مزرعة على يسار الطريق ،
تبعد قليلاً عن مزرعتين متجاورتين ، لا يفصلهما عن كبراي إلا أن
تعتطف في ممر تظله أشجار البلوذ ، تحف بأحد جانبيه بساتين
مسورة لأشجار التفاح التي تلي على الأرض ظلالها في ضوء
الغروب ، وعندئذ يدق قلبي بشدة ، وأعلم أننا بعد نصف ساعة
سنكون في البيت ، وأتينا كالعادة كلما سرنا في طريق جيرمنت نتناول
العشاء متأخرين ، وبعده مباشرة أومر بالصعود إلى حجرتي - وبقى
أمر على المائدة كأنما هناك ضيوف ، ولا تصعد ليقول لي في فراشي
طابت ليلتك . وعلى الفور تبدأ منطقة اكتئابي التي تختلف تمام
الاختلاف عن منطقة المرح والسعادة التي كنت أرفل فيها منذ لحظة ،
تماماً كما تنفصل أحياناً على صفحة السماء مساحة وردية عن مساحة
أخرى خضراء أو سوداء ، كأنما بينهما خط غير منظور . فيبتا
أنت ترى طائراً يملق في الضوء الوردى ، إذا به يعبر ذلك الحسد
الفاصل ويمرّق منه ليملق في المساحة السوداء التي تخفيه عن ناظريك .
وإذا بالقتيات التي كنت غارقاً فيها بأن أذهب إلى جيرمنت وأسافر
وأعيش حياة السعادة وقد صارت بعيدة عني ، حتى أن تحقّقها
لا يسبب لي أدنى لذة . فقد كنت مستعداً أن أضحي بهذا كله في

سبيل أن أبكي الليل بطوله بين ذراعي ماما ! وأرتجف من شدة
الانفعال ، وأعجز عن تحويل عيني الفرعتين عن وجه أمي التي لن
تأتي إلى حجرتي هذا المساء وأنا راقد في فراشي ، وليتها تكون
ضجعة الموت !

وتلازمني هذه الحالة حتى الصباح ، ومعنى نشرت أنواره
أشعتها ، قفزت من فراشي وهبطت على الفور إلى الحديقة ، ولا يخطر
ببالى عندئذ أن المساء سيعود ، وتحل معه الساعة التي يتعين عليّ فيها
أن أقارق أمي . وهكذا تعلمت من طريق جيرمنت أن أميز بين هاتين
الحالتين اللتين كانتا تسيطران على عقلي بطريقة تبادلية ، بحيث
تقتسمان يومى فيما بينهما ، وتحل كل منهما محل الأخرى بانتظام
دورات الحصى والبرداء في الملازي . تتجاوران ولكن كلا منهما
غريبة عن الأخرى ، وليس بينهما اتصال ، بحيث لا أستطيع وأنا
في إحدى الحالتين أن أفهم ، أو حتى أصور لنفسي ما تقت إليه
أو فعلته وأنا تحت سيطرة الحالة الأخرى .

وهكذا يظل طريق ميز جليرز وطريق جيرمنت مرتبطين عندى
بالأحداث الصغيرة للحياة الغنية بالتفاصيل والوقائع ، الحافلة بالتنوع .
وأعني بتلك الحياة حياة الذهن . فإ يحدث في عقولنا من تطورات ،
ومن نمو وتقدم سبقته دائماً تمهيدات صغيرة غير ملحوظة ، لأنها
تمهيدات لا شعورية ، يضئنا البحث عن جلور ما وراء كبرائنا

الراهن عندما تكبر . ولخفاء هذه الجذور والتهديدات عنا نحسب حالتنا الراهنة وليدة اليوم ، بل اللحظة التي لاحت لنا فيها ، مع أن كل ما مر بنا في حداثتنا من مناظر وروائح ومشاعر جزئية قد اندمج فيها وحملناه معنا بأدق تفصيلاته . وهو الذي صنع تكويننا النفسى والعقلى من حيث لا نعتسب . وهكذا حملت في دخيلى روائح الزعرور البرى ، ومناظر المروج ، والنهر ، والبساتين ، والسماء ، والأبراج ، وألصقتها في انفعالات الحارة بها في حينها ، وعبرت معي كل تلك السنين ، في حين مانت كل العناصر والمرياث التي لم أنفعل بها . وأحياناً تطفو في الحاضر قطعة من منظر قديم منفصلة عن كل ما كان متصلاً بها ، بحيث أعجز عن تحديد المكان والزمان الذي تراءت لي فيه في البداية . بل لعلها جزء من أحلامي القديمة ، ولكني أعجز أيضاً عن تحديد ملابس هذا الحلم . إلا أن هذه المكونات اللاشعورية هي أرض نفسيتي الصلبة ، في أعماق طبقاتها ، التي فوقها أستطيع أن أبني تصوراتي الجديدة . وهذه الأرضية هي بلا شك - في نظري - طريقاً ميزجليز وجيرمنت . وما زالت الأشياء والأشخاص الذين عرقهم وأنا أطوف هذه الأصقاع هي مصدر سرورى العميق . ولا أدري لأن الإيمان الخلاق قد توقف في نفسى ، أم لأن الواقع احتل تصوراتى ، صرت لأحس أن الأزهار التي يربى الناس إياها الآن لأول مرة أزهار حقيقية . وما زال طريق ميزجليز بليكه وزعروره البرى وقنطريونه العنبرى

وخشخاشه وأشجار تفاحه ، وما زال طريق جيرمنت بنهر الغاص بأفراخ الضفادع ، وزنايقه المسائية ، يكونان لدى على مدى الأيام صورة الأرض التي أتمنى أن أقضى فيها حياتى ، وكل ما أقتضيه منها أن أخرج للصيد في النهر ، والطفو بتراخ في زورق ، وأشهد أنقاض القلعة القوطية بين الأعشاب ، وأعثر وسط حقول القمح على كنيسة قديمة متوارية - كما تتوارى كنيسة سانت أندريه ديه شان - بيناتها الريفى ، وقد اصفر كأنه حجر الطاحون ، وأعثر على القنطريون العنبرى والزعرور البرى وأشجار التفاح التي قد أصادفها وأنا خارج للنزهة بين الحقول .

ولكن لأن للأماكن فردتها ، لن يشيع اشتياقي إلى طريق جيرمنت أن أرى ضفتى نهر ما فيه زنايق الماء ولو كانت في جبال زنايق نهر فيفون أو أجمل منها وأبهى . تماماً كما لن يشيع اشتياقي للحب والحنان أن أجله عند عودتى للبيت أمراً غريبة تدخل حجرة نومي لتقول لي طابت ليلتك ، حتى ولو كانت أجمل من أى بكثير وأذكى منها . وكما أنه كان لا بد لتلك المرأة أن تكون أى كى تمنحنى السعادة وأنام قرير العين (وذلك ما لم أستطع أن أحسه من قبيلات من حظيت بهن بعد ذلك من عشيقات ، كنت أشك في صدق عواطفهن في نفس اللحظة التي أصدقهن فيها ، فالمرء لا يملك حقاً قلوبهن كما كنت أتلقي مع قبلة أى قلبها كله بغير تردد أو ضنّ أو تحفظ) وكما كان لا بد أن تكون أى هي التي تأتي إلى ، وتبيل فوق

بوجهها ذلك الذي كانت توجد فيه تحت إحدى العينين شائبة كنت أحبها جداً كما أحب كل ما فيها ، كذلك ما كان لا بد لي منه كي يشبع أشواقى هو طريق جيرمنت كما عرفته ، وفيه تلك المزرعة البعيدة قليلاً عن المزرعتين المتجاورتين المتلاصقتين ، عند مدخل ممر البلوط ، وفيه تلك المروج التي ترسم فوقها أوراق أشجار التفاح عندما تضي الشمس على صفحتها تألقاً تبدو فيه كالبهجة . وبه كل تلك المناظر التي تسيطر فرديتها أحياناً على أحلامي في الليل ولكني عندما أصبح لا أجد لها أثراً .

ولاشك في أن طريقى ميزجلير وجيرمنت قد عرضاني فيها تلا ذلك من مراحل عمرى لكثير من خيبة الأمل ، بل لكثير من الأخطاء بما أوقعاه في نفسى من ارتباطات بين مجموعات متباينة من الانطباعات ، لا لسبب سوى أنها أشعرتنى بأشياء متفرقة في آن واحد . ولذا فكثيراً ما تميت بعد ذلك لقاء شخص معين ثم اكتشف أن السبب في ذلك أنه ذكرنى بسياج من الزعرور البرى المزهرة . وهكذا أجد هذين الطريقتين الأساس الغائر لانتباعاتى الحاضرة ، الأساس الذى يكسبها عمقاً وأبعاداً ، تفتقر إليها انتباعاتى الأخرى غير المرتبطة بهما . كما أنه يكسبها مغزى يخصنى وحدى . فعندما تزجر السماء المكفهرة في إحدى أمسيات الصيف ويتمزق كل امرئ من العاصفة ، نذهب في غملى إلى طريق ميزجلير في نشوة لأستنشق وسط صوت

المطر المبهمر عبر تلك المروج وما فيها من أشجار اللبلىك التي لا يراها سوى ، وتلاحقنى صورها وشذاها .

وكذلك كثيراً ما أرقد حتى الصباح أحلم بالأيام الخوالى في كبرى ، وأمسياتى الحزينة الأرقه هناك ، وبأيام أخرى ردها إلى طعم فنجان من الشاي ، ويتداعى الذكريات أستعيد قصة رويت لي بعد فراق ذلك المكان بسنوات عن غرام انغمس فيه سوان قبل أن أولد . أستعيد لها بكل التفاصيل وبكل الدقة التي تواتنا ونحن ندرس حياة من غبروا منذ قرون بأسهل مما تواتنا تفاصيل حياة أقرب أصدقائنا إلينا . تفاصيل كان يبدو من المستحيل أن ندرجها مثلاً كان يبدو لنا الكلام من بلدة لأخرى مستحيلاً قبل اختراع التليفون . وتراكم كل هذه الذكريات في كيان واحد ولكن بغیر التجم ، فهناك ثلاث طبقات منها : طبقة الذكريات الموعلة في القدم وكأنها غريزية ، وطبقة الذكريات التي استعادها طعم معين أو رائحة خاصة ، وطبقة الذكريات التي اكتسبتها عن طريق رواية شخص آخر . أجل لى عندما يدنو الصباح أكون قد تخلصت من سيطرة الحلم ، وأدرك في أى حجرة أنام فعلاً ، مستعيناً بالذاكرة في عتمة السحر ، أو يومض ضوء منبعت من الخارج ، فأعرف أن مصدره نافذة لها ستائر ، وأحدد مكان كل قطعة من أثاثها . ولكن ما يكاد الصبح الحقيقى يبرغ حتى أتبين أن بصيص النور كان منبعتاً من تحت الباب .

لا من النافذة ، وأرى الأثاث كله في وضعه الصحيح ، لا كما توهمه بالخيلة في العتمة .

لكي تقبل في « الخلية الصغيرة » أو « المجموعة الصغيرة » في بيت آل فرديران Verdurin ، يكفي أن تكون مستوفياً لشرط واحد ، ولكن هذا الشرط الواحد لا غنى عنه . فلا بد أن تؤمن بالعقيدة التي من بين بنودها أن عازف البيانو الشاب الذي شملته مدام فرديران برعايتها هذا العام وقالت عنه :

— لا ينبغي أن يسمح لأحد أن يعزف البيانو أفضل من هذا . وأن الدكتور كوتار Cottard تطاسى أبرع في وصف العلة من بوتان Potain . وكل مستجد يفشل آل فرديران في إقناعه بأن الأمسيات التي تقضى في غير دارها مملة كياه الصرف الصحي ، يجد نفسه متبوعاً مقصياً على الفور . ولما كانت النساء في هذا الشأن أشد تمرداً من الرجال ، وأقل منهم استعداداً لنبد كل فضول دينوي ، ويفضّلن أن يكتشفن بأنفسهن هل قاعات الاستقبال الأخرى لها مثل مباحج قاعة استقبال آل فرديران في بعض الأحيان أم لا ؟ ولما كان آل فرديران يشعر أن هذه الروح النقدية وهذا النزق يمكن أن ينتقلا بالعدوى فيقضيان على أصالة واستقامة عقيدة كتيستهما الصغيرة ، لذا اضطرا إلى إقصاء الجنس اللطيف واحدة بعد واحدة .

فبخلاف زوجة الطبيب الشابة ، اضطرا في ذلك الموسم (مع

أن مدام فرديران نفسها كانت امرأة « طيبة » جداً ، وتتحدر من أسرة محترمة من أسر الطبقة الوسطى ، وبالغة الثراء ، وليس فيها عنصر من عناصر الرقي والامتياز ، وقد قطعت كل صلة لها بأسرتها هذه تدريجاً ومن تلقاء نفسها) للاكتفاء بامرأة شابة تكاد تنتمي لطبقة معينة (من أنصاف الحرائر) هي مدام دي كريسي Crécy ، كانت مدام فرديران تناديهما باسمها الأول وهو « أوديت » Odette ، وبعمة عازف البيانو التي كان يبدو عليها أنها كانت تعمل فيما مضى خادمة : وهما سيدتان تجهلان المجتمع الراقي تماماً ، ولذا كان من السهل عليهما لسذاجتهما أن تعتقدا أن أميرة ساجان De Sagan ودوقة جيرمنت De Guermentes كانتا مضطرتين لدفع مبالغ كبيرة من المال للمسكينات اللواتي يقبلن الدعوة إلى قصرهما ، وهي دعوة كانت المرأة غير المصنوع والخادمة السابقة تأيين قبولها بازدياد شديد .

ولم يكن آل فرديران يدعوانك إلى المسائدة ، بل مكانك محجوز لك دائماً . ولم يكن هناك قط أي برنامج للترفيه في الأمسيات . وقد يعزف عازف البيانو إن وجد ميلاً لذلك ، لأنه لم تكن هناك واجبات مفروضة على أحد ، بل كما قال المسيو فرديران :

— كلنا هنا أصدقاء والحرية هي الشعار .

وإذا اقترح عازف البيانو عزف « ركوب الفالكيري » أو « مقدمة تريستان » احتجت مدام فرديران ، لا لأن الموسيقى لا تروقها . بل

بالعكس لأن انطباعها عنيف جداً « أتريد أن يصبني الصداق ؟
فأنت تعرف جيداً أنني أصاب به في كل مرة يعزف فيها هذا ..
ويتعذر على النهوض غداً من فراشي ». فلأن لم يكن عازماً على العزف ،
دارت الأحاديث ، وعادة يشرع الرسام - الذي كانت له الخطوة
تلك السنة - في « حيك » نادرة تجعلهم جميعاً تكاد تنشق جنوبهم من
الضحك - على حد قول مسيو فرديران ، وتكون مدام فرديران
أشد الجميع ضحكاً ، حتى أن الدكتور كونتار - الذي كان يومئذ
حديث عهد بالممارسة العامة - يضطر في الصباح لزيارتها كي يصلح
فكها الذي اعوج من شدة الضحك !

وكانت ملابس السهرة متنوعة ، لأن الجميع « رفاق وأصحاب »
ولا يريدون أن يبدووا مثل المملين من السمجين المتكلفين الذين يجب
تحاشيهم كأنهم الطاعون ، فلا يدعون إلا في السهرات الكبرى التي
لا تقام إلا نادراً جداً ، وبشرط أن تفيدي في إذاعة شهرة الرسام
أو الموسيقى . أما سائر الليالي فأنت سعيد بالتسليية بين الصحاب
أو أداء تمثيليات تنكرية ثم تناول العشاء ، بدون حاجة إلى إقحام
عناصر غريبة في « العشرة » الصغيرة .

ولكن بعد أن صار « الرفاق الطيبون » يحتلون مكاناً بارزاً في
حياة مدام فرديران ، كذلك صار « المملون » يشملون كل من وكل
ما يبعد أصدقاءها عنها ، بحيث يتذرعون أحياناً « بارتباطات سابقة » ،
مثل والدها ، أو واجبات مهنة ذلك ، أو « المقر الريفي » لثالث .

فإذا اضطّر الدكتور كونتار أن يقول طابت ليلتكم بمجرد النهوض
من المائدة ، لكي يعود مريضاً حالته سيئة ، قالت مدام فرديران :
- أعتقد أن حالته ستكون أفضل إن لم تقلقه مرة أخرى الليلة ،
فيحظي ليلة طيبة بدونك ، ويمكنك غداً صباحاً أن تبكر بالذهاب
إليه فتجده شقي تماماً !

ومنذ بداية ديسمبر ينتابها المرض من التفكير في أن بعض
« المخلصين » قد يخلّونهم في عيد الميلاد ورأس السنة . فعمّة الموسيقى
ألحت أن يصحبها في رأس السنة لتناول العشاء عند والدتها . فصاحت
مدام فرديران :

- أنظنين أن والدتك ستموت إن لم تعشى معها ليلة رأس
السنة مثل أهل الريف ؟

وينفذ ضيقها في الأسبوع المقدس . فقد قالت للدكتور كونتار
في أول سنة انضم فيها إلى « العشرة » ، بصوت حازم كأنها لا ترتاب
في رده :

- أنت يا دكتور رجل عاقل واسع الأفق ، وستأتي بالطبع
يوم الجمعة الحزينة كأى يوم آخر ؟

ولكنها كانت ترتجف وهي تنتظر هذا الرد ، لأنه إن لم يأت
فقضى عليها بتناول العشاء وحدها :

- سأتى يوم الجمعة الحزينة لأودعك ، لأننا ذاهبان لقضاء
العطلة في أوفرنى Ouvergne .

— في أوفرني ؟ لكي تأكلكما الحشرات والحوام ؟ ما أسوأه من اختيار ! (وبعد لحظة صمت) ولو كنت أخبرتي من قبل لحاولت تكوين جماعة لنذهب كلنا معاً إلى هناك بطريقة مريحة .

وكذلك إذا كان لأحد « المخلصين » صديق ، أو كان لإحدى السيدتين صديق من الممكن أن يدفع « المخلص أو المخلصة » إلى التخلص عن أمسية ، رتبها ضمنه إلى العشيرة ، لأن آل فرديران لا بغضبهما أن يكون لأى سيدة عشيق ، ورجبا به بكل سرور . ثم يجرى اختياره للتأكد من أنه لن يكتم سرّاً عن مدام فرديران ، فيتم ضمنه نهائياً . أما إن رسب في الاختبار انتحيا « بالمخلص » الذى قدمه إليهما جانباً ، وحرصاه على الشجار مع العشيقة أو العشيق غير المرغوب فيه . أما إن اجتاز الاختبار ، خلعا عليه لقب « مخلص » أو « مخلصه » ، ولذا عندما قالت الغائبة للمسيو فرديران إنها تعرفت بسيد ساحر هو مسيو سوان Swann وأخت أنه يتمنى أن يسمحا له بالقدوم ، رفع مسيو فرديران الاتماس فوراً إلى زوجته ، فما كان ليكون رأياً في أى موضوع ، بل يترك ذلك لها . ويتحصر واجبه في تنفيذ رغباتها ورغبات « المخلصين » عموماً ، بكل دقة وبراعة ، وهذا يقول لزوجته :

— يا عزيزتى إن مدام دي كريسي (أوديت) لديها شيء تقول له لك : إنها تود أن تأتى إلى هنا بأحد أصدقائها : من يدعى مسيو سوان . فما رأيك ؟

— كأنما يسع أى إنسان أن يرفض أى شيء لهذه التحفة ؟
اسكتي أنت . لم يطلب أحد رأيك . أنا قلت : إنك تحفة !
فأجابها أوديت ، بلهجة متكلفة :

— كما تشائين . وأنت تعلمين أنى لا أتصيد الإطراء .
— هذا حسن . ليكن . أحضرى صاحبك ، إن كان لطيفاً .
ولم يكن هناك أى ارتباط إطلاقاً بين هذه « الخلية الصغيرة » وبين المجتمع الذى يخاطبه سوان ، وأى رجل يجتمع راق ما كان ليجدهذه المجموعة تستحق عنايته وهو يحتل مركزاً مرموقاً في الحياة ، ولا يعنى نفسه للسعى إلى دخول بيت آل فرديران . ولكن سوان كان عاشقاً مدنفاً ، بحيث أنه بعد أن عرف جميع نساء الأرستقراطية تقريباً ، وعلمته كل ما يمكن تعلمه ، لم يعد يرى في حبك الاعتماد الذى أضيافه عليه حى سان جيرمان Faubourg Saint Germain علاقة نبالة ، بل مجرد سند قابل للمقايضة وليست له قيمة ذاتية ، بل كل ما هناك أنه يتيح له مكانة في ركن قصى من الريف ، أو في حى معمر من باريس حيث خلبت له ابنة حسناء لحام أو أحد صغار الأعيان . ففي هذه الأوقات توقد الشهوة أو الحب ذاته في نفسه شعوراً بالزهو هو الآن خال منه في حياته اليومية ، مع أنه بلا ريب نفس الشعور الذى كان قد دفعه في البداية نحو هذا الاتجاه كرجل يجتمع أنيق يسخر مواهبه الذهنية والثقافية للمسرات الضارغة ، ويستخدم أبحاثه وتبحره في أمور الفن ليجرد أصبح سيدات المجتمع

الراقى بأى الصور يشترئها وكيف يزخر فن بيوتين : وهذه الأباطيل هى التى جعلته مثلهفاً على التألق فى نظر أى مجهولة حسناء فتنته فى حينها ، تألقاً ربما لم يكن اسم سوان فى حد ذاته مشعاً به فى نظرها . وإن شغفه ليزداد لطفة إذا كانت المليحة المجهولة أو المغمورة ذات ظروف متواضعة . وسوان الذى كان يتصرف بكل بساطة وعلى سجيته تماماً مع الدوقات يرتجف خوفاً من ازدراء يوجه إليه ، ويشعر فى التكلف على الفور إذا كان سيقابل خادمة صاحبة الفخامة !

وسوان يختلف عن أناس كثيرين تنقصهم الحيوية أو يستسلمون للإحساس بالواجب الذى يفرضه عليهم مركزهم الاجتماعى الرفيع ، فيظلون كالزورق المشدود أمام البيت الساحلى ملازمين لنقطة معينة من شط مجرى الحياة ، ممتنعين عن المسرات واللذائذ المتاحة لهم فيما يجاوز هذه النقطة حتى نهاية عمرهم ، متحملين السأم والملل بما تيسر لهم من تسلية تافهة . أما سوان فليس هكذا ، فهو يحاول ألا يجسد السحر والجمال فى النساء اللواقى . يتحتم عليه أن يقضى معهن الوقت ، ويحاول أن يقضى وقته بين نساء اكتشف بنفسه أنهن جيلات فائتات : وهن غالباً نساء ينتمى جواهرهن إلى النمط السوقي ، لأن المحاسن الجسدية التى تجتذبه عزيزياً وبلا تعقل هى نقىض المحاسن التى يعجب بها فى صور وتماثيل النساء التى رسمها ونحتها أماتذة الفن الذين يعجب بهم . فعمق الشخصية أو الطبع ، أو المسحة الحزينة على وجه امرأة كفيفة



وسوان يختلف عن أناس كثيرين تنقصهم الحيوية أو يستسلمون للإحساس بالواجب الذى يفرضه عليهم مركزهم الاجتماعى الرفيع ..

أن تجمد حواسه ، التي تنقد على الفور لمراى الحلم البشرى الصحيح
الغزير المعاني الوردي اللون !

وإذا حدث في أحد أسفاره أنه التقى بأسرة من الأليق به الأبحاول
معرفتها ، ولكنه وجد من بين أفرادها امرأة لفتت نظره ، ذات
سحر خاص جديد عليه ، لم يحاول التمسك بوضعه المترفع بأن يمارى
الرغبة التي أشعلتها فيه ، فيستبدل بالذلة التي كان يمكنه أن يتذوقها
في صحتها ، بأن يكتب لدعوة إحدى عشيقاته السابقات كى تلحق
به في رحلته ، لأن ذلك يبدو له تنازلاً جباناً عن مواجهة الحياة ،
يمائل في غيابه التزول عن شكل جديد من أشكال السعادة ، تماماً
كإغلاق باب جناحه بالفندق على نفسه لي شاهد صور « المناظر »
الباريسية بدلا من زيارة المشاهد الخاصة بالإقليم الذى يوجد به .
ولذا لم يحبس نفسه داخل إطار علاقاته الاجتماعية الصلب ، بل جعل
منها وسيلة متاحة لإرساء أسس جديدة كلما خلبت ليه امرأة . فكأنها
خيمة من الخيام التي يحملها المستكشفون معهم أينما ذهبوا . فإذا كان
من هذه العلاقات الاجتماعية ما لا يمكن حمله والتنقل به عدة بلا قيمة
وطرحه ، مهما بدا للآخرين مثيراً للحدس . وكمن مرة كانت له
مكانة كبيرة لدى إحدى الدوقات ، بنيت بجهد الستين وكدها
ورغبتها في انتهاز فرصة لتقديم خدمة له ، وإذا به يبدد هذه المكانة
برسالة طائشة يبعثها إليها لكى تزكيه برقياً وتقدمه لوكيل إحدى
ضياعها في الريف لأن له ابنة لفتت نظره هناك . فكأنه الجامع الذى

ينزل عن جوهره نفيسة ليحصل على كسرة خبز جافة ! ولحق أنه
- بعد فوات الأوان - كان يضحك ساخرأ من نفسه وما فعل ،
لأن في طبيعته عنصر التهريج وإن كانت قد صقلته تجارب الحياة .
ثم إنه ينتمى إلى ذلك الصنف من أذكىاء الرجال الذين عاشوا حياة
الدعة والكسل ، وينشدون العزاء ، وربما أيضاً العذر لكسلهم لأنه
يتيح لهم موضوعات اهتمام تضارع الموضوعات العلمية والفنية ، على
أساس أن « الحياة » بها مواقف أخرى بالطرافة وأخف بالرومانسية
من كل الروايات المكتوبة . وهكذا ، على الأقل ، يتسنى له أن
يؤكد ويقنع بلا عناء أشد أصدقائه فطنة في المجتمع الراقى - ولا سيما
البارون دى شارلى De Gharlus - الذى كان يحب أن يسليه
بحكاية المغامرات الغريبة التي تتفق له ، كما حدث عندما التقى بامرأة
في القطار ، وأخذها معه إلى البيت ، قبل أن يكتشف أنها كانت
شقيقة ملك متوج ، كانت متجمعة حينذاك في يديه كل خيوط
السياسة الأوربية ، وبذلك ظل على علم بحفاياها على أمتع وجهه ،
أو عندما تكون الأهمية كلها - نتيجة لتعدد الظروف - فهل يصبح
أم لا عشيقاً لطباخة شخص ما ، وعلى ذلك قد تتوقف نتيجة انتخاب
الجميع المقدس للبابا !

ولم يكن الفيلق اللامع من العقائل الفضليات والجنرالات
والأكاديميين المرتبطين به ارتباطاً وثيقاً ، هو وحده الذى يحمله
سوان بكل استهانة على أن يقوم له بعمل القواد . بل كل أصدقائه

كانوا معتادين أن يتلقوا بين الحين والحين رسائل تطلب منهم كلمة تزكية أو تقديم ، بأسلوب غاية في الدبلوماسية ولكن بصورة متواترة في جميع « علاقاته الغرامية » ، مستعيناً على هذا بشتى المعاذير ، مما يفضح منه ثابتة في طبعه هي البحث الدائب عن المتعة المتغيرة . وكثيراً ما ذكرت نفسى - عندما بدأت بعد سنوات طوال في الاهتمام بطبعه لما فيه مشابه من وجوه مختلفة تماماً مع طبعى الخاص - كيف كان من عادته أن يكتب إلى جدى (وكان ذلك قبل وقت مولدى ، ففي ذلك الحين بدأت علاقة سوان الغرامية الكبرى فقطعت مغامراته المعهودة) فكان جدى يعرف خط صديقه على المظروف ويصحح :
- ها هو سوان يطلب شيئاً ما . فلنكن على حذر !

وبناء على التزعة اللاشعورية التي تحثنا على تقديم شيء ما إلى من لا يحتاجون إليه ، كان جدى وجدى يقابلان أهون مطالب سوان بالرفض البات ، كما هو الحال حيناً رجاها أن يقدماء إلى فتاة كانت تتعشى معنا كل يوم أحد ، وصاروا يتظاهران كلما ذكرها لهما سوان أنهما انتقلتا عن رؤيتها ، مع أنهما طول الأسبوع في حيرة بشأن من عساهما يدعوان للقاءها ، وكانا يشلان أحياناً في العثور على أحد ، ومع هذا لا تبدر منهما إشارة لدعوته وهو الذى كان خليفاً أن يلبيا بكل سرور :

وأحياناً كان زوجان من معارف جدى وجدى - ممن سبق لهم الشكوى لانقطاع سوان عنهما منذ مدة - يعلنان بفرح ، وورعاً

بشيء من الرغبة في إثارة حسد جدى وجدى لهما ، أن سوان عاد إلى مودته ، بل وزاد في مظاهرها معها فجأة ، ولم يعد يغيب عن بينهما . ولا يحاول جدى أن يحطم وهبهما الجميل ، وينظر إلى جدى وهو يدندن بموسيقى هذه الأغنية :

« ما هذا اللغز الخفى ؟ أنا عاجز عن فهمه . البصر عاجز مراوغ .. وفي مثل هذه الأمور ، يستحسن أن يغلق المرء عينيه ! » :

وبعد بضعة أشهر ، إن سأل جدى صديق سوان الجديد :
- ماذا عن سوان ؟ ألم يزل يكثر من زيارتكم كالمعتاد ؟
عندئذ يستطيل وجه الرجل ويقول :

- لا تذكره لى من فضلك بعد الآن !

- ولكنى ظننتكما صديقين جميعين ...

وعلى هذا المنوال كان سوان صديقاً خيمياً لعدة أشهر لبعض أبناء عمومة جدى ، بحيث كان يتعشى عندهم كل ليلة - وفجأة - انقطع بغير سابق إنذار . فظنوه مريضاً ، وهمت ربة البيت أن ترسل للسؤال والاستفسار عن صحته ، عندما عثرت في مطبخها على خطاب بخط يده كانت الطباخة قد تركته سهواً في دفتر حسابات المنزل ! وفيه يعلن أنه سيغادر باريس ولن يأتى إلى هذا البيت بعد ذلك . فقد كانت الطباخة عشيقته : وفي لحظة رحيله كانت هي الشخص الوحيد من أهل البيت الذى فكر في إخباره بنيتها هذه .

أما إذا كانت عشيقته في فترة معينة امرأة من سيدات المجتمع ،

أو على الأقل ليست وضعية المولد جداً ، أو ليس وضعها شاذاً جداً بحيث لا يمكنه تقديمها للمجتمع الراقى ، عندئذ يدور في الفلك الضيق الذى به هذه المرأة أو الذى وضعها فيه هو ، ويقول الناس فى هذه الحالة :

— لا جدوى من الاعتماد على سوان الليلة : ألا تتذكرون أنها ليلة صاحبته الأمريكية بالأوبرا ؟

وتراه يحصل لها على اللدونات إلى أرقى الصالونات ، فى تلك البيوت التى يغشاها عادة ، للعشاء أسبوعياً ، أو للعب اليوكر : وفى كل أمسية تراه بعد أن يرتجل شعره الأحمر المتهدل بما يلفظ من جسارة عينية الخضراوي ، يختار زهرة لعروة سترته ويذهب للقاء عشيقته فى هذا البيت أو ذاك ، ويجد سحراً جديداً فى الصبغة التى كانت تضجره ويعاملهم بكل لطف بسبب وجود هذه المعشوقة الجديدة ...

ولكن فى حين كانت كل علاقة غرامية أو نزوة من هذا القبيل تحقيقاً متفاوت الاكتمال لحلم تولد عن رؤية وجه أو خد مليح وجده سوان فائتاً بصورة تلقائية ، من غير جهد من جانبه ، إلا أن الأمر كان مختلفاً تماماً عندما قدمه أحد أصدقائه فى المسرح ذات يوم إلى أوديت دى كريسى . وكان هذا الصديق قد حدثه قبل ذلك عنها على أنها مخلوقة ساحرة يمكنه أن يصل إلى تفاهم معها (أى أن عفتها

موضع مساومة) ولكنه تعمد أن يوجهه بأن اقتناص رضاها أصعب مما هو فى الواقع ، كى يوقع فى روعه أنه أسدى إليه جميلاً ذا قيمة بتقديمه إليها . وقد كان وقعها من نفس سوان بالقطع لا على أنها عاطلة من الجمال ، بل لأن جمالها ذو طابع خاص لا يبالي هو به ، ولا يثير شهوته ، بل إنه فى الواقع أثار فيه نفوراً جسدياً . فهى من ذلك النوع من النساء الذى يستطيع كل واحد أن يذكر واحدة مثلاً أو أكثر على نقيض ما تشبهه حواسنا . فالشكل الجانبي لوجهها حاد وبشرتها مفرطة الرقة ، وعظمتا خديها بارزتان أكثر مما يجب ، وتقاطيعها مشدودة بحيث لا يمكن أن تروقه : وكانت غيناها بديعتين إلا أنهما واسعتان جداً حتى كأنهما تنحنيان إلى أسفل لفرط ثقلهما ، وتشدان كل ملامحها ، بحيث تبدو دائماً علية أو منحرفة المزاج . وبعد فترة من هذا التعارف فى المسرح كتبت إلى سوان تسأله أفى وسعها أن تشاهد مجموعاته الفنية ، التى تحس أنها ستثير اهتمامها جداً ، قائلة : « فأتنا امرأة جاهلة ولكن ذوقى يميل إلى الأشياء الجميلة » . وذكرنا له أنها ستعرفه بصورة أفضل عندما تراه فى بيته حيث تتخيله « على سمجته بين شايه وكتبه » وإن لم تخف عنه دهشتها لإقامته فى هذا الحى من المدينة ، فلا بد أنه حى كتيب « لا يلبق بأناقة رجل فى مثل وجهته المفرطة » : ولما سمح لها بالحضور قالت له عند انصرافها : كم هى أسفة لأنها مكثت هذه البرهة القصيرة فى بيت سرها جداً أن تدخله : وأشعرته أنه يعنى لديها أكثر مما يعنيه سائر من تعرفهم من

الناس ، وكأنما تريد ربط حياتيهما برباط رومانسي - جعله يتسم . ولكن سوان كان يقترب في ذلك الحين من مرحلة انقشاع الأحلام ، التي يكتفى فيها الرجل بأن يحب من غير أن يتوقع الكثير في مقابل هذا ، ولا يعود ارتباط القلوب - كما كان في مرحلة الشباب الباكر - الهدف الذي يرمى إليه الحب بالضرورة . بل لعل شدة توافق الأفكار قد يكون علة الحب إن حدث هذا التوافق الفكري أولاً . فالرجل في عهد شبابه يحلم بامتلاك قلب المرأة التي يحبها ، ولكنه فيما بعد قد يكفيه الإحساس أنه يمتلك قلب امرأة ما كفى يقع في هواها . وهكذا في سن قد يبدو فيها - ما دام المرء ينشد في الحب قبل كل شيء آخر اللذة الذاتية - أن تذوقه للحال الأنثوي لابد أن يقوم بالدور الأكبر في تولد الحب ، قد نجد الحب الجسدي الجارف ينشأ بدون أى أساس من الاشتاء . وفي هذا الوقت يكون الرجل قد أدتمته مهام الحب أكثر من مرة ، فلا يعود الحب ينشأ من تلقاء نفسه إطاعة لقوانينه القدرية المحتومة غير المفهومة في حين يظل قلبه المبهوت سلبياً . بل يخف الرجل لمعونة الحب ، فيزيده بالتذكر والإيحاء ، ومتى تعرف على عرض من أعراضه تذكر بقية الأعراض واستدعاها . وفي هذه الحالة ما دمنا نحفظ ترنيمة محسورة في قلوبنا بنصها الكامل ، فلا حاجة بأى امرأة للتفوه بمطلعها ، بل يكفي أن يلهمنا إياه إعجابنا بجأها كي تذكر سائر الترنيمة . وحتى إن هي بدأتها من منتصفها

سهل علينا المضي معها فيها إلى نهايتها ، بدون تردد ، مع أول نبرة أو أول توقف في صوتها وهي تنشدها .

وجاءت أوديت دى كريسى مرات أخرى لزيارة سوان ، وتواترت زياراتها ، وما من شك أن كل زيارة جددت لديه شعوره بخيبة الأمل عند رؤية الوجه الذي كاد ينسى تفصيلاته فيما بين زيارة وأخرى ، ولا يذكر منها إلا شدة تعبيرها أو شدة ذبولها رغم صباها . وكان بأسف وهي تحدثه لأن جمالها العظيم فعلا ليس من النوع الذي يعجب به تلقائياً . وينبغي أن نلاحظ أن وجه أوديت كان يبدو أنحف وأشد بروجاً من حقيقته ، لأن جبينها والقسم العلوي من خديها ، سطح واحد منبسط ، مغطى بالشعر على طريقة نساء تلك الحقبة ، والشعر مشدود إلى الأمام ، ومرفوع بعد ذلك في تموجات مجمدة تتساقط في خصلات فوق أذنها . أما قدها - وهو بديع التكوين - فن الصعب اكتشاف خطوطه بسبب المشد الذي تلبسه كعادة معاصراتها ، وإن كانت من آنق النساء ملبساً في باريس . ويتسبب المشد في دفع ثيابها في تقوس كأنما لها معدة بارزة ، ومن تحت ذلك أذبالها المضاعفة . فزى النساء في ذلك العام يجعلهن يبدن كما لو كن مركبات من قطاعات سيئة التماسق ؛ بالإضافة إلى تعقيدات في التفصيل والأنشوطات والأهداب ، في بهرجة وفي استقلال تام عن البنية الجسمية الحية التي تغدو إما مخنقة أو دفينت تحت هذه الملابس المعقدة .

ولكن بعد أن تغادره أوديت ، يفكر سوان باسماء في قولها له كيف تستطيل الوقت إلى أن يسمح لها بالعودة . ويتذكر الالهة والحجل اللذين اقترنا ذات مرة بتوسلها إليه ألا تطول هذه الفترة : وكيف نظرت إليه عندئذ ، وقد ثبتت عليه نظرتها الخفيفة المتوسلة من تحت أزهار البنسيه الصناعية المثبتة في مقدمة قلنسوتها المستديرة المصنوعة من القش الأبيض ، والمربوطة بسبيور من القطيفة السوداء . ثم أردفت هذه النظرة بقولها :

— أفلا تأتي أنت ذات مرة لتناول الشاي معي ؟

واعتذر متذرعاً بضغط العمل ، لإنجاز رسالة أو مقال — كان في الواقع قد تخطى عنه منذ سنوات — عن فرمير Vermeer . فأجابته قائلة :

— أنا أعرف أنى عديمة الفائدة . وكالحيران الوحشى إلى جانبيه رجل عظيم عالم مثلك . فكأننى ضفدعة الأسطورة ! ولكنى أتمنى لو تعلمت منك أشياء كثيرة . فما أغلظ أن أتحول إلى دودة كتب ، وأدفن أننى في كومة من الأوراق القديمة . ولكنك ستضحك منى لأن هذا الرسام الذى يمتنع من زيارتى (تعنى فرمير) لم أسمع أنا به من قبل . ألم يزل على قيد الحياة ؟ أيمكننى أن أرى شيئاً من لوحاته فى باريس ، كى يقضى لى على الأقل أن أقول : « ها هو ما يفكر فيه » فما أعزّه من حلم على نفسه أن أتمكن من مساعدتك فى عملك : وقد نشد عذراً أو ذريعة لخوفه من إنشاء صداقة جديدة ، وقد

وصف هذا العذر بأنه الخوف من عاطفة بلا أمل :: وقالت له بصورة طبيعية جداً وباقتناع تام تأثر بهما تأثراً حقيقياً :

— أغشى الوقوع فى الحب ؟ ما ادعى هذا للضحك ، فى حين أننى لا هم لى إلا البحث عن الحب . ومستعدة أن أهب روحى فى سبيل العثور على شيء من الحب فى أى مكان ! ولا بد أن امرأة ما قد سببت لك العناء والعذاب ، فحسبت أن سائر النساء مثلها . لا بد أنها عجزت عن فهمك . ولا عجب ! فأنت شديد الاختلاف عن الرجال العاديين . وهذا ما أحبيته فيك عندما رأيتك أول مرة : فقد أحسست على الفور أنك لست مثل أى شخص آخر :

وواصل هو كلامه قائلاً :

— ثم هناك ما يشغلك شخصياً . فأنا أعرف طبائع النساء ، ولا بد أن لديك كومة هائلة من المشاغل . لا تدع لك وقت فراغ : — أنا ؟ بل ليس عندى أى شيء يشغلى : فوقى دائماً بلا شواغل ، وأنا دائماً غير مشغولة وسأكون دائماً رهن إشارتك لأن أردتى . وفى أى ساعة من الليل أو النهار يروقك ويلاصقك أن ترائى ، ابعث لى ، وسأكون سعيدة جداً بالقدوم إليك . أترك تصنع هذا ؟ أنعرف ماذا أتمنى أن أصنع أنا ؟ أن أقدمك إلى مدام فرديران ، حيث أذهب كل مساء . وتصور فرحى إذ أجدك هناك ، وأنتك إنما ذهبت لأجلى :

ولا شك فى أنه إذ يتذكر أحاديثها على هذه الصورة ،

ولذا يفكر فيها وهو وحده ، فهو إنما يستدعي صورتها في عداد من لا يحصين من النساء في أحلامه الرومانسية . ولكن إن حدث ظرف عرضي (أو حتى بدون ذلك ، فإن الظرف الذي يطرأ عندما تطفو حالة نفسية كامنة إلى السطح لا تأثير له إطلاقاً على تلك الحالة) فإن صورة أوديت دى كريسى تستوعب كل أحلامه : ولئن لم يتسن إبعاد ذكراها من هذه الأحلام ، فعيوبها الجسدية لن تكون لها أدنى أهمية . ولا ملاءمة لجسدها أو عدم ملاءمته لذوقه ، لأنه غذا جسم من أحبا ، وبالتالي يتعين أن يكون الجسد الوحيد الكفيل باتقصاد سروره أو لحفته وكرهه .

وقد اتفق أن جدى كان قد عرف امرأة آل فرديران ، ولكنه قد قطع تماماً كل صلة بمن كان يسميه « فرديران الشاب » لأنه رآه رغم احتفاظه بملايينه قد انزلق إلى حضيض حثالة البوهيميين . وذات يوم تلقى رسالة من سوان يسأله هل له أن يعرفه بآل فرديران . وكان تعليق جدى عندما قرأها :

— الخذر ! الخذر ! لا يدهشني البتة هذا الطلب ! فسوان كان من المتوقع أن يترقى إلى هذا المستوى . يالهم من طغمة فاسدة ! لا يمكنني أن أجيب طلبه ، لأنني أولاً لم أعبد أعرف هذا السيد فرديران . وثانياً لأنه لا بد أن تكون في المسألة امرأة ، وأنا لا أتمدخل في هذه الأمور . وسنرى العجب إذا بدأ سوان يجرى وراء آل فرديران الشباب .

ولما رفض جدى إجابة طلبه ، كانت أوديت نفسها هي التي أخذته إلى ذلك البيت . وكان على مائدة عشاء آل فرديران يوم ظهر هناك لأول مرة الدكتور كوتار وقرينته ، والموسيقى الشاب وعمته ، والرسام صاحب الخطوة ، ثم لحق بهؤلاء في غضون الأمسية عدد آخر من « المخلصين » .

ولم يكن الدكتور كوتار متأكداً قط من اللهجة التي ينبغي أن يرد بها على أى ملاحظة ، ولا يفهم هل المتحدث يمزح أم هو جاد ، ولذا يزين صمته دائماً بإبتسامة غامضة تبرئه من تهمة الساذجة في جميع الأحوال إذا اتضح أن العبارة التي وجهت إليه كانت على سبيل المزاح . ولكن لما كان من المحتمل أن يواجه أيضاً الأحاديث الجادة ، لذا لم يكن يسمح أبداً بإبتسامته أن يكون لها معنى محدد ، وكأنه يسألك دائماً « أتعني ما تقول حقاً ؟ » . ولم يكن سلوكه في الطريق العام يختلف عن سلوكه في الصالونات ، لذا كان يشاهد في الشوارع يجي المارة والغربان وكل ما يصادفه بإبتسامة مأكرة .

ولكن حينئذ لاح له أن من الجائز توجيه سؤال عن موضوع يجمله ، كان لا يتردد في تثقيف نفسه وإتمام تربيته عن هذا الطريق ، وهكذا كان ... طوعاً لنصيحة أمه عندما جاء إلى باريس للمرة الأولى من الريف — لا يترك كناية أو اسم علم جديد على مسامعه ، إلا ويستقصى عنه غاية الاستقصاء .

وفيما يتعلق بالكنايات والاستعارات كان تلميذاً لا يخفى للمعرفة ،

لأنه غالباً يتوهم أن لها معان أشد تحديداً مما لها في الواقع ، فيسأل عن المقصود بالضبط من « حياة القط والفأر » أو « ملكة الموضة » أو « إطلاق اليدى » أو « الوقوع في مأزق » وما إلى ذلك ، وعن أى المناسبات بالضبط يجوز له استخدامهما في الحديث . وكذلك كان يكثر من ترصيع كلامه باللاعاب بالألفاظ والتوريات التى تعلمها ، لاشئ إلا لكى يكررها لنفسه . وأما أسماء الأشخاص الجديدة عليه فيسأل عنها بغير إلحاح ، ليعرف شيئاً عنهم . وملكته النقدية المميزة لظلال المعانى والمقاصد خامدة ، لذا كان يأخذ كلام الناس على ظاهره الحرقى ولا يفهم مراميهِ البعيدة . ومع تعامى مدام فرديران عن عيوبه هذه ، إلا أنها كانت تضيق بها . وإن ظلت تظن به البراعة التامة . ومن أمثلة ضيقها به أنها دعت ذات مرة ليشاهد ويسمع ساره برنار Sarah Bernardt من لوج لصيق بخشبة المسرح وقالت له تهذيب ومجاملة (لأن هذا النوع هو أرق الألواح) :

— إنه لكرم منك أن تأتى يا دكتور ، ولا سيما فى متأكدة من أنك لا بد قد سمعت ساره برنار مراراً ، ثم لاني أخشى أن يكون اللوج شديد القرب من خشبة المسرح .
فإذا بالدكتور يقول بابتسامته الغامضة التى يقصد بها أن تكون حصيفة :

— طبعاً اللوج قريب أكثر مما ينبغي من المسرح ، ثم إن المرء سمع ساره برنار . ولكنك أبديت الرغبة فى حضوري ، ورغبتك

أمر : ولأنه ليسرني أن أؤدى لك هذه الخدمة الهينة ، فأنت آية فى الطيبة . (وبعد لحظة صمت) ساره برنار ؟ أليسوا يسمونها « صوت الله » ؟ ولإنها أحياناً « تشعل النار فى خشبة المسرح » : أليس هذا تعبيراً غريباً ؟ لماذا بالله « تقتطف » هذا العمل ؟

قال ذلك بلهجة من يطلب تفسيراً لمعناه . ولكن مدام فرديران شغلها الغيظ عن الرد .

وبعد ذلك قالت مدام فرديران لزوجها :

— لا شك أننا نخطئ حين نخط من قدر شيء جليل على سبيل المجاملة أمام كوتار : فهو عالم يعيش بعيداً عن حياتنا اليومية ، ويجهل القيمة الحقيقية لأى شيء ، ويصدق كل ما يسمعه حرفياً .
وأجابه مسيو فرديران :

— أنا لم أجسر قط على الإشارة إلى هذا . وإن كنت لاحظته عليه .

وفى يوم رأس السنة التالى ، بدلا من أن ترسل إلى الدكتور كوتار ياقوتة ثمنها ثلاثة آلاف فرنك مع الزعم بأنها « شيء نافع » ، اشترى المسيو فرديران جوهرة مزيفة بثلاثمائة فرنك وتركه يعتقد أنها شيء يعز وجود نظير له . ولما أعلنت مدام فرديران أنهم سيرون المسيو سوان تلك الليلة ، صاح كوتار باسم سوان فى دهشة كدهشته لسامع أى اسم غريب . ولما وجد أنه لا أحد يعرفه بحقيقة هذا الاسم ، صاح بكل قلق :

— سوان ؟ من سوان هذا ؟

وسرعان ما ذهب قلقه عندما قالت له مدام فرديران :

— إنه صديق أوديت ، الذى حدثتنا عنه .

فقال الدكتور وقد هدأ روعه فى الحال : « هذا حسن إذن » .

أما الرسام فقد استطار فرحه لتوقع ظهور سوان فى بيت آل فرديران ، لأنه استنتج أنه عاشق لأوديت .. وهو مستعد للمساعدة على لقاء العاشقين . وهمس فى أذن الدكتور كوتار أنه ما من شيء أحب إليه من الجمع بين رأسين ، وأنه بارع فى هذا مع النساء خاصة .

وعندما أخبرت أوديت آل فرديران أن سوان شديد الأناقة أفرغتهما لأنهما ظناه سمجاً مثل بقية المتأنقين . ولكن عندما جاء فعلاً كان وقوه ممتازاً ، وكان السبب غير المباشر فى هذا — وإن لم يدركاه — هو اختلاطه بأرقى المجتمعات . فالإشارات والإيماءات البسيطة التى تبدر من رجل المجتمع عندما يمد يده إلى الشاب المجهول الذى يقدمونه له ، وعندها ينحني أمام السفير الذى يقدمونه إليه ، صارت طبيعة فيه من غير أن يشعر . بحيث إنه عندما يكون فى صحبة طبقة اجتماعية أقل منه مثل آل فرديران وأصدقائهما يكون متفتح النفس متبسطاً بصورة لا يتصف بها أحد من أهل الفطوسة والأناقة السمجة . وإن كان قد تجمد لحظة واحدة لا أكثر عندما وقعت عينه على كوتار ، إذ رآه يغمض إحدى عينيه ويثبم ابتسامته الغامضة قبل

أن يتبادلا الحديث . فقد خطر لسوان أن كوتار عرف من هو أو كان قد قابله من قبل فى مكان ما ، وربما أيضاً فى أحد البيوت « السيئة السمعة » ، وإن كان سوان لا يرتادها إلا فى القليل النادر ، لأنه لا يسع عادة ذلك « الحب التجارى » . ورأى فى ذلك التعريض الصامت فساد ذوق ولا سيما أمام أوديت ، التى قد يتغير رأيها فيه نحو الأسوأ ، ولذا تنمض سوان معه عندئذ أشد ما يستطيعه من البرود . ولكنه بعد أن عرف أن السيدة التى يجوار الدكتور هى مدام كوتار أدرك أن مثل هذا الزوج الشاب لا يمكن أن يعتمد فى حضور زوجته وعلى مسمع منها أن يشير إلى تلك المباديل الرخيصة . أما الرسام فدعا سوان على الفور لزيارة مرسمه مع أوديت ، ووجده سوان لطيفاً جداً . وعندئذ قالت مدام فرديران لسوان :

— لعلك فى هذه الزيارة تحظى برؤية صورة كوتار . (وكانت هى التى كلفت الرسام برسمها على نفقتها قائلة للرسام : « وخذ حذرك يا أستاذ بيش Biche . فأنا يهينى جداً أن تبرز ابتسامته الدكتور الفريدة . فإأظله أساساً هو صورة ابتسامته ! ») .

ولما كانت تعتقد أن عبارتها هذه جدية بالاهتمام فقد حرصت على تكرارها ، وجعلت بحيلة بارعة حولها حلقة الحاضرين قبل أن تكررهما . وطلب سوان أن يقدم إلى كل الحاضرين ، حتى ذلك الصديق القديم لآل فرديران المسمى « سانيت » Saniette ، الذى حرمه خجله وطيبته من كل تقدير يليق براعته فى دراسة النقوش

القديمة ، ويليق بثرائه العريض والأسرة الممتازة التي ينتمى إليها . وعندما كان يتكلم كانت الألفاظ تخرج من فمه مختلطة اختلاطاً لطيفاً لأنه يعبر عن مرحلة أقرب للطفولة التي لم تتجاوزها نفسه البريئة قط . فشفته عاجزان عن نطق كل الحروف الساكنة على وجهها الصحيح . وعندما طلب سوان أن يقدموه إلى سانيت إذا بالمسيو فرديران يعكس الأوضاع ويقول ضاغطاً على الحروف :

— يا مسيو سوان . اسمح لي أن أقدم لك صديقنا سانيت .

ومع هذا شعر سانيت لطلب سوان التعرف إليه بشيء كثير من الغبطة والعرفان ، وإن لم ينقل آل فرديران هذا الشعور إلى سوان ، لأن سانيت يضايقهما بوجوده ، ولم يكونا مهالين لإمداده بالأصدقاء الجدد . ومن جهة أخرى طلب سوان وألح في وجوب التعرف بعمّة عازف البيانو ... وكانت ترتدى ثوباً أسود ، كعادتها دائماً ، لأنها تعتقد أن المرأة تبدو دائماً على أحسن وجه في اللون الأسود ، وأنه لا لون أرقى وأتق من السواد . ولكن وجهها كان بالغ الحمرة ، كعادته أيضاً بعد تناول الطعام . وانحنت لسوان بكل إجلال ، إلا أنها لم تلبث أن شددت قامتها بأنفه مبالغ فيها ! ولما كانت غير متعلمة على الإطلاق ، وتخشى أن ترتكب أخطاء في النحو والنطق ، لذا كانت تتعمد أن تتكلم دائماً بهجمة مشوشة ، كهي لا يقين أحد عثرات لغتها ، وبذلك كان حديثها هممة أشبه بالخرجة والتنحج ، التي قد تبرز من بينها المقاطع التي تظنها « مضمونة الصواب » . وظن

سوان أن يوسعه التندر بطريقة كلامها مع المسيو فرديران ، الذي لم يبد عليه السرور بذلك ، وقال لسوان :

— إنها امرأة ممتازة . وأنا أوافقك أنها ليست حادة الذكاء ، ولكني أؤكد لك أنها تستطيع أن تتحدث حديثاً جذاباً جداً عندما تفرد بها .

فأسرع سوان يصلح ما بدر منه قائلاً :

— أنا واثق بقدرتها هذه ، وكل ما عنيته أنها لم تترك في نفسي

الانطباع رقيقاً :

— على رسلك ! سيد هشلك أن تعرف أنها بارعة في الكتابة . ثم ألم تسمع قط ابن أخيها وهو يعزف ؟ إن عزفه بديع ، أليس كذلك يا دكتور ؟ أحب أن أطلب منه أن يعزف لنا شيئاً يا مسيو سوان ؟

وشرع سوان يقول بشيء من الطنطنة :

— سأعد نفسي في قمة السعادة وحسن الطالع !

وإذا بالدكتور يقاطعه ساخراً ، لأنه كان قد سمع ذات مرة ولم ينس قط بعد ذلك أن استخدام التراكيب والعبارات الرسمية في المحادثات العامة قد انتهى زمنه . فكان كلما سمع كلمة رنانة تستخدم بكل جد ، مثل كلمة « حسن الطالع » التي استخدمها سوان الآن ، اعتقد أن المتحدث يتعمد الخدلة ، أو ربما ظن الموضوع كله هزلاً ومزاحاً ، وشرع على الفور يكمل هذا التعبير بجملة من الجميل

المحفوظة على سبيل السخرية ، وهكذا قاطع سوان رافعاً ذراعيه إلى أعلى :

— من حسن الطالع لفرنسا !

فلم يتألك مسيو فرديران نفسه من الضحك .

فصاحت مدام فرديران في تذكر الطفلة المدللة :

— ما الذى يضحك الأصدقاء الطيبين في هذا الركن هناك ؟ لا أحسبكم سعداء بأن أظل منعزلة في وجوم في مقعدى هذا كالمذنبه ! وكانت مدام فرديران جالسة فوق مقعد سويدي عال من خشب الصنوبر اللامع ، كان قد أهداه إليها عازف بيانو من أهل تلك البلاد ، واحتفظت به في حجرة استقبالها ، مع أنه نشاز بشكله المدرسى بين الأثاث العتيق الجيد الذى في الحجرة ، إلا أنها كانت حريصة على إبراز هدايا « المخلصين » الذين كان من عادتهم أن يقدموها إليها بين الحين والحين ، حتى يراها هؤلاء الواهبون إذا ما أتوا إلى الدار . وكلهم حاولت إقناعهم بأن تكون هباتهم وهداياهم على شكل أزهار وحلوى ، فهي أشياء تتمتع بمزية سرعة الفناء على الأقل ! إلا أنها لم تنجح قط في هذا ، وهكذا امتلأ البيت بالتدريج بمجموعة من دقايات الأقدام والوسائد وساعات الحائط والبارومترات والزهرات . وهى كلها عديمة الجدوى وغير قابلة للفناء .

ومن هذا المكان العالى الذى تنجم فوقه تشتبك في أحاديث « المخلصين » أو « الخالصاء » وتستمتع غاية المتعة بمزاحهم . ولكن

منذ حادثة التواء فكها ، كفت عن بذل مجهود الفقهه الشديدة واكتفت بالحركات الوجهية الصامتة التى توحى بأنها « تضحك حتى البكاء » . وعند أى تنفرية لاذعة موجهة من أى عضو فى المجموعة إلى « المضجرين » أو ضد عضو سابق أحيل إلى قائمة المضجرين والمتكلمين ... وعندئذ تطلق مدام فرديران صيحة ثابتة وتغلق عينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عيني طائر ، واللذين بدأت تغشاهما آفة (الكتاراكنا) المياه البيضاء ، ثم تدفن وجهها بين يديها كمن تتحاشى النظر إلى شيء غير محتمل أو تتجنب ضربة قاضية ، فلا تعود ترى شيئاً على الإطلاق ، وتبدو كمن تمحو آثار ضحكة أو تركتها على سحبتها لقصت عليها . وهكذا من يجتمعها العالى تستطيب مدام فرديران — وكأنها عصفور مدلل في قفص — ما يتناثر من نكات الخالصاء ، وتنتحب تلذذاً بشعور الصبغة الطيبة وأنسها .

وفي هذه الأثناء كان مسيو فرديران — بعد أن استأذن مسيو سوان في إشعال غليونيه (« فلا تكليف هنا ، وإنما نحن جميعاً رفاق كما تعلم ! ») — قد ذهب ليرجو الموسيقى الشاب فى الجلوس إلى البيانو . فصاحت مدام فرديران :

— دعه وشأنه . لا تزعجه . فهو لم يأت لكى تعذبه . ولكن

أسمح بتعذيبه !

فرد عليها المسيو فرديران :

— ولكن لماذا يعذبه العزف ؟ أنا واثق بأن المسيو سوان لم يسمع قط السوناتا التي اكتشفها . وسيعزف لنا جزءاً منها بالبيانوفورت . فصاحت :

— لا . لا . لا . لا سوناتتي ! فأننا لا أريد أن أبكى إلى أن أصاب ببرد في الرأس ، وبالألم العصبي (النورالجيا) في كل وجهي ، كالمرأة الماضية . ألف شكر ، فليست أنوى أن أكرر ما حدث لي : وكلكم طيبون رقيقون ، ولكن ما من أحد منكم سيضطر للملازمة القرائش أسبوعاً .

وكان هذا « المشهد » الصغير ، الذي يتكرر تمثيله في كل مرة يجلس فيها الموسيقى الشاب للعزف ، يتمتع دائماً بجمع الحاضرين ، كأنما كل واحد منه يراه لأول مرة ، ويرى فيه آية على أصالة ربة الدار وشدة حساسية « أذنها » الموسيقية . وبنه القريبون من مجتمعا البعيدين عنه والمنهمكين في التدخين أو لعب الورق في الطرف الآخر للسااعة ، بصياحهم وهتافهم ، كأنهم أعضاء برلمان سمعوا شيئاً يستحق الإعجاب ، وفي اليوم التالي يرثون لحال من فاتهم مشاهدة هذا « المشهد » ، مؤكدين لهم أن « المشهد الصغير » لم يؤد من قبل بمثل هذه البراعة والإمتاع .

ويقول مسيو فريديان :

— وهو كذلك إذن . في وسعه أن يعزف « الأندانت » فحسب ! فصاحت زوجته :

— الأندانت فحسب ! ما أعجب قولك ! كأنما هذه « الأندانت فحسب » ليست هي التي تحطم كل عظمة من عظامي : إن « الأستاذ » قد في عزفه ، أيّاً كان ما يعزفه . وما أشبه قولك يا عزيزي الأندانت فحسب ، بمن يقول عند ذكر السمفونية التاسعة : « لنأخذ نريد الخاتمة فحسب ! » أو « الافتتاحية فحسب ! » عند ذكر « مايستر سنجر » .

وتدخل الدكتور فرجا مدام فريديان أن تسمح بعزف البيانو ، لأنه لأنه يحسبها تبارض ، عند ذكر العواقب الوخيمة التي تحدثها الموسيقى لديها دائماً ، فالواقع أنه يعرف أنها مصابة بحالات هستيرية هبل لأنه جرباً على عادة الأطباء يرى تخفيف الخطر عن المريض في سبيل إنقاذ الاجتماع الساهر . وقال لها وهو يحاول السيطرة على أعصابها بتفراشه المغناطيسية :

— لن تمرضى هذه المرة . تأكدي من هذا . وإن مرضت سنعتني بك ونشفيك !

فقالت مدام فريديان بنبوة من خصها الطب بحظوة خاصة فلم يسمعها إلا الإذعان :

— أستشفي حقاً ؟

فقد اندبجت في أداء « المشهد الصغير » حتى أحست بصدق أنها عليلية ، والعليلات يحببن أن يعتقدن أحياناً أنهن يستعلن عمل كل شيء مجتمع هن ، حتى ولو تعرضن لتوابات العلة بعد ذلك : بشرط

أن يضعن أنفسهن بين يدي « سلطة عليا » تستطيع وتريد بكلمة واحدة أو بابتلاع حبة دواء أن تقيمهن من فراش المرض . وكانت أوديت قد ذهبت فجلست على أريكة فوقها طنافس مطرزة قرب البيانو ، قائلة لمدام فرديران :
— ها أنا أحثل ركني الصغير الخاص . أليس كذلك ؟
وأبصرت مدام فرديران مسيو سوان يجلس بمفرده على كرسي ، فاستنفضته قائلة :

— أنت لست مستريحاً تماماً هناك . اذهب واجلس بجوار أوديت . أفسحي له يا أوديت .
ووقف سوان يتأمل تطريز الأريكة قبل أن يجلس عليها ، مجاملة لربة الدار :

— ما أجمل هذه « اليوفيه » iBvaesus :

فأجابته مدام فرديران :

— يسعدني أن تقدر أريكتي . وأندرك بأنك إن حاولت رؤية مثيلة لها أن تنزع هذه المحاولة من رأسك . فإعادوا يصنعون مثلها الآن . وهذه الكراسي الصغيرة تحف نادرة هي الأخرى . ولونظرت إلى الرموز المتشكلة في النقوش النحاسية لوجدت كل رمز منها يشير إلى موضوع التطريز الذي يكسو المقعد . وهكذا يجمع المرء بين متعة الثقافة الفنية عند النظر إليها قبل الجلوس عليها . والنظر إلى تصميم الحواف وما عليها من رسوم ملونة : وإلى شجرة الكرم فوق هذه



ووقف سوان يتأمل تطريز الأريكة قبل أن يجلس عليها ، مجاملة لربة الدار .

الأرضية الحمراء مثلاً . أفلا تشعر بأن لعابك يجري وأنت ترى هذه الكومة ؟ إن زوجي يظن أني غير مغرمة بالفواكه ، لأنني آكل منها أقل مما يأكل هو ، ولكن هذا غير صحيح إطلاقاً ، بل أنا أشد نهماً إليها من أي واحد منكم ، ولكن لا حاجة بي للماء في بها ما دمت أستطيع أن آكل منها بعيني حتى أشبع ! ما الذي يضحكون منه الآن جميعاً ؟ اسألوا الدكتور يقل لكم إن هذا العذب يقوم عندى بدور الملمين الشديد القاعية . وبعض الناس يذهبون إلى فنتنبلو Fontainebleau للاستشفاء ، أما أنا فأستعمل تطريز « بوفيه » للاستشفاء ها هنا ! وعلى فكرة يا مسيو سوان ، ينبغي أن تتلمس النقوش المصبوبة من التحاس على ظهور الكراسي . أليس ملمسها بديعاً ؟ لا . لا . ليس براحة يدك كلها . بل تتلمسها كما ينبغي ! بأطراف الأنامل ! فقال الرسام :

— إن شرعت مدام فرديران في الانشغال بنقوشها البرنزية ، فلن نحظى في ليلتنا بأى موسيقى ! فاستطردت :

— حسباً أيها التعس ! ولا تنس أننا نحن النساء محرومات من ملذات كثيرة أخرى . ولكن ما من لحم بشري أشد ملازمة من هذه اللوحات المعدنية . وعندما شرفنى المسيو فرديران بغيرته الجنونية .. اسكت يا زوجي وكن مؤدباً على الأقل وتذكر أنك لم تشعر قط بالغيرة !

— ولكني يا عزيزتي لم أفصح في . أنا أستشهد بك يا دكتور ؟ هل تفوهت بشيء ؟ وكان سوان — بدافع المحاملة المهذبة — قد بدأ يتلمس بأنامله ذلك البرنز ، فقالت له :

— هيا الآن . داعبه فيما بعد . أما الآن فسوف تداعب أذنك الأنغام . وستحب هذا . وهاله السيد الشاب الذى سيقوم بهذه المهمة السامية .

وبعد أن قام الموسيقى الشاب بالعزف ، شعر سوان وأظهر مزيداً من الاهتمام به أكثر من اهتمامه بسائر الحاضرين ، للسبب التالى : ففي السنة الماضية ، أثناء حفلة ساهرة ، كان قد سمع مقطوعة موسيقية معزوفة على البيانو والفيولينة . وفى البداية قدر مادة الأصوات الصادرة عن هاتين الآلتين فحسب ، فقد كانت مصدر متعة فائقة له ، ولا سيما حينما أخذت أنغام الفيولينة الرقيقة تتصاعد فإذا به يحس من تحتها فجأة بأنغام البيانو المتناغمة المتعددة الألوان ، كأنها جيشان البحر الأزرق العميق الذى يرقشه ضوء القمر ... ثم فجأة ، من غير أن يدري كيف حدث هذا ، فاحت الأنغام بعير الورد الذى عطر هواء المساء الندى ، حتى فقم الخياشيم . ولعل جهله بالموسيقى هو الذى جعله يتلقى هذا الانطباع التصورى الغامض . وهو انطباع شفاف لا مادى ... وهكذا ما كادت تخفت الأنغام وتلاشى حتى كانت ذاكرته

قد وعت تأثيراتها الخلوية ، التي ترامت أمام عينيه وأحس أبعادها ورهافتها التي لم يكن يحلم بها قبل سماع هذه الأنغام . ولن تتخذ لديه هذه المتعة إلا عن طريقها ، فتثير لديه هذه الرغبة وتلك الأشواق الغريبة . وأحس كأنه رجل جلبت امرأة عابرة في لمح البصر إلى حياته صورة جديدة من الجمال ، ضاعفت ووسعت قوة إدراكه للجمال ، من غير أن يعرف هل سيتاح له أن يرى هذه الساحرة مرة أخرى أم لا ، ولكنه يعلم أنه عشقها بكل جوارحه ، وإن كان لا يعرف عنها شيئاً ، حتى ولا اسمها .

وظل شغف سوان بهذه المقطوعة الموسيقية على مدى عسدة شهور يبث في حياته إمكان تجديد شيا به . ومنذ ذلك الحين كفف عن توجيه مساره إلى أى هدف مثالي ، واكتفى بالاستمتاع العابري السطحي ، معتقداً أنه سيظل على هذا الحال إلى أن يموت ، من غير أن يتسنى لأى شيء أن يغير منه . بل إنه منذ كفف عقله عن الانشغال بمثل عليا ، لم يعد يؤمن (وإن لم يصرح بذلك علناً) بوجودها . وتعود أن يجد ملاذه في الخطاطر السطحية التافهة ، التي أتاحت له أن ينمي جانباً الأمور ذات الأهمية الجوهرية . وكما كفف عن سؤال نفسه أليس خيراً له أن ينقطع عن غشيان المجتمع ، مدركاً أنه ما دام قد قبل دعوة ما فلا بد له من تلبيةها ، ثم عليه إن لم يقم بعد ذلك بالزيارة ، أن يترك على الأقل بطاقته لربة الدار ، كذلك حرص في أحاديثه ألا يعبر عن أى رأى شخصي بحرارة في صدد أى شيء ، بل يكتفي

بدلاً من هذا بالإدلاء بالحقائق والتفصيلات التي لها قيمة في حشد ذاتها ، وتغنيه من الكشف عن مدى ما يعرفه ويراه من آراء . ولذا كنت تجدده دقيقاً في الوصف التفصيلي لطبخة معينة ، كدقته في تحديد تاريخ ميلاد و وفاة رسام وعناوين أعماله . ولكنه في بعض الأحيان قد يمتضى برغمه إلى حد التصريح بانتقاد لعمل فني ، أو نقد فهم شخص ما للحياة ، ولكنه في هذه الحالة يغلف ألفاظه بالسخرية ، وكأنه لا يؤيد شخصياً الرأى الذي يصرح به . ولكن ها هو تحت تأثير تلك المعزوفة الموسيقية أشبه بالمريض الذي تغيرت حالته فجأة وكأنه شق من علته العضوية تلقائياً وبلا مقدمات ، وقرر أن يعيش الحياة بنمط مختلف تماماً ، وكأنما انبث فيه روح قضت على جذب روحه ، فأحس من جديد رغبة جارفة في تخصيص حياته لهدف سام . إلا أنه لم يحاول قط أن يعرف من صاحب هذا العمل الذي سمعه يعرف ذلك المساء ، ولم يستطع الحصول على نسخة منه ، وكف في النهاية عن التتصى . والواقع أنه في غضون الأيام القليلة التالية لذلك الاستماع الأول المعجز قابل عدة أشخاص ممن كانوا معه في تلك السهرة وسألهم ، ولكن معظمهم كانوا إما وصلوا بعد انتهاء العزف أو انصرفوا قبله . وكان بعضهم في ذلك البيت أثناء العزف ، إلا أنهم كانوا في حجرات أخرى للتحدث . ومن استمعوا للحن لم يكن لديهم انطباع أوضح من الباقين ، أما صاحب الدار فكل علمهما أن المعزوفة حديثة عهد بالنشر ، وأن الموسيقيين الذين

استأجرهم طلبوا السماح لهم بعزفها . ولما كانت هذه الفرقة تقوم الآن بجولة في الأقاليم ، لذا لم يتمكن سوان من معرفة المزيد عن اللحن . ولسوان بالطبع أصدقاء كثيرون من المهتمين بالموسيقى ، إلا أنه برغم شدة انطباعه الشعوري بالصور التي أثارها فيه اللحن ، إلا أنه عجز عن الدندنة لم بقطعة منه كي يعرفه باسمه أو مؤلفه . وهكذا كسف آخر الأمر عن التفكير فيه .

أما الليلة ، في بيت مدام فرديران ، فما كاد الموسيقى الشاب يبدأ العزف ، حتى فطن سوان إلى أن معزوفته الغاتنة في الطريق إليه ، من تحت غلاثل الأنعام الأولى ، وتوشك أن تغمره بعيرها السحري الذى هام به حباً ، وكانت هي معزوفته الحبيبة فعلاً ، بفتنتها المنفردة التي لا يمكن أن يكون لها بديل . فأحس سوان كما لو كان التقى في قاعة استقبال صديق له بامرأة كان قد رآها من قبل وأعجب بها ذات مرة في الطريق ، وبئس من رؤيته إياها مرة أخرى ... وانسابت الأنعام تغمر بعطرها أنف سوان وتطبع على محياه ابتسامتها : ولكنه الآن - على الأقل - يستطيع أن يسأل عن اسم هذه الحسناء المجهولة ، فتبيل له إنها حركة « الأندانت » من سوناتة « فانتى » Vinteuil للبيانو والقيولينة . وهكذا اطمأن إلى أنه صار يعرف مستقرها ، وسيكون في وسعه أن يسميها مرة أخرى ، ويلرس في داره لغتها ويدرك كنه سرها .

وهكذا عندما انتهى العازف من عزفه عبر سوان الحجرة وشكر بحرارة سرت جداً مدام فرديران ، التي سألت سوان :
- أليست ساحرة ؟ أليس فهمه لهذه السوناتة مدهشاً ؟ لا أظنك كنت تتوقع أن يتمكن البيانو وحده من أدائها بالكامل (بدون فيولينة) . وإيم الله إن فيها كل شيء ما عدا البيانو ! إنى أقع ضحيتها في كل مرة أسمعها . وإخائي أصغى لأوركسترا . إلا أن هذا العزف أفضل في الواقع من أداء الأوركسترا ، وأأكل منه .

وانحنى فوقها عازف البيانو الشاب وهو يجيب باسمًا وضاعطاً على كل كلمة من كلماته كأنه يتعلق بحكمة فريدة :

- أنت في غاية الكرم من نحوى !

وبينا كانت مدام فرديران تقول لزوجها :

- إجر وأحضر له كوباً من عصير البرتقال ، فقد استحقه

عن جدارة !

راح سوان يخبر أوديت كيف وقع في غرام تلك الجملة الموسيقية المعينة . وعندما صاحت مضيقها التي كانت على مسافة منها قائلة :
- يبدو لي أن « بعضهم » كان يقول أشياء لطيفة لك يا أوديت .
أجابها :

- نعم . أشياء لطيفة جداً .

فوجد سوان بساطتها هذه رائعة . وعندئذ طلب بعض المعلومات

عن « فانتى » هذا ، وماذا أبدع غير هذه القطعة . وفي أى فترة

من حياته ألف هذه السوناتة . وأى معنى تمثله لديه هذه الجملة ؟
فذلك ما كان سوان يريد أن يعرفه .

ولكن ما من أحد من أولئك ممن زعموا أنهم معجبون بهذا
الموسيقار (فعندما قال سوان : إن السوناتة بديعة فعلا ، صاحت
مدام فرديران « أعتقد هذا ! بديعة فعلا ! ولكنك لا تجرؤ أن تقول
إنك تجهل سوناتة فاتنى . فليس من حقلك ألا تعرفها ! » وقال
الرسام : « آه . نعم ! إنها قطعة بديعة جداً . أليس كذلك ؟ فهى من
النوع الذى لا يؤثر فى عامة الناس ولكنها بالغة الأثر فىنا نحن
الفنانين ! ») .. ما من أحد سأل نفسه تلك الأسئلة فيما يبدو ، لأنه
ما من أحد منهم استطاع أن يجيب سوان عنها .

بل على أثر ملاحظة خاصة من سوان عن هذه الجملة الموسيقية
المعينة علقت مدام فرديران بقولها :

— ما أغرب هذا ! أنا لم ألاحظها قط . فأنا لست ممن يحبون
التدقيق فى تفاصيل الأشياء من خلال الميكروسكوب .. كلا ! نحن
لا نعى أنفسنا بالتدقيق الشديد فى هذا البيت . وقد تقول « ولم لا ؟ »
فأجيب إنها ليست عادتنا ، وهذا كل ما هناك .

قالت هذا ، بينما الدكتور كوتار يحدق فيها بإعجاب وهو فاغر
القم ، ويتعقب ثقفلها بين عباراتها المسكوكة التى تريد بها الإبهار .
فالدكتور وقرينته — كما هوشأن الأزواج ذوى المنبت المتواضع —
حريصان على عدم إبداء رأى أو النفاظر بالإعجاب بمعزوفة يقول

كل منهما للآخر عندما يتفردان فى بيتهما إنيهما لم يفهماها ،
ولا يفهما من الأستاذ بيش بعامة . فهما مثل سائر السوقة ، ليس
لديهما الحساسية المتفردة التى تقدر الأصالة الفنية ، سواء فى سوناتة
« فاتنى » أو لوحات بيش ، لأن هذه وتلك لا تمثل لديهما التناغم
الواضح فى الموسيقى أو الجلال السطحي فى الرسم . فكان يخلل إليهما
والموسيقى يعزف السوناتة أنه يضرب مفاتيح البيانو خيط عشواء
بلبل بحيث تخرج أنغام لا صلة فيها بينها وبين الأشكال
الموسيقية التى يعهدانها . كما يعتقدان أن الرسام بيش يلطخ اللوحة
بالألوان حيثما اتفق . وإذا اتفق لما أن تبينا فى إحدى لوحات بيش
شكلا بشرياً ظنا الرسام جاهلا بتشريح أعضاء الجسم ، كتركيب
الكف مثلا ، أو أن شعر المرأة ليس فى العادة قرمزى اللون !

ومع هذا ، عندما تفرق « الخلصاء » بعيداً عن مرمى الأذن ،
انتبه الدكتور كوتار هذه الفرصة ليقرب من مدام فرديران وهى
تننى بعبارة أخيرة على سوناتة « فاتنى » ، وبلهجة من يلقى بنفسه فى
الماء للسباحة على ملا من الناس ، قال فى عزم :

— نعم ! الحقيقة أنه موسيقار من الطراز الأول :

ولم يستطع سوان أن يكتشف ما هو أكثر من أن آخر طبعة من
سوناتة فاتنى أثارت اهتماماً كبيراً بين أشد الموسيقيين تقدماً ، ولكنها
لم تزل مجهولة لدى الجمهور العام . فقال سوان عندئذ ، وهو يفكر

في معلم الموسيقى المسن بكبريى الذى كان قد تولى تعليم أخوات جلدتى :

— أنا أعرف شخصاً يسمى فانتى معرفة جيدة .

فصاحت مدام فرديران .

— لعله هو !

فانفجر سوان ضاحكاً وقال :

— أوه . كلا ! لو رأيته اللحظة واحدة لما خطر لك ذلك :

ولما سألته أهو المؤلف ؟

فقال الدكتور :

— إذن توجيه السؤال يجب أن تسبقه معرفة الحل ؟

فقال سوان مواصلاً كلامه :

— ولكن من الجائز أن يكون بعض ذوى قرباه . وهو أيضاً

مستبعد ، ولكن ما المانع أن يكون لعبرى ابن عم أبله مسن . وإن

كان الأمر هكذا فلن أحجم عن استعمال كل وسائل التعذيب إلى أن

أجعله يقدمنى للرجل الذى ألف هذه السوناتة . ولو أن الحديث إلى

هذا الأبله أول درجة من درجات العذاب لى شخصياً .

والمح الرسام أن فانتى مريض فى هذه الأيام ، وأن الدكتور

بوتان Potain يائس من حياته .

فصاحت مدام فرديران :

— ماذا ؟ ألم يزل أحد من الناس يستدعى بوتان لعيادته ؟

فتكلف الدكتور كوتار الابتسام وقال :

— آه يا مدام فرديران ! إنك تنسين أنك تتحدثين عن أحد

زملائى ، بل ينبغى أن أقول عن أحد أساتذتى .

وكان الرسام قد سمع فى مكان ما أن فانتى مهدد بفقد عقله :

وأصر على أن بعض بوادر هذا الاختلال تلوح فى بعض مواضع

سوناته . ولم يدهش سوان لسبب هذه الملاحظة ، ولكنه تحير ، لأن

الموسيقى ليست كلغة الكتابة المترابطة منطقياً . ولذا فى نظره يكون

القول باضطراب فى الترابط الفكرى لسوناته أشبه بالقول بمنسون

كلب أو حصان . وإن لوحظت حالات جنون فى الكلاب والخيل :

وقالت مدام فرديران للدكتور كوتار بلهجة المرأة التى لديها

شجاعة معتداتها ، ومستعدة للوقوف فى وجه أى شخص يخالفها

فى رأى :

— لا تحدثنى عن أساتذتك . أنت تعرف عشرة أضعاف

ما يعرفه ! وأنت على الأقل لا تقتل مرضاك !

فابتسم الدكتور بسخرية مرة :

— ولكنه عضو فى الأكاديمية يا سيدتى . وإذا فضل مريض أن

يموت على يد أحد أمراء العلم ... فن الوجاهة بمكان أن يقول :

« نعم . بوتان يعالجنى » !

فقال مدام فرديران :

— أددى للوجاهة . هه ؟ هناك هذه الأيام إذن موضات فى

الأمراض ؟ لم أكن أعرف هذا . آه ! كم تضحكني ! (وأنخفت وجهها بيديها) وها أنا كنت أتكلم بكل الجدة ، ولم أفطن إلى أنك تهرري !

أما المسيو فرديران فوجد استئناف الضحك الآن عبثاً باهظاً بمناسبة شيء تافه كهذا ، فاكثني بإطلاق حلقة من دخان غليونه ، وهو يفكر بأسى في عجزه بعد الآن عن مجاراة زوجته في مرحها :

* * *

وعندما كانت أوديت تاني تحية المساء وهي منصرفة ، قالت لها مدام فرديران :

— لقد أحببتنا صديقك كثيراً . فهو غير متكلف ، ولطيف جذاب . وإذا كان كل أصحابك الذين تريدن إحضارهم إلى هنا على شاكلته ، هاتهم بأى شكل .

ولاحظ مسيو فرديران أن سوان فُشل على كل حال في تقدير عمة الموسيقى حق قدرها . فقالت مدام فرديران مدافعة عنه :

— أعتقد أنه أحسن الغرابية والرهبة . فلا أظنك تتوقع أن يفلن إلى روح البيت لأول وهلة ، كما يفلن إليها كوتار مثلاً ، الذى ينمى لعشيرة ثنا الصغيرة منذ سنوات . إن المرة الأولى لا تحسب ، فهي مستوعبة في مجرد النظر والاستكشاف . أحسبه يا أوديت أدرك أنه سينضم إلينا غداً في شاتليه Chatelet . ولعل الأفضل أن تمرى عليه كى تحضره معك .

— كلا ! إنه لا يريد منى هذا .

— لكن ، كما تشائين . بشرط ألا نخذلنا في آخر لحظة .

وما كان أعظم دهشة مدام فرديران من أنه لم يخذلهم قط ، بل كان ينضم إليهم حينما كانوا ، في مطاعم خارج باريس (ولأن لم يذهبوا إلى هناك كثيراً في البداية ، لأن الموسم لم يكن قد بدا بعد) وكثيراً ما انضم إليهم في المسارح التى كانت مدام فرديران مغرمة بها . وذات مساء بينما هم يتعشون في البيت ، سمعها سوان تشكو من أنها غير حائزة لتصريح يعفيها من مشاق الانتظار على الأبواب ، والوقوف في الزحام ، وقالت : إن مثل هذا التصريح لا شك مفيد لم جداً في ليالى الافتتاح ، وعروض الأوبرا ، وكم أسفت لعدم حيازتها لهذا التصريح في يوم جنازة جيمينا Gambetta . وكان سوان لا يتحدث أبداً عن أصدقائه المرموقين . ولكنه رغم ألفته وتردده على حى سان جيرمان (الذى يقطنه المليون) ، إلا أنه يعرف معرفة وثيقة كل كبار الرسميين في الجمهورية الثالثة ، وهكذا اندفع قائلاً بلا تفكير :

— سأتدبر هذه المسألة ، وأنا كفيل بها . وستحصلين على التصريح قبل احتفالات دانيشيف Danicheff . فسوف أتغدى مع مدير الشرطة غداً بالصدقة في الإليزيه .

قرأر وهدر كوتار بصوت كالرعد :

— ماذا قلت ؟ الإليزيه ؟

فأجابه سوان ، مستشعراً بعض الحرج :

— نعم . لدى سيو جريني Grévy .

وسأل الرسام الدكتور كوتار في جلد مصطنع .

— أمتعود أنت أن تنال منك الدهشة هكذا ؟

والقاعدة العامة ، أن الدكتور كوتار متى شرح له أحد ما أدهشه

قال :

— طيب . الأمر على ما يرام إذن .

ثم لا تظهر عليه أقل شائبة من الانفعال . ولكن كلمات سوان الأخيرة هذه المرة بدلا من تهديته كالعادة ، زادت حرارة دهشته على القور إلى درجة الغليان ، لأنه اكتشف أن رجلا هو نفسه يتعشى معه على مائدة واحدة ، وليس له منصب رسمي ، ولا لقب من أى نوع ، من بين زوار رئيس الدولة . فسأل سوان في غيابه ورجل شرطة معين لحراسة القصر حين يرى شخصا غريباً يحضر ويطلب مقابلة رئيس الجمهورية ، ثم يكتشف حقيقة الزائر المختول فيطمئنه إلى أنه سيرى الرئيس فوراً ، ويدله على الطريق إلى حجرة استقبال مستشفى شرطة القصر .

وقال له سوان :

— أنا أعرفه معرفة سطحية ، فلنا أصدقاء مشتركون (ولم يجرؤ

على أن يقول له إن أحد هؤلاء الأصدقاء المشتركين هو أمير ويلز ،

وإن عهد بريطانيا العظمى) ثم إن الرئيس شديد التوسع في دعواته ،

وأؤكد لك أن مآذب غذائه ليست بهيجة إطلاقاً ، بل هي شديدة البساطة ، ولا يزيد الضيوف على المائدة عن ثمانية .

ومضى يتوسع في التقليل من شأن اتصالاته وعلاقته برئيس الجمهورية ، في ضوء بهر عيني كوتار . وتوهم كوتار — على عادته — أن أقوال سوان صادقة حرفياً ، فاعتقد أن دعوات المسيو جريني لا يحرص عليها أو يسعى إليها أحد ، وأنها ترسل إلى كل من هب ودب . ومنذ تلك اللحظة لم يعد يدهش إذا سمع أن المسيو سوان أو أى أحد سواه « دائم التردد على الإنجليز » ، بل شعر ببعض الرثاء لمن يذهب إلى حفلات غداء ملة بهذه الصورة !

فقال الدكتور بلهجة موظف الجمارك الذى كان مرتاباً حتى هذه اللحظة ، ولكنه بعد أن سمع تفسيراتك يختم جواز سفرك ويتركك تواصل رحلتك من غير أن يعنى نفسه بتفتيش حقائبك :

— آه . عظيم عظيم . كل شيء على ما يرام إذن !

وقالت مدام فرديران التي لم تكن ترى في رئيس الجمهورية إلا سمجاً مضجراً يستحق الأزدراء بصفة خاصة ، ما دام يملك رهن إشارته وسائل الإغراء ، بل والإجبار ، التي لو استخدمت لاقتناص « خصاصها » من الممكن جداً أن يخذلواها :

— أستطيع أن أصدقك في أنك لا تجد هذه المآذب ممتعة .

والواقع أنها طيبة (تعنى تضحية) منك أن تقبل الذهاب إليها ! ويبدو

أن رئيس الجمهورية أصم ، ويأكل ليلاته بأصابه !

فرت نبرة أسي ورائاء في صوت الدكتور ، وهو يقول :

— بشرى لا بد أن ذهابك إلى هذه المآدب يشمك كثيراً ؟

ثم لفت نظره اقتصار عدد الجالسين إلى المائدة على ثمانية أشخاص ، فقال متسائلاً :

— هل هذه المآدب إذن هي ما يسمونه حفلات « خاصة

حميمة » ؟

ومهما يكن من زراية مدام فرديران وتواضع المسيو سوان في الحديث عن علاقته الحميمة برئيس الجمهورية ، إلا أن رئيس جمهورية فرنسا ظل شخصية مجيدة في نظر الدكتور كوتار ، ولذا لم يكن يجلس بعدها إلى المائدة مع آل فرديران من غير أن يسأل بلهفة :

— أظنون أننا قد نرى المسيو سوان الليلة ؟ إنه صديق شخصي

للمسيو جريفي . أظن هذا يعني أنه ما يسمونه « جنتلمان » ؟

ووصل به الأمر إلى حد تقديم بطاقة دعوة لمعرض الأسنان إلى سوان ، قائلاً له :

— هذه الدعوة تتيح لك الدخول أنت ومن معك . ولكن غير

مسموح بدخول الكلاب . وأنا أقول لك هذا لأن بعض أصدقائي لم يكونوا يعرفون هذا ، وحدثت لهم متاعب .

أما المسيو فرديران فلم يفتنه أن يلاحظ ما أصاب زوجته من

ثبوت وكآبة عندما اكتشفت أن لسوان أصدقاء من ذوى النفوذ ، لم يكن قد حدثها عنهم من قبل .

وما لم يكن هناك اتفاق على الذهاب إلى مكان آخر ، ففى بيت آل فرديران كان سوان يجد « العشيرة الصغيرة » مجتمعة . ولكنه لم يكن يحضر إلا فى الليل ، ولم يقبل قط دعوتهم لتناول العشاء ، برغم توسلات أوديت .

فاقترحت عليه أن تتعشى معه فى أى مكان آخر وحدهما ، فقال :

— ولكن ماذا عن مدام فرديران ؟

— الأمر هين . ما على إلا أن أقول : إن ثوبى لم يكن جاهزاً ،

أو إن عربى تأخرت فى الحضور إلى . هناك دائماً عذر جاهز .:

— ما أظرفك !

ولكن سوان قال لنفسه : إنه إن استطاع أن يجعل أوديت تشعر

(بقبوله الالتقاء بها بعد العشاء فقط) أن هناك مسرات أخرى يفضلها

على صحبتها ، فسوف تكون رغبته فى لقائه بعيدة عن الوصول بسهولة

إلى درجة التشجيع — يضاف إلى هذا أنه كان يفضل على طراز جمال

أوديت جمال فتاة عاملة تفضيلاً لا متناهياً ، فهي مليئة القوام ناضرة

كالوردة يحبها بشراة . ولذا يفضل أن يقضى معها الجزء الأول من

الأمسية ، وهو على يقين من تمكنه من رؤية أوديت بعد ذلك . ولعين

هذا السبب لم يسمح قط لأوديت أن تزوره فى بيته ، لتأخذه إلى

بيت آل فرديران ، وكانت الفتاة العاملة الصغيرة تنتظر — غير بعيد

من بابه - عند ناصية شارع . وكان ريمي Rémi حوزيه الخاص يعرف أين يقف ، فتتفكر الفتاة إلى جوار سوان ، وتطوقه بذراعيها إلى أن تقف العربية عند باب آل فرديران. ويدخل إلى قاعة الجلوس ، وبينما مدام فرديران تشير إلى الورد الذي أرسله إليها ذلك الصباح قائلة :
— أنا غاضبة منك !

ثم تسير معه إلى المكان المحجوز له بحوار أوديت ، يعزف الموسيقى لها لا لأحد سواهما تلك الجملة الموسيقية الصغيرة من سوناتة فانتى ، التي كانت بمثابة « السلام الوطني » لهما . ويشعر سوان كم هي باطلة وجوفاء تلك السعادة التي تشير إليها تلك الأنغام ، فقي باطنها شعور يخفى بالإحباط تبينه سوان مع تكرار العزف والسماع . ولكن ذلك لم يكن ذا بال في نظره ... فللسونات قيمتها الذاتية بصرف النظر عنه وعن أوديت وعن أى أشخاص معينين . وتخل عن فكرة استئجار موسيقيين محترفين لعزفها له في بيته بمفرده ، مع أنه لم يزل علمه بها منحصراً في تلك الجملة ، بعد أن قالت له أوديت :

— لماذا تريد بقيتها ؟ كل ما نحتاج إليه منها هو هذا الجزء الخاص بنا .

وقد يحدث أن يكون قد بقي في الخارج مدة أطول من المعتاد مع فساتين الصغيرة ، قبل التوجه إلى بيت آل فرديران ، حتى أنه بمجرد أن يعزف الموسيقى الجملة القصيرة ، يكتشف سوان أن الوقت

حان كي تعود أوديت إلى بيتها . وكان من عادته أن يأخذها في عربته حتى باب بيتها الصغير في شارع لا بيروز La Pérouse ، وراء قوس النصر . ولعل هذا هو السبب - لكي لا يطلب احتكار الخطوة بها - في تضعيته بمنعة رؤيتها في وقت مبكر من المساء (وهي منعة ليست جوهرية لديه) أو الذهاب معها إلى بيت آل فرديران ، وفي مقابل ذلك يستمتع بمغادرتها هذا البيت معاً ، وهو امتياز قابلته بالعرفان ، وصار هو يقدره تقديراً متزايداً ، لأنه ضمن بذلك أن أحداً غيره لن يراها بعد ذلك ، ولن يمنعه أحد من البقاء معها بروحه ، بعد أن فارقتها لقضاء الليل .

وهكذا ، ليلة في إثر ليلة ، بعد أن تنزل يقف هو عند البوابة ويغمغم :

— إلى الغد إذن !

فتشيع عنه في عصبية واندفاع ، وتقطف زهرة كرويز تيموم من الحديقة الصغيرة التي تحف بالممر المفضي من الشارع إلى بيتها ، وبينما هو عائد إلى عربته تدسها في يده . فيضمها إلى شفثيه طلول طريقه إلى بيته ، وعندما تذبل هذه الزهرة يدخرها كأنما هي شيء ثمين جداً ، في درج سري بمكتبه .

ومن عادته أن يرافقها إلى بوابة بيتها لا أكثر . ولم يدخل بيتها ثم مرتين لتناول شاي بعد الظهر (وهو من الشعائر التي تهتم بها جداً في حياتها) . والواقع أن عزلة وإقفار هذه الشوارع القصيرة (التي

تتكون غالباً من بيوت منخفضة السقوف ، مستقلة ولكنها غير منفصلة ، متشابهة رتيبة لا يقطع رتابتها إلا حانات صغير كنيب بين الحين والحين ، هو بقية أثرية من العهد الذي كانت فيه هذه المنطقة سيئة السمعة (وسط بقايا الثلج العالق بالأشجار وأحواض الخدائق ، كل ذلك كان يضيئ عنصرأ من الغموض على الدفء والأزهار والرفاهة التي وجدها داخل بيتها .

وكان الطابق الأرضي لبنت أوديت مرتفعاً عن مستوى الشارع من الجهة اليسرى ، ومخدع أوديت يطل على خلفية البيت ، أى على شارع صغير آخر مواز للشارع الأمامي ، الذي به باب بيتها . وعند الدخول ارتقى سلماً محصوراً بين جدارين قائمي الطلاء ، مزينين بطنافس شرقية ، ومسابيح تركية ، وفانوس ياباني ضخم مدلى من السقف يحيل من الحرير (والفانوس مضاء بالغاز لكي لا يشكو زوارها من الافتقار إلى آخر وسائل المدنية الغربية) ويفضي هذا السلم الداخلي مباشرة إلى حجرتي الاستقبال ، الكبيرة والصغيرة ، ولها مدخل صغير مزخرف يقوم مقام صوبة الحديقة الشتوية ، وأهم ما به صف من أزهار الكريز نغم الكبيرة ، التي كان حجمها يومئذ بعد ظاهرة جديدة ، وإن كان المستنبتون قد استنبطوا حجماً عملاقاً من هذه الزهور بعد ذلك . وكان سوان يضيق بمنظر هذه الأزهار هناك ، التي كانت في تلك السنة « الموضة » الجارفة في باريس :

وكانت أوديت قد استقبلته في ثوب للشاي من الحرير الوردي



ومن عادته أن يرافقتها الى بوابة بيتها لا أكثر ، ولم يدخل بيتها الا مرتين لتناول شاي بعد الظهر .

يكشف عن عنقها وذراعيها . وأجلسته بجوارها في ركن من أركان الحجر الكبيرة ، تظلل أوراق النخيل النابت في أصص من الخرف الصيني ، وتحيط به سنائر ثبتت فوقها صور فوتوغرافية لمراوخ وأنشوطات . وقالت على الفور :

— لست أراك مستريحاً هناك . انتظر لحظة . سأرتب لك كل شيء :

ودغدغت حلقها ضحكة تليق عن أنها ستقدم له ابتكاراً خاصاً بها ، ثم وضعت خلف رأسه وتحت قدميه وسائل ضخمة من الحرير الياباني ، غير مبالية بشمها الفادح . ولكن عندما جاء خادمها إلى الحجر حاملاً على التعاقب المصابيح التي لا تحصى (داخل أصص من الصيني) التي أضيئت أزواجاً أو فرادى فوق قطع الأثاث المختلفة وكأنها مذابيح مقدسة ، فبددت عتمة ما بعد الظهر المبكرة في أوائل الشتاء . وكانت عنها تراقب حركات الخادم ، شاعرة أن أي خطأ في وضع أي ضوء في غير مكانه المناسب سوف يفسد كل شيء ... ولا سيما أنها حريصة على سقوط الضوء على صورتها الزيتية القائمة على حامل مكسو بالقطيفة . وهكذا جعلت تتابع حركات الخادم ، وتؤنبه بقسوة عند أي خطأ ، أو أي احتكاك بأصص الأزهار ، وتنهض لتأكد من سلامة كل زهرة . فهي تجد سحرًا خاصاً لكل حلية من تحفها الصينية ، وفي أزهار الأركيد بصفة خاصة (فهي الأثيرة لديها إلى جانب الكريز تيم) لأنها ذات منظر منفرد ، وكأنها

مصنوعة من الحرير أو الساتان . وقالت لسوان وهي تشير إلى الأركيد برة لإجلال :

— إنها تبدو كما لو كانت مقصورة من بطانة نوبي . وكأنها ترى في هذه الزهرة اختاراً رائعة ممتازة لها منحها إياها الطبيعة ، على تباعد رتبتهما في الوجود ، إلا أنها أجدر لرعايتها من نساء كثيرات بالدخول إلى قاعة استقبالها . وعندما لفتت نظره إلى التناين ذات الألوان النارية المرسومة فوق إناء ، ثم إلى باقة من الأركيد ، ثم إلى تحفة من الفضة المطعمة ذات أعين ياقوتية ، كانت قائمة على رف موقدها ، تظاهرت بالإجفال من هذه الوحوش الخرافية ، ثم ضحكت من سخافتها ، وراحت تداعب تماثيل لضفدع وجمل مصنوعين من الخشب وتقبلهما في دلال وخفة . وهي خفة تناقض إجلالها لتتال عذراء لاجيتو Laghetto التي شفتها ذات مرة من مرضها العضال عندما كانت مقيمة في نيس Nice ، وراحت تنسب لها كرامات لا أحد لها .

وتولت بنفسها صب الشاي لسوان وسألته :

— ليمون أم قشدة ؟

ولما أجابها باسمًا :

— قشدة من فضلك . مقدار بسيط جداً .

ثم أثنى على دقتها الممتازة في وضع المقدار المناسب من القشدة ، فقالت :

— ها أنت ترى أى أعرف كيف تحب شايك أن يكون .

وبدا لها هذا الشاى — مثلما بدا لسوان — شيئاً ثميناً . والحب محتاج إلى التماس ما يبرره ، وما يضمن استمراره فى ملذات ، لولا الحب نفسه لما كان لها وجود ، وتنقضى بانقضائه . وهكذا عندما غادرها فى الساعة السابعة ليذهب ويرتدى ثياب المساء ، ظل طوال الطريق إلى بيته جالساً منتصباً فى عربته ، عاجزاً عن كبح السعادة التى ملأته بها مغامرة ما بعد الظهور ، وظل يكرر لنفسه :

— يا لها من متعة أن يكون لدى المرء امرأة صغيرة كهذه فى مكان يمكن للمرء أن يكون على يقين من حظوته بما لا يضمن وجوده فى مكان آخر ، وهو فئجان من الشاى المثلن .

وبعد ساعة أو نحوها تلقى رقعة من أدويت ، وعرف على الفور خطتها المزخرف الذى يحمل آثار تعمد خطوط الإنجليز . ولعل صاحب فراسة كان قتيماً أن يجد فيه ما يدل على نقص فى التعليم ، ونقص فى الصدق والإخلاص والحسم ، وكان سوان قد نسى علبة سبائره فى بيتها ، فكتبت إليه تقول :

— لماذا يربك لم تترك هنا قلبك أيضاً ؟ عندئذ ما كنت لأعيدك إليك !

ولعل الزيارة التالية — بعد الأولى بقليل — كانت أهم . ففى طريقه إلى بيتها راح يكون صورة لها فى ذهنه . وحاول أن يركز

انتباهه على عظمى وجنتها الناضرتين الورديتين ، التماساً لمواطن الجمال فيها ، وغض خياله عن تصور بقية خديها الشاحبين غالباً . إلا إذا غطتهما البقع القائمة أحياناً ، فيمتلىء فؤاده أسى لأن سعادة البشر ناقصة دائماً . وكان يحمل لها معه لوحة تحت طليته أن تراها ؛ ولم تكن على ما يرام فى ذلك اليوم ، فاستقبلته فى دثار من الكريب دى شين النفسجى المطرذ بغزارة . ولما وقفت بجواره ودغدغت خده غداً شعرها المناسبة ، وحنث إحدى ركبتيها لكى تميل لترى الصورة بدون عناء ، وراحت تحديق فيها بعينها الكبيرتين اللتين تبدوان مكدودتين غائرتين عندما لا يوجد ما يثبت فيها الحيوية . عندئذ أدهش سوان أن يلاحظ وجه الشبه بينها وبين زبورا Zipporah ابنة جثرو Jothro ، التى يمكن مشاهدتها فى إحدى لوحات الفريسكو بكنيسة سكستين Sixtine : وكان يجد دائماً متعة خاصة فى تعقب أوجه الشبه بين رسوم الأساتذة الأقدمين وبين الملامح الفردية للرجال والنساء الذين يعرفهم . مثلما رأى مثلاً وجه شبه بين التمثال النصني للدوج لوريدان Loredan من عمل أنتونيو ريزو A. Rizzo من حيث عظام الخد البارزة ، والحاجبين المائلين (وباختصار رأى شياً ناطقاً بين تمثال الدوج) وبين حوزيه ريمى Ghirlandaio وفى أعمال أخرى التقط الشبه بين صورة لجيرلنداىو Palancy ، وبين لوحة لتنتوديتو Tintoretto من حيث الأنف والنظرة النفاذة والأهداب المتوردة

وبين الدكتور دى بوبلون Boublon . ولعل هذا الاهتمام فيه تكفير عن غرط اهتمامه بالمجتمع على حساب الانغماس فى العناية بالفن : ولعله أيضاً احتفظ فى أعماقه باهتمام خاص بالفن الرفيع بحيث يجد لذة أصيلة فى مراقبة تلك التشابهات فى ملامح من يعرفهم : ومن هذا القبيل ما أدهشه من تشابه بين أوديت وبين « زبورا » من صنع أليستندرو دى مريانو A. de Mariano بحيث صار إحساسه بملامح أوديت أقرب إلى الإحساس بأنها لوحة فنية تمثلها .

ووقف يحدق فيها ، فإذا بقايا من لوحة الفريسكو تلك ظاهرة فى وجهها وفى أطرافها ، وصار فيما بعد كثيراً ما يحاول أن يتأملها بلا توقف ، وهو مع أوديت أو حين يفكر فيها وهى غائبة عنه : وبرغم أن إعجابه بهذه الرائعة الفلورنسية ، ربما كان راجعاً إلى أن أوديت تماثلها ، إلا أن هذا زاد من قيمة جمال أوديت عنده وجعلها آثمن فى نظره : وصار سوان يؤنب نفسه منذ ذلك الوقت على تقصيره فى تقدير جمال مخلوقة كان ساندررو العظيم خليقاً أن يعيدها ، وعد نفسه مجدوداً لأن متعته فى تأمل أوديت صار لها مبرر من عقيدته الفنية . وقال لنفسه : إنه باختياره فكرة أوديت ملهمة لأحلامه بالسعادة المثلئ ، لم يكن ينحط بمستواه - كما كان يظن حتى تلك اللحظة - ما دامت تنطوى على ما يشبع أرقهف أذواقه الفنية :: وفاته أن يلاحظ أن هذه الصفة فى أوديت لا تجعلها فى عداد النساء اللواتى يشتهين ، لأن رغباته واشتهاءاته كانت تجرى دائماً فى اتجاه مضاد

لذوقه الفنى . فكلمتا « الفن الفلورنسى » أتاحتا له لقباً شريعياً يتخلعه على صورة أوديت بحيث يدخلها إلى عالم الأحلام والأوهام الذى كانت حتى ذلك الحين محرومة من الدخول إليه : وفى هذا الإطار اكتسبت شكلاً جديداً ثيلاً . وفى حين كان مجرد النظر إليها بلحمها ودمها يؤثر خيبة أملة فى مجموع معيها وقامتها وجمالها كله بحيث تبرد حرارة حبه ، إلا أن هذا القصور فى جمالها لم يلبث أن انخرق أمام استطاعته تقديرها على أساس متين من مبادئه الفنية لا من شهوته . وإذا بالقبلة أو الضمة التى كان يتخلها لا تثير دمه ، وقد صارت تنويعاً لعبادته لرائعة فنية ، فهى ممتعة لذيدة بقدر ما هى خسارعة للطبيعة .

وعندما خامره الندم لأنه فى الشهور الماضية لم يصنع شيئاً اللهم إلا زيارة أوديت جعل يؤكد لنفسه أنه لم يضيع وقته هباء حين خصص معظمه للدراسة عمل فنى لا يقدر بمال ، وقد صب معدن جديد مختلف ومن نوع خاص فى صخره . لدراسة نموذج لا يضارع يتأمله حيناً بروح وعقل الفنان المتواضع التزيه ، وفى حين آخر يزهو وأنانية ونشوة المقتنى الشهوانى :

وعلى مكتبته - حيث يعمل - وضع صورة منقولة عن لوحة ابنة جثرو ، وكأنها صورة أوديت ، وينظر بإعجاب إلى العينين الكبيرتين ، والملامح الرقيقة ، ونخصلات شعرها اليبيدة التى تنسدل على خديها المكشودتين ، ثم يلصق شعره نحو هذا الجمال الفنى بفكرة

امرأة حية ، ويتخيل لها مزايا جسدية بارعة ، ويهين نفسه على اجتماعها في شخص من سوف يملكها في نهاية المطاف ... وعندما يكون قد قضى وقتاً طويلاً وهو يحلق في عمل بوتيتشيلي Botticelli يخيل إليه أن عمله حتى في أوديت ، فيزداد تقديره لملاحظتها ، وعندما يدنى منه صورة زيورا يخال أنه إنما يضم أوديت نفسها إلى قلبه :

ومع تكرر فرص التلاقى كل ليلة ، لم يعد لدى أوديت جديد تقول له ، ولذا خشى أن يتسبب هذا المسلك - بعد المعاشرة - في تخريب أمله في علاقة رومانسية . مع أنه لن يقدو عشيقها ، ولن يظل عشيقها إلا إذا اعترفت بهواها المتقد له . ولكنها تبدو الآن هادئة هاملة المشاعر في رتبة تقلقه . ولذا كتب إليها خطاباً حرص على أن يصلها قبل وقت العشاء . وكان يعلم أنها سترتاح ، وسترد عليه : وكان يأمل أن يستثير خوفها من فقدائه مشاعرهما الرصينة الهامدة ، فتخط إليه كلمات لم يسمعها من قبل تخرج من فيها . وكان مصيباً : فبهذه الحالة حصل منها على خطابات الملتية . وأحد هذه الخطابات (وكانت قد أرسلته إليه ظهراً مع رسول خاص من الميزون دوريه Maison Dorée في يوم الحفلة المقامة بباريس لصالح ضحايا الفيضانات الأخيرة في ميرسيا Murcia) وقد بدأت بقولها : « يا عزيزى . إن يدى ترتجف حتى لأكاد أعجز عن الكتابة ... » وقد احتفظ بهذه الرسائل في نفس الدرج الذى به أزهار الكريز نعيم

الذابلة . أما إن لم يتسع أمامها الوقت للكتابة ، فبمجرد دخوله صالون آل فرديران كانت تجرى إليه قائلة :

— عتدى شئ أقوله لك !

وينظر بفضول إلى حيائها الذى يعبر عن مضمون كلماتها التى ظلت تخفيها عنه في قلبها . بل إنه وهو يقترب من باب آل فرديران ويرى مساحات الضوء الذى ترسله المصابيح من نوافذ قاعة الاستقبال التى لم تكن مصاريحها الخشبية تقفل مطلقاً ، كان يتأهب الشوق والحنين إلى المخلوقة الفاتنة التى سيراهها عند دخوله القاعة رافقة في هذا الضوء الذهبي . وهنا وهناك تبدو له أشكال وقامات الضيوف كالبقع السوداء التى تحول دون سطوع الضوء من النوافذ بأكملها ، ويحاول وهو في الشارع أن يتبين قامة أوديت من بينهم . ومتى دخل تألقت عيناه بالسعادة والحبور بلا وعى حتى أن المسيو فرديران قال للراسم :

— صمم ! يبدو أن حرارته ارتفعت ؟

والواقع أن وجودها كان يضئ على البيت ما لا يتمتع به أى بيت آخر من البيوت التى يزورها . يضئ عليه نوعاً من الحساسية اللمسية والعصبية التى تنتشر في كل حجرة من حجراته ، وتبث الإثارة المتواصلة في فؤاده .

وهكذا تحولت « العشيرة الصغيرة » في بيت آل فرديران من كيان اجتماعي لدى سوان إلى سلسلة من اللقاءات اليومية مع أوديت ، مما أتاح له أن يتظاهر بعدم الاكتراث برؤيتها ، أو حتى عدم الرغبة في ذلك . ولم يكن هذا التظاهر ينطوي على مخاطرة كبيرة ، لأنه في يوم تغيبه يكون قد كتب إليها رسالة أثناء النهار ، يؤكد فيها ضرورة رؤيتها في المساء واصطحابها إلى بيتها .

ولكن ذات ليلة ، ضاق ذرعاً بتلك الرحلة في عربته الممتلئة معاً ، فأخذ فتاته الأخرى حتى الغاية ، لكي يؤخر بقدر الإمكان ظهوره لدى آل فرديران . وتأخر كثيراً في الوصول ، حتى أن أوديت حسبت له أن يأتي فغادرت الاجتماع ، وما إن رأى سوان القاعة خالية منها حتى اعتصر قلبه الغم ، وشعر أن متعة كبرى فاتته ، متعة بدأ الآن يدرك مدى شدتها وعمقها ، وأدرك أن يقينه من الخطوة بها كل ليلة قد جعله يغفل عن أبعادها في نفسه وتنقص قيمتها في عقله الواعي :

وسأل المسيو فرديران زوجته :

— ألاحظت سحتة عندما تبين أنها ليست هنا ؟ أحسبه قد وقع في الحيلة !

وتساءل الدكتور كوتار عن معنى هذا الكلام ، لأنه كان غائباً عن المكان لبعض الوقت كي يعود مريضاً ، ثم رجع ليأخذ زوجته ، فلم يعرف عن يتحدث الزوجان .

— إذن أنت لم تقابله على عتبة الباب وأنت قادم ؟ أعني فخر آل سوان !

— لا : أكان المسيو سوان هنا ؟

— لمدة لحظة واحدة ، لمخناه فيها شديد الاضطراب متهبج الأعصاب . والسبب أن أوديت كانت قد انصرفت :

— أتعني أنها ذهبت معه إلى آخر الشوط ؟ وأنها أحترقت مراكيها ؟

— كلا بالطبع . ليس هناك شيء من هذا . الواقع — بيني وبينك — أظنها ترتكب خطأ جسيماً ، وتنصرف ببلاهة وغفلة :

فعارض المسيو فرديران زوجته قائلاً :

— علي رسلك ! ما أدراك أن لا شيء من هذا بينهما ؟ إننا لم نكن معهما لنرى ما يحدث !

فأجابته مدام فرديران بأنفة :

— كانت خليقة أن تحسبني : فهي تقول لي كل شيء : ولما كانت غير مرتبطة بأحد حالياً ، فقد قلت لها إنها ينبغي أن تعيش معه . وهي تزعم أنها لا تستطيع هذا . مع أنها تعترف بأنها كانت منجذبة إليه بشدة في البداية ، إلا أنه شديد الخجل معها ، وذلك يجعلها شديدة الخجل معه . ثم إنها لا تهتم معه بهذه الناحية كما تقول . فهو حبيب مثالي : أفلاطوني كما يقولون . وهي تخشى أن

تقضى على ازدهار هذا الحب . أوه : نصف كلامها لا أفهمه : وفي الوقت نفسه تقول إنه الرجل الذي تريده بالضبط !
فقاطعها المسيو فرديران بحذر قائلاً :

— أستاذك في الاختلاف معك ؟ فأنا لست راضياً عن هذا السيد تمام الرضا ، لأنني أشعر أنه « متكلف » .

فتصلب كل جسم مدام فرديران ، وحدثت أمامها في فراغ كأنما تحولت إلى تمثال : وهي حيلة تستخدمها للتظاهر بعدم سماع هذا اللفظ الكريه ، فهي لا تتصور أن يتجاسر أحد على أن « يتكلف » في بيتها ... وقال زوجها :

— على كل حال ، إن لم يكن بينهما شيء ، فليس السبب أن « صاحبنا » يعتقد أنها مصونة العفة : ثم هو فيما يبدو يعتقد أنها ذكية . ولا أدرى هل سمعته أم لا وهو يحاضرها ذات أمسية عن مسوانة فانتى : ومع إخلاصى لمودة أوديت ، إلا أن طرح نظريات في علم الجبال عليها يدل على أن الرجل مغفل من الطراز الأول .

فصاحت مدام فرديران بلهجة « الطفل المدلل » التي كثيراً ما تلجأ إليها :

— اسمع ! لن أسمع لك أن تنتقص من قدر أوديت : إنها فانتة !
— ليس هناك ما يمنع من أن تكون فانتة . ونحن لا نقول عنها ما يشينها ، وكل ما قلناه عنها إنها ليست التجسيد الحى للفضيلة والعفة أو الثقافة :

ثم التفت إلى الرسام وقال :
— أمن الأهمية بمكان أن تكون عفيفة مصونة أم لا ؟ لعمرى إن فنتها تنقص كثيراً جداً لو أنها كانت عفيفة مصونة !

وعلى السلم وهو نازل قابل سوان كبير خدام آل فرديران (الذى كان بالخارج عند قدوم سوان) وأخبره أن لديه رسالة من أوديت كلفته ببليلتها إليه (ولكن ذلك كان عند انصرافها منذ ساعة على الأقل) مؤداها أنها قد تذهب لتناول فنجان من الشكلاتة في محل بريفو Prévost في طريقها إلى البيت . وتوجه سوان من فوره إلى محل بريفو ، ولكن عريته كانت تتوقف في زحام العربات أو المارة كل بضعة أمتار ، وهي عشيقات كان يسعه أن يدهمها بعجلات العربات وسنايك الخليل ، لولا أن رجل الشرطة كان سيستوقفه عندئذ ويعطله مدة أطول ريثما يجزر محضراً بالحدث . فقد كان يحصى الدقائق كالخموم ، تلهقاً على الوصول قبل انصرافها من محل بريفو . ثم تنبه لنفسه كمن يستيقظ من سبات كله أحلام ، وعجب من حاله ، فليس من عادته أن يكون على هذا النحو من التوتر العصبي منذ وصل إلى صالون آل فرديران وعرف بانصراف أوديت . فهذا الوجيب في قلبه شيء طارئ عليه لا عهد به له من قبل ! ما هذا ؟ أكل ذلك الانزعاج فجراً أنه قد لا يرى أوديت الآن ، حتى الغد . مع أن هذا ما كان يتمناه وهو متوجه بعريته منذ أقل من ساعة إلى بيت

آل فرديران : واضطر للإقرار بأنه الآن ، وهو جالس في نفس
العربة ، لم يعد نفس الرجل وهو في طريقه إلى محل بريفو . بل ولم
يكن وحده ، بل كانت إلى جواره شخصية أخرى مندمجة فيه ، وقد
لا يتسنى له التخلص منها أبداً . ومع هذا ، شعر في هذه اللحظة الأخيرة
التي أحس فيها وجود هذا الآخر أن شخصية جديدة قد انضافت إلى
شخصيته ، فصارت الحياة أدعى للاهتمام وأشد طرافة على نحو ما .

وعبثاً راح يؤكد لنفسه أن هذا اللقاء المحتمل في محل بريفو ، قد
يتبين ، بعد كل شيء ، في حالة حدوثه ، أنه نسخة طبق الأصل
من سائر لقاءاتهما ، وليست له أهمية كبيرة . فكما يحدث كل ليلة ،
مضى صار في صحبة أوديت ، وبمجرد شروعه في النظر المختلس إلى
مخنتها المتغيرة ، يسرع بغض بصره أو الابتعاد به عنها حتى لا ترى
في عينيه أول أمارات الرغبة ، فلا تعود تصدق عدم مبالاته . ويكف
عندئذ عن التفكير فيها لانشغاله بالبحث عن ذرائع تتيح له
الأيّام يفارقها على الفور ، ويتذكر نفسه أنه يقيناً سيجدها حيث هي
الآن في الليلة التالية ، ببيت آل فرديران .. وهي ذرائع تمكنه من
إطالة المكث وتجديد خيبة أمله في تلك المرأة التي تعذبه خيبة أمله في
حسبها ، والتي يمكنه أن ينالها ولكنه لم يجز قط على معانقتها .

ولم يجدها في محل بريفو : وكان لا بد له أن يبحث عنها في كل
مطعم مطلق على البوليفارات : وتوفيراً للوقت ذهب بنفسه في اتجاه
وبعث حوزيه ريمى في اتجاه آخر : وبعد أن خاب مسعاه وقف

حيث يتبهى أن تأتى العربة للقائه . وطال غياب العربة ، وداعبت
الآمال في عودة ريمى ليقول له :

— سيدى . السيدة هناك .

أو ينتابه اليأس فيتخيله يقول له :

— لم أجد السيدة في أى مقهى .

وهكذا جعل يتأرجح بين العثور عليها أو العودة لبيته من غير
أن يراها هذه الليلة .

وعاد الحوذى : ولكنه ما إن وقف أمامه حتى قال سوان ، بدلا
من « هل وجدتتها ؟ » :

— ذكرنى غداً كى أطلب المزيد من خشب الوقود : فأنا
متأكد أن ما عندنا منه كاد ينفد !

ولعله كان قد أفتق نفسه أنه إذا كان ريمى قد وجد أوديت في
إحدى المقاهى ، وأنها تنتظره هناك ، فقد انتهت إذن ليلة عذابه بهذا
التحقق لأمنيته ، وبدأت ليلة فرح وسرور ، فلا حاجة به إلى التهاقت
على سعادة صارت في متناول اليد ، ولن تفلت من قبضته . ولكن
وراء هذا المسلك أيضاً قوة القصور الذاتي المشاهدة عند بعض الناس
حتى في مواطن الخطر . ولعله لو بادره الحوذى بقوله :

— لقد وجدت السيدة .

كان قائلاً له :

— آه ! طبعاً ، هذا ما أمرتك به . وقد تسببت بذلك !

ثم يواصل بحث موضوع خشب الوقود ، لكن يخفى عن خادمه الانفعال الذى شعر به ، وليتيح لنفسه فسحة من الوقت للانفصال عن القلق وترك قياده للمتعة والفرح . ثم نصحه .
والواقع أن الحودى عاد ليقول : إنه لم يستطع العثور عليها فى أى مكان :

بدالة الخادم القديم :

- وأظن يا سيدى أن كل ما نستطيعه الآن هو العودة إلى البيت .
ولكن مظهر عدم الاهتمام الذى كان من السهل على سوان أن يتخذه عندما قال له ريمى هذا القول نخل عنه تماماً ، كأنما صدمه أن يدعوه ريمى إلى التخلي عن الأمل والتراجع عن مواصلة البحث ، فصاح به :

- كلا بالتأكيد ! لا بد لنا أن نعر على السيدة . هذا أمر فى غاية الأهمية - فبيننا موعد عمل ، وقد بغضبنا مبنى ألا تقابلنى الليلة ؟
- لست أفهم لماذا يمكن أن تغضب السيدة ، ما دامت هى التى انصرفت من غير أن تنتظر قدومك ، وهى التى قالت إنها ذاهبة إلى محل بريكو ، وإذا بها ليست هناك !

وفى هذه الأثناء كانت المطاعم قد أخذت فى إقفال أبوابها وإطفاء أنوارها . وتحت أشجار البولفارات كانت هناك بقية من الرماضين ، تكاد تخفيهم العتمة . وبين الحين والحين كان يترأى لسوان شبح امرأة تدنونه وتهس فى أذنه بكلمة ، أو تطلب منه

أن يصحبها إلى البيت ، ثم تركه وهو يرتجف . ولم يكف عن إمعان النظر فى هذه الأشكال الغامضة ، وكأنما هو يبحث فى الظلمات عن روح هبطت إلى العالم الآخر ...

وطلب سوان إلى ريمى أن يذهب به إلى المطاعم التى لم تزال مفتوحة . فقد كان هذا هو الفرض الوحيد لتحقيق سعادته التى زاد إلحاح رغبته فيها . ولم يعد قادراً على إخفاء اضطرابه ، ووعد حوذه أن يجزل مكافأته فى حالة نجاح هذه المهمة . كأنما هذه الأمانة السحرية كافية لجعل أوديت التى لعلها أوت إلى فراشها منذ وقت طويل ، تنفض جالسة فى أحد المطاعم المطلة على البولفارات . ومضى فى بحثه حتى الميزون دوريه ، واندفع مرتين إلى داخل محل تورتونى Tortoni ، من غير أن تكتحل عيناه بمرآها . وكان خارجاً من مقهى الإنجليز زائع النظرات ليتجه إلى عربته التى كانت تنتظره عند ناصية بولفار الإيطاليين ، وإذا به يرتطم بشخص قادم من الجهة الأخرى . وكانت هى أوديت !

وقالت له فيما بعد إنها لم تجد مكاناً شاعراً فى محل بريكو ، فذهبت لتناول العشاء المتأخر فى الميزون دوريه ، وإنها كانت جالسة هناك فى خلوة منعزلة ولذا لم يرها ، وإنها الآن بسبيل البحث عن عربتها . ولم تكن تتوقع أن تراه ، ولذا تراجعت فى ذعر . أما هـنو فكان قد تقب فى كل شوارع باريس ، لا عن اقتناع بجذوى البحث بل لأن ترك البحث كان أقسى عليه من أن يحتمله . أما الآن فكان

سروره الفجائي باديًا لا يمكن إخفاؤه ، وقد صارت - بعد بأس -
أمام عينيه ساطعة كأنوار الحقيقة :

وركب في إثرها عربتها التي كانت قد استبقته في انتظارها ،
وأمر حوزيه أن يتبعه بعربته الخاصة :

وكانت في يدها باقة صغيرة من أزهار « الكاتليا » ، ورأى سوان
تحت الدانتلا التي تغطي رأسها زهرات أخرى من نفس النوع مئينة
في ريشة بيعة . وكانت ترتدي تحت عباءتها ثوباً فضفاضاً من الخمل
الأسود . وعند فتحة العنق مزيد من هذه الأزهار . ولم تكن قد
أفاقت تماماً من صدمة وقوع بصرها فجأة على سوان ، عندما حدث
عائق جعل الحصان الذي يحرس العربة يتجفل ، فدفع الراكبين إلى
الأمام ، وأطلقت صرخة ، ثم سقطت إلى الخلف وهي ترتجف مبهورة
الأنفاس . وراح يطمئنها قائلاً :

- لا بأس عليك . لا ترتاعى .

ودس ذراعه حول كتفها ، ليستد جسمها بحسه ، ثم أوقف :
- لا تتكلمى . يكفى أن تومئى بنعم أو بلا . وإلا انقطع تنفسك
مرة أخرى . ألدبك مانع من أن أثبت هذه الأزهار التي سقطت من
مكانها فوق صدرك . لن أزيد على تثبيتها كما يجب في مكانها .
ولم تكن قد تعودت أن تعامل بكل هذه الرسميات من جانب
الرجال ، ولذا ابتسمت وهي تجيبه :

- لا . لا مانع عندي إطلاقاً .



ولم تكن تتوقع أن تراه ، ولذا تراجعت في ذهن .
أما هو فكان قد تقب في كل شوارع باريس ..

وصدمته إجابتها ، وهتف بها :

— لا . لا . لا ينبغي أن تتكلمى . وإلا انقطع نفسك من جديد ، يمكنك أن تجيبى بالإشارة . وسوف أفهم . أحسأ لا تمانعين ؟ ثم إن بعض متلك الأزهار (حبوب اللقاح) انسكبت على ثوبك . أسمحين لى أن أنفضها بيدي ؟ لا أظننى أملكك ؟ لعلنى أدغدغك بعض الشيء ، ولكنى لا أريد أن ألس المخمل حتى لا أدفعه فى عكس اتجاه وبره . ألدليك مانع من أن أشم الآن هذه الأزهار وهى فى موضعها لأتأكد من أنها تحتفظ بعبرها ؟ لا أظننى شمت هذا النوع من قبل . أسمحين لى ؟ قوى الحقيقة .

فهزت كتفها قليلا وهى لم تزل تبتمس ، وكأنها تريد أن تقول : — أنت لا شك معتوه . فأنت تعلم جيداً أنى أستطيع هذا .

ومد يده الأخرى فتحسس بها خد أوديت ، فثبتت عينيها عليه بتلك النظرة الجادة الفاترة الهمة التى تتميز بها النساء فى الصور الفلورنسية القديمة ، والتى اكتشف فيها نطس صحنه أوديت . وكانت عيناها — مثل عيونهن — تكاد تسقط من وجهها لتندرج على خديها وكأنهما دمتان كبيرتان ، وحنن رقبها كما يحنين جميعاً رقابهن فى تلك اللوحات ، سواء فى المشاهد الوثنية أو المشتقة من الكتب المقدسة . ومع أن مسلكتها كان غريزياً وتلقائياً ، وبصورة تعلم هى أنها ملائمة للمثل هذه المواقف ، إلا أنها بدت كما لو كانت بحاجة إلى كل قواها كى تعود بوجهها إلى الوراء ، وكأن قوة خفية تجذب وجهها إلى

أستل نحو وجه سوان . وكان سوان هو الذى أمسك بوجهها لحظة أطول على مسافة قليلة من وجهه قبل أن تسمح لوجهها أن يتكبد على شفثيه كما لو كان هذا الانكباب رغم إرادتها . فقد قصد أن يترك لعقلها فسحة من الوقت للتفكر فى حركات جسمها ، والتعرف على الحلم الذى طالما حلمته ، ولكى يساعد على تحقيقه عن وعى وتدرى . وكأن عقلها أم دعيت لتشهد تقديم جائزة التفوق للطفل الذى ربته وأحبته . ولعل سوان نفسه كان فى الوقت نفسه مركز الانتباه على ملامح أوديت التى لم يتسلكتها بعد . بل لم يقبلها بعد ، وها هو يتأملها الآن بنظرة شاملة مستوعبة كنظرة المسافر الذى يريد قبل رحيله أن يحمل معه فى ذاكرته منظر القطر الذى لن يعود إليه .

ولكنه كان شديد الحجل وهو يقترب منها ، حتى أنه بعد تلك الأسمية التى بدأت بتنسيقه الأزهار على فتحة صدرها ، والتى انتهت باستسلامها التام ، لجأ إلى نفس الذريعة فى الأيام التالية . فإن كانت فى فتحة صدرها أزهار مثبتة قال لها :

— لسوء حظى البالغ أن الأزهار ليست بحاجة هذه الليلة إلى تثبيت ، فلم تتبعثر كما حدث فى تلك الليلة : ولكنى أحسب هذه الزهرة ليست فى مكانها تماماً . أسمحين لى أن أتأكد من أن عبيرها أشد من عبير الأزهار الأخرى ؟

أما إذا لم تكن فى فتحة صدرها أزهار ، فإنه كان يقول لها :

— أوه . لا أزهار الليلة . إذن ليس هناك ما أقوم بتنسيقته .

وهكذا لم يحدث تغيير في الإجراءات التي تلت تلك الليلة الأولى التي بدأ فيها بلمس رقبته بأنامله أولاً ، ثم بشفتيه . فكانت مداعباتهما تبدأ دائماً وبلا تغيير بهذا الاستكشاف المتواضع . وبعد مدة طويلة تقادم فيها العهد على شعائر أو طقوس تنسيق الأزهار على صدرها ، تحولت هذه العادة إلى كناية أو استعارة ، بحيث تعني عبارة « تنسيق الأزهار » في لغتهما الخاصة عملية الاتصال الجنسي ، وتذكرهما هذه الكناية بتلك الشعائر التي أملت بعد أن كانت مفتاح علاقتهما الجسدية . ثم إن هذه الطريقة الخاصة في التعبير عن « الاتصال الجنسي » ليس لها المعنى الحاد المحدد لمرادفها المعتاد . ذلك أنه مهما كان الاتصال الجنسي بكل أنواع النساء متشابهاً ، بحيث يمكننا وصف تفصيلاته مقدماً ، إلا أنه يغدو اتصالاً ناضراً ومتعة مثيرة إذا كانت المرأة المعنية مقترنة في تفكيرنا بأنها صعبة المنال — ولو في وهما فحسب — بحيث تحتاج إلى التذرع بالحيلة للوصول إلى امتلاكها ، كما فعل سوان بذريعة تنسيق تلك الأزهار . وارتجف وهو يأمل في تلك الأمسية الأولى (وإن قال لنفسه : إن أوديت إن اتخذت بحيلته وخطته ، فلن تفهم أو تخمن مقصده منها) أن يصل إلى امتلاك تلك المرأة عن طريق هذه البتلات الزهرية الكبيرة الغنية بألوانها ، وبدأت له تلك المتعة التي شعر ببوارها فعلاً وكأنها لم توجد من قبل ، لأنه هو الذي يكافح الآن لإبداعها ، فهي متعة متفردة بمجدها ، لا بد له من ابتكار اسم خاص لها يحفظ عليها هويتها .

* * *

ومنذ تحطم الجليد بينهما ، صار كلما صحبها بحريته كل مساء إلى بيتها يتبعها حتماً إلى الداخل . وكثيراً ما كانت تخرج في ثياب نومها وروبها لتشيعه إلى عربته ، وتقبله تحت بصر حوزيه قائلة :
— وما أهمية أن يرانا الناس ؟

وفي الليالي التي يتخلف فيها عن الذهاب إلى بيت آل فرديران (وهو ما صار يحدث أحياناً ، لتوفر وسيلة لقائه بأوديت في مكان آخر) وصار يذهب — بندرة متزايدة — إلى المجتمعات الراقصة ، كانت أوديت ترجوه أن يأتي إليها وهو في طريقه إلى بيته ، مهما كان الوقت متأخراً .

وكان الوقت ربيعاً ، والليالي صافية كثيرة الصقيع ، فيخرج من حفلة ساهرة ويثب إلى عربته المكشوفة ، ويغطي ركبتيه ببطانية ، ويقول لأصحابه الذين يلحون عليه أن يأخذهم معه إلى بيوتهم لأنه لا يستطيع ذلك لأنه ليس ذاهباً في اتجاه منازلهم ، وعندئذ ينطلق الحوذي بكل سرعة الركض بدون أمر يتفوه به سيده ، تعلمه سلفاً أين ينبغي أن يذهب . ويترك أصحابه متعجبين من أمره . والواقع أن سوان لم يعد الرجل الذي يعهدونه : فلا أحد منهم يتلقى الآن منه خطاباً يطلب تقديمه إلى امرأة . وكف عن الاهتمام بالنساء ، وصار ينأى بنفسه عن الأماكن التي توجد بها النساء عادة . وفي المطعم ، أو في الريف ، سلوكه الآن نقيض ما كان يعهده فيه أصحابه من سماته الدائمة الثابتة قبل بضعة أيام . وإلى هذه الدرجة يتجلى العشق فينا

وكانه طبع جديد متميز مؤقت ، يحل محل طبعنا المألوف ، وينسخ أماراته . ومن جهة أخرى صارت لسوان عادة جديدة لا تتغير ، وهي أنه أيا كان مكان سهرته لا يمكن أن يغفل الذهاب بعدها مباشرة لدى أوديت . وبعد الشقة بين هذا المكان وبين بيتها لا يحول بينه وبين اجتياز هذه المسافة حتماً . والحقيقة أنه في أحيان ، كثيرة عندما تمتد سهرته إلى ساعة متأخرة جداً ، كان يفضل لو ذهب إلى بيته فوراً ، من غير أن يقطع هذه المسافة الطويلة إلى بيتها ، مرجئاً لقاءهما إلى الغد ، ولكن إحساسه بما يتطلبه ذلك من جهد في سبيل زيارتها ، وعلمه أن أصحابه يقولون عنه إنه صار مكبلاً تماماً بامرأة تصر على أن يزورها في أي ساعة ، كل ذلك كان يشعره بأنه يعيش حياة تلك الفئة التي يلون الغرام حياتها ، بحيث يحس العاشق أن تضعيته براحته ومصلحه الخاصة مصدر سخر رويحي خاص .

ولعله لم يكن واعياً تماماً بهذا الإحساس ، ولكن علمه بأن أوديت تنتظره يقيناً ، وأنها في بيتها وليست في أي مكان آخر ، أو مع أي أحد آخر ، وأنه سيراها قبل ذهابه لبيته ، كل هذا كان يستل منه لذعة ذلك الكرب الذي انتابه ليلة ذهب إلى بيت آل فرديران فوجدها براحته وراح يبحث عنها كالحبون . فاختفاء هذا الكرب والقلق كان أقرب شيء عنده إلى الشعور بالسعادة .

ولعل تلك الساعة من الكرب والقلق واللهفة هي مبعث ما صار لأوديت من أهمية كبرى لدى سوان : والآخرون ، عندما نكل إلى

واحد منهم سلطة تسبب التعاسة البالغة أو السعادة البالغة لنا ، يبدو لنا هذا الشخص كما لو كان متمنياً إلى كون مختلف ، يكتنفه الشعر ولم يكن يوسع سوان أن يسأل نفسه بدون قلق ماذا يمكن أن تعني أوديت في الأجوام القادمة . وأحياناً ، عندما كان يرفع رأسه وهو في عربته المكشوفة في تلك الليالي البديعة الباردة من أوائل الربيع ، فيرى أشعة القمر تسقط بين عينيه وبين الشوارع المقفرة ، عندئذ كان يفكر في ذلك الوجه الآخر المألقي مثل وجه القمر ، الذي طلع في أفق عقله ذات يوم ، ومنذ ذلك اليوم وهو يسكب على الدنيا ذلك الضوء الغامض الذي يراها سابحة فيه .

وكان إذا وصل بعد الساعة التي ترسل فيها أوديت خدمها إلى مضاجعهم ، دار أولاً حول البيت وذهب إلى الشارع الخلقى قبل أن يرن الجرس المثبت عند بوابة حديقته الصغيرة . فعلى الشارع الخلقى تطل حجرة نومها . وتبدو له كل البيوت المتجاورة هناك متشابهة مظلمة ، ما عدا نافذة مخدعها المضاعة ، التي في مستوى كتفه ، فيلحق بخنقة على الزجاج ، وتسمع هي هذه الإشارة وتليها بصوتها قبل أن تجري لمقابلته عند البوابة . ويجد على البيانو نوتات مفتوحة لبعض معزوفاتها المفضلة ، مثل « فالس الورد » و « الحنون المسكين » من موسيقى تليافيكو Tagliafico (وقد نصت في وصيتها على أن تعزف في جنازتها) ولكنه بدلا من هذه الموسيقى يطلب إليها أن تعزف له الجملة الموسيقية الصغيرة من سوناتة فانتى ... فهذه الجملة

لم تزل مقترنة في ذهن سوان بحبه لأوديت . وكان واعياً في الوقت نفسه أن صفات أوديت لا تكني في ذاتها لتبرير ما يعزوه من قيمة للساعات التي قضائها في صحبتها . وكثيراً ما كان - عندما يعلو صوت العقل على كل ما عداه - يعتقد أنه ما كان ينبغي له أن يضحي بكل هذه الاهتمامات الثقافية والاجتماعية في سبيل هذه اللذة الموهومة ؛ ولكن ما إن تصافح أذنيه أنغام هذه الجملة الموسيقية حتى تتغير النسبة بين ملكاته النفسية ، ويخلو في نفسه مكان لا يمكن أن تشغله لذة خارجية عدا حبه لأوديت . ولكن هذا الحب فريد في بابه ، لأنه يتخذ لديه قيمة موضوعية أعلى من حقيقة الأشياء الأخرى المحسوسة ؛ وتوقظ هذه الجملة الموسيقية لديه هذا الظلم الأول لفننة لم يتدققها بعد ، ولكن من غير أن تكني بذاتها لإرواء هذا الظلم .

فالواقع أن هذه الجملة الموسيقية تمحو من نفسه كل اهتمام بالأمور الدنيوية ، وتترك صفحاتها خالية تماماً ، بحيث يتسنى له أن يكتب فيها اسم أوديت . وعندما تبدو عاطفته نحو أوديت مخفية للآمال بعض الشيء ، تنبى هذه الجملة الموسيقية لتكملة ما يوجد من نقص ، وتلتحم بجوهر هذه العاطفة . فن يرقب وجه سوان وهو مصغ لهذه الجملة يغفل إليه أنه يستنشق مخدراً يسمح له بالتنفس بمزيد من الحرية والعمق .. وإحساسه بهذه الجملة شبيه بما تحدثه في حسه تجاربه في إبداع العطور الجديدة من لذة عميقة . فهو إحساس أقرب للراحة العميقة والانتعاش الغامض ، فكأنما قد صار مخلوقاً غريباً عن



وتوقظ هذه الجملة الموسيقية لديه هذا الظلم الأول لفننة لم يتدققها بعد ، ولكن من غير أن تكني بذاتها لإرواء هذا الظلم ..

البشرية : مخلوقاً أعلى ، محروماً من ملكاته المنطقية ، فهو حيوان خرافى لا وعى له بالعالم إلا عن طريق أذنيه فحسب . وهكذا يطلب هذه الجملة الموسيقية المعينة كى يتجرد من درع عقله ، ويغوص بأعماق سريرته وروحته إلى أغوار عالم الصوت المظلم . وبدأ يدرك كم كان هذا مؤلماً ، بل كم يمكن تحت عبودية الجملة الكثير من الأسى الخفى والحزن الذى لا يحمد ، ومع هذا لم تكن هذه الجملة تشعره بالمعاناة أو العذاب . وما أهمية أن تكرر هذه الجملة كل مرة الإيحاء بأن الحب رهيف هش عابر ، بينما حبه هو بكل هذه القوة ! لقد كان يلهو ويتهللى بهذه السوداوية التى تشيعها الجملة ، ويشعر بها تكتنفه ، وتغمره بما يشبه المداعبة التى تعمق وتحلى إحساسه بسعادته . ويطلب من أوديت أن تعزف الجملة عشرة ، وعشرين مرة ، تبعاً ، مصرأ على أن تظل تقبله طوال قيامها بالعزف . وكل قبلة تثير قبلة تتلوها . وطبيعى جداً أن القبلات تنبرى للحياة فى تلك الأيام الأولى من باكورة الحب . ويعجز العاشقان عن إحصاء قبلاهما فى ساعة واحدة من الزمان ، مثلاً يعجزان عن إحصاء الأزهار التى أنبتتا شهر مايو فى أحد المروج . ثم تنظاها بالتوقف عن العزف قائلة :

— كيف تريدنى أن أتمكن من العزف وأنت تحتضنى هكذا ؟
أنا لا أستطيع أن أصنع كل شيء فى آن واحد . استقر على رأى فيما تريده بالضبط . أتريدنى أن أعزف ، أم تريد أن تلهو معى ؟

وعندئذ يتصابق ، وعندئذ تنفجر ضاحكة ، ضحكة لا تلبث

أن تنهمر عليه بوابل من القيل ! أو تنظر إليه مقبلة متجهمة ، فىرى عندئذ وجهاً كان جذيراً بأن يظهر فى لوحة بوتشيل « حياة موسى » ، فيميل رأس أوديت ليأخذ الوضع المستقيم مع هذه اللوحة . وينتشى حسه الفنى ، ويتذكر أن هذه الرائعة من روائع القرن الخامس عشر على حائط كنيسة سكستين ، كائن حتى موجود معه فى حجرة واحدة إلى جوار البيانو فى هذه اللحظة ، وعلى استعداد للتبيل والمضاجعة ، فيستولى عليه من وجودها المادى الحسوس انتشاء جارف ، ويلقى بنفسه مفتوح الفم ، جاحظ العينين ، فوقها كأعماهم بالتهاهما ، ويقلب « عذراء بوتشيل » وبعض خلدتها كما يشئى .

وما إن يغادر بيتها ، حتى يعود ليقبلها من جديد ، لأنه نسى أن يأخذ معه فى طوابع ذاكرته إحدى تفصيلات ملاحظها أو نكهتها ، ثم وهو فى عربته يبارك قلبه أوديت التى سمحت له بهذه الزيارات اليومية ، وإن كان يشعر أنها لا تسب لها سعادة كبرى ، ولكنها على كل حال تحصنه ضد حى الغيرة ، أو ذلك الكرب الذى استبد به فى تلك الليلة التى وجدها فيها قد غادرت بيت آل فرديران . ويلاحظ وهو يتطلع إلى السماء أن القمر غير موضعه وكاد يلامس الأفق : وينظر له أن حبه — مثل القمر — خاضع ولا شك لقوانين الطبيعة الثابتة ، فيسأل نفسه هل ترى هذه المرحلة من حبه مقدر لها أن تستمر طويلاً ، أم سيحين وقت قريب يلاحظ فيه عقله أن هذه السحنة الغالية صارت تشغل منه وضعاً يقلل من فتنها ويبعدا عنه ذلك أن سوان صار

يجد في الأشياء ، كرة أخرى ، منذ وقع في الحب ، ذلك السحر الذى كان قد وجده وهو مراهق ، حينما خال نفسه فناً . وكل ما هناك من فارق بين الحالتين ، أن ما فى الأشياء من سحر تضفيه عليها أوديت دون سواها . وها هو الآن يشعر بأن إلهامات صباه تستيقظ فيه ، بعد أن كانت قد تبددت بين تفاهاات الحياة . إلا أن هذه الإلهامات تحمل طابع كائن معين . وهكذا صار يجد لذة فى قضاء ساعات طويلة فى بيته ، فى خلوة مع نفسه الناقية ، فقد استرد نفسه ، ولكن فى اندماج مع كائن آخر .

* * *

كان يذهب إليها فى الليل فقط ، ولم يكن يدري شيئاً عن كيفية قضائها وقتها أثناء النهار ، كما لا يعرف شيئاً عن ماضيها : فما كان يعرف عنها كان من الضلالة بحيث لا يتيح له أى أثر يتعبه ويتخيل على أساسه ما يجمله ، أو يثير لديه الرغبة فى المعرفة . ولذا لم يسأل نفسه قط ماذا عساها تصنع ، ولا كيف كانت حياتها . وكل ما هناك أنه كان يتسم أحياناً عندما يتذكر أن أحدهم حدثه منذ سنوات - قبل أن يعرف أوديت - عن امرأة - إن لم تكن ذاكرته - لا بد أنها أوديت ، وكيف وصفها بأنها « عاهرة » و « امرأة عازة » ، أى واحدة من تلك النساء اللواتى كان يتصور - لجهله بهن - أنهن يتصنفن بكل الاخلال الذى صورهن به بعض الروائيين على مدى سنوات طويلة ، حتى استقر ذلك فى الأذهان : وعندئذ يقول لنفسه

إن على المرء كى يحكم حكماً منصفاً على أى أحد ، أن يأخذ الجانب المناقض لسمعة هذا الشخص عند عامة الناس . فأوديت تبدو له غاية فى الطيبة والبساطة والتحمس للمثل العليا ، وتكاد تعجز عن الكذب ، حتى أنه عندما أحب أن يتعشى معها ذات ليلة على انفراد ، وطلب منها أن تكتب إلى مدام فرديران قائلة : إنها متوقعة ولذا تعتذر عن الحضور تلك الليلة . وأجابته إلى طلبه . ولكنه رآها فى اليوم التالى عندما سألتها مدام فرديران هل شفيت من وعكها ، تحمر خجلاً ، متلعثم ، وتفضح كذبتها بهذا الارتباك ، فأدرك كم يتناقى الكذب مع طبيعتها المستقيم .

وفى بعض الأيام - وإن كانت نادرة - قد تزوره بعد الظهر ، فتقطع عليه انشغاله ببعثه عن فرير الذى استأنف كتابته . ويقول له الخادم : إن مدام دى كريسى فى الصالون الصغير ، ويذهب لياقئ بها ، وعندما يفتح الباب تطالعها بهذه الابتسامة الخاصة بها ، التى رآها لأول مرة ليلة سألها وهما فى العربة ألدنيا مانع من أن يثبت الزهور فى فتحة صدرها . ولما كان يجهل كل شئ عنها فقد تخيل حياتها صفحة بيضاء كأنها الخلفية المحايدة ، مثل اسكتشات واتو Watteau التى يرى المرء على صفحاتها ابتسامات شتى فى كل ركن منها ، مرسومة بثلاثة ألوان .

ولكن صديقاً له فطن إلى علاقة الحب بينه وبين أوديت قال له ذات يوم : إنه رآها فى الصباح . ووصف له قوامها وحى سائرة

على قدميها في شارع أباتوتشي Abbattucci لابسـة كـابـاً وقبـعة من طراز رمبرانت Rembrandt ، وعلى صدرها باقة من البنفسج : فكان هذا الوصف البسيط كافياً لإشاعة البلبلـة في نفس سوان ، لأنه أدرك من خلاله فجأة أن لأوديت وجوداً ليس خاضعاً لوجوده كل الخضوع ، فتحرق شوقاً لمعرفة من ذا الذي كانت تسعى لفتنته بهذا الزى الذي لم يرها فيه قط . وآلى على نفسه أن يلح عليها كي تخبره أين كانت ذاهبة في تلك اللحظة . كأنما ليس في حياتها عدا ابتساماتها له والساعات التي تقضيها معه إلا هذا الحادث الواحد ، حادث سيرها بقبعة من طراز رمبرانت وعلى صدرها باقة من البنفسج .

وفيما عدا طلب سوان من أوديت عزف جلة « فانتى » الموسيقية الصغيرة . بدلا من « فالس الورد » ، لم يحاول سوان مطلقاً أن يغريها بعزف الأشياء التي يفضلها شخصياً . ولا حاول في الأدب أو الموسيقى تصحيح أخطائها الكثيرة في الذوق . فقد أدرك تماماً أنها لم تكن ذكية . وعندما قالت كم تود أن يتحدث عن الشعراء الكبار ؟ توقعـت أن يـدلـها على أشد الصفحات رومانسية في الشعر ، على غرار أشعار الفيكونت دي بوريلي De Borelli ، أو ما هو أشد من ذلك تحريكاً للمشاعر . أما عن فرمير فقد اكتفت بسؤاله هل عانى هذا الرسام العذاب بسبب امرأة . وهل كانت له ملهمة من النساء . ولما قال لها

سوان أن لا أحد يدري بالضبط ، فقدت كل اهتمام بذلك الرسام ، وكثيراً ما كانت تقول :

— أنا على يقين أنه لن يكون هناك شيء يعادل الشعر بالطبع لو كان كله صادقاً ، وكان الشعراء حقاً مؤمنين بما يقولون . ولكن الراجح أنك لن تجد من هو أحسن ولا أكر من هؤلاء الناس : أنا أعرف بعض الشيء عن الشعر . فقد كانت في يوماً ما صديقة عاشقة لشاعر رديء ، لم يكن يتحدث في شعره إلا عن الحب والسياء والنجوم . فانتحـدت فيه ! وتمكن من ابتزاز ما يزيد عن ثلاثمائة ألف فرنك منها قبل أن يتركها !

وإذا حاول سوان أن يريها كنه الجلال الفني ، وكيف ينبغي للمرء أن يقدر الشعر أو الرسم ، كتفت بعد دقيقة أو دقيقتين عن الإصغاء ، قائلة :

— آه . لم يخطر قط ببالي أن الأمر هكذا .

فيشعر أن خيبة أملها عظيمة جداً ، بحيث يفضل بعد ذلك أن يكذب عليها ، مؤكداً لها أن ما قاله سابقاً ليس صحيحاً كله ، وأنه إنما مس الأمور مساً سطحياً ، وأنه لم يتسع أمامه الوقت للإحاطة بأطراف الموضوع . وعندئذ تقاطعة قائلة :

— أهناك ما هو أكثر مما قلت أيضاً ؟ .. أخبرني !

ولكنه لا يخبرها بشيء ، لعلمه أن ما سيقوله شديد الاختلاف عما تتوقعه وأقل إثارة وتحريكاً للمشاعر . ولأنه يخشى كما خاب

أملها في الفن ، أن يخيب أملها في الحب ! وكانت النتيجة أنها وجدت سوان أقل ثقافة مما كانت تظن ، وكانت تقول له :
- أنت دائماً شديد التحفظ ، ولا أستطيع أن أفهمك :

وازداد عجبها من قلة أكتائه بالمال ، ومن تهذيبه مع الجميع على السواء ، ومن رهاقة ذهنه ... ثم كان هناك الاحترام الذي تشعر به أوديت نحو مركز سوان الاجتماعي ، وإن لم ترغب في أن يحصل لها على دعوات . ولعلها غالباً كانت تخشى إذا فاتح سوان أحداً في أمرها ، أن يستثير تصريحات غير مستحبة عنها . والواقع أنها قيدته دائماً بوعده لها ألا يذكر اسمها لأي أحد إطلاقاً . وكان السبب الذي تذرعت به لعدم الرغبة في غشيان المجتمع ، كما قالت له ، شجار نشب بينها وبين فتاة أخرى منذ زمن بعيد ، وأن تلك الفتاة انتقمت منها بإشاعة أقوال فضيحة عنها . واعترض سوان بأنه لا يمكن أن يكون كل الناس من معارف هذه الفتاة ، فأجابته أوديت بأن كلمة السوء تنتشر مثل بقعة الزيت ، والناس في غاية السوء ! ولم يستطع سوان أن يقتنع بهذا الرأي العام عن الناس وعن كلمة السوء ، ولكنه في الوقت نفسه رأى أن شيوع هذا الاعتقاد دليل على صدقه أحياناً . أليس من الجائز إذن أن تكون حالة أوديت مما ينطبق عليه هذا الاعتقاد ؟

وجعل يغيط نفسه بهذا السؤال ، إلا أنه لم يمض في ذلك طويلاً ، لأنه كان فريسة ذلك الضغط النفسي الذي كان يرهق أباه من قبل ،

كلها واجهته مشكلة صعبة . ولعل ذلك المجتمع الذي ألهم أوديت بذلك الرعب ، ولم تكن تواقه لدخوله ، ليعده الشديد عن العالم الذي كانت تعرفه بالفعل ، بحيث يتعذر عليها أن تكون عنه فكرة واضحة . وفي الوقت نفسه كانت شديدة السذاجة في علاقاتها الاجتماعية (فهي مثلاً احتفظت بصداقة خياطة متواضعة ، تقاعدت حالياً عن العمل ، وتواظب على صعود سلمها المظلم الشديد الانحدار الترن الرائحة كل يوم تقريباً) ، وفي الوقت نفسه كانت ظمآنة إلى مجاراة أحدث الموضوعات ، مع أن فكرتها عن الموضوع لا تطابق فكرة الخبير فيها فعلاً . فالموضة في نظر هؤلاء الخبراء تصدر عن عدد صغير نسبياً من زعمائها ، ومنهم تنتشر على أوسع نطاق من أصدقائهم وأصدقاء أصدقائهم ، الذين تكون أسماؤهم فهرساً ثابتاً في المجتمع . وأهل « المجتمع » يحفظون هذا الفهرس عن ظهر قلب ، ولهم بهذا الموضوع دراية أكسبتهم ذوقاً خاصاً تلقائياً . فسوان مثلاً لا يحتاج إلى استنفار معرفته بالدنيا ، إذا قرأ في إحدى الصحف أسماء من كانوا ضيوفاً على مائدة عشاء ، بل يمكنه على الفور أن يستنتج من ذلك مستوى هذه المائدة . تماماً كما يستطيع رجل الأدب من مجرد قراءة عبارة واحدة أن يقدر بالضبط القيمة الأدبية للمؤلف . ولكن أوديت كانت من الأشخاص الذين لا معرفة لهم بهذه الناحية ، بل تتخيل الموضة شيئاً مختلفاً تماماً ، وتتخذ مظاهر مختلفة على حسب المائدة

التي ينتمى إليها الشخص . إلا أنها على كل حال متاحة لجميع الناس :
ولكن هناك في رأيها أماكن « وجبة » :

ولو سألت سوان ماذا تعني بهذا لتألت ، بشيء من الزرابة :
— الأماكن الوجبة ! عجب ! أن تحتاج في سنك هذه إلى من
يغيرك ما هي الأماكن الوجبة في باريس ! ماذا تتوقع مني أن أقول ؟
في صباح يوم الأحد مثلاً هناك شارع الإمبراطورة ، وما حول
البحيرة في الخامسة بعد الظهر ، وفي يوم الخميس هناك مسرح عدن ،
وميدان سباق الخيل يوم الجمعة .. ثم هناك الحفلات الراقصة .
— أية حفلات راقصة ؟

— يا للغباء ! الحفلات الراقصة التي يقيمها الناس في باريس .
الحفلات الأنيفة طبعاً . انتظر قليلاً . لقد تذكرت مثلاً هربنجيه
Herbinger . وأنت تعرف طبعاً من أعني . إنه شخص يعمل في
أحد مكاتب السمسرة الكبرى . نعم : طبعاً أنت تعرفه حتماً . إنه
من أشهر الناس في باريس ! شاب ضخم أشقر الشعر ، يخال في
أفخر الثياب ، وهناك دائماً زهرة في عروته و له معطف فاتح
اللون في ظهره كسرة ، ويظهر دائماً مع امرأة عجوز ، ويصحبها
إلى كل الليالي الافتتاحية . وقد أقام حفلة راقصة منذ بضعة ليال ،
حضرها كل أهل الأناقة والوجاهة في باريس . وكنت أحب أن
أذهب ! ولكن كان لابد من إبراز دعوتك عند الباب ، ولم أستطع
الحصول على دعوة من أي مكان . ولكنني في النهاية سررت لأنني

لم أذهب ، لأنني كنت حتماً سأوطأ بالأقدام من شدة الزحام ،
ولا أرى شيئاً . ومع هذا يكفي أن يقول المرء إنه كان حاضراً
حفل هربنجيه الراقص . وأنت تعرف كم أنا مغرورة . إلا أنه يمكن
أن توقن بأن نصف من قالوا إنهم كانوا هناك كذابون ... ولكنني
مندهشة من أنك لم تكن هناك . وأنت الوجه الأمثل !

ولم يحاول سوان تصحيح تصورها هذا للأناقة والوجاهة ،
لإحساسه أن تصوره لها شخصياً تصور خاطئ أيضاً ، ولا أهمية له ،
ولذا لم يجد جدوى للإفشاء به إلى عشيقته ، بحيث إنها بعد بضعة
أشهر لم تعد تبدي اهتماماً بالبيوتات التي يتردد عليها ، اللهم إلا عندما
تكون هناك وسائل لحصوله هناك على تذاكر تدخلها الحقول الملحقة
بإسطبلات السباق ، أو ليالي الافتتاح في المسارح . ففي هذه الحالة
كانت تمنى أن تستمر معرفته بهؤلاء الناس وتنمو ، إلا أنها صارت
تعددهم أقل وجاهة منذ مرت في الشارع بالمركيزة دي فلباريزي
Villeperisis ورأتها مرتدية ثوباً أسود من القماش العادي وقلنسوة
ذات شرائط . فصاحت مستنكرة :

— ولكنها تبدو كأنها دامة يا عزيزي ! أهذه مركيزة ؟ الله يعلم
أني لست مركيزة . ولكنك لابد أن تدفع لي مبلغاً باهظاً من المال
لكي أقبل الظهور في شوارع باريس بهذا الزي الزرى !
ولم تستطع أن تفهم سر استمرار حصولي في السكن ببيتي على

« رصيف أورليان » Quai D'orléans ، الذي كانت تعدده غير لائق به ، وإن لم تقل له هذا :

أجل إنها كانت تزعم أنها مغرمة بالعاديات ، وتبدى النشوة البالغة وهي تعترف كم تحب أن تقضى طول النهار وهي « تنقب » في محلات الأشياء المستعملة بحثاً عن أثاث ينتمى إلى « العصر المناسب » . ومع أنها كانت حريصة كل الحرص وبكل إصرار على ألا تجيب أبداً عن أى أسئلة أوتدلى بأى بيانات عن كيفية قضائها يومها ، إلا أنها حدثت سوان ذات مرة عن صديقة زارت بيتها بدعوة منها ، فوجدت كل شيء فيه ينتمى إلى « ذات العصر » . ولم يستطع سوان أن يستخلص منها أى عصر كان ذلك . ولكنها بعد لأى قالت : إنه العصر الوسيط ! واتضح بعد ذلك أنها تعنى أن الحوائط كانت مغطاة بالخشب . وبعد فترة من الزمن حدثته مرة أخرى عن صديقتها ، وأضافت - فى لحظة مترددة ولكنها واثقة كذلك اللهجة التى يتحدث بها المرء عن شخص قابله بمكان ما على العشاء ، ولكن أصحاب الدار كانوا يعدونه مشهوراً وذا شأن - إن حجرة مائدتها من القرن الثامن عشر . ولكنها كانت تعتقد فى الوقت نفسه أن شكلها يشع ، وعارية من الزخارف . وأن النساء كنَّ يبدن فيها فضليعات ، فلا شك أنها حجرة لا تنفق والذوق الأنيق أو الموضحة . وأشارت إلى هذه الصديقة مرة ثالثة حين أطلعت سوان على اسم وعنوان الرجل الذى صمم حجرة المائدة ، وقالت إنها تريد أن تستدعيه عندما يتوفر لديها

المال الكافى ، لتسأله أن يصنع لها مثل تلك الحجرة ! ليس مثلها بالضبط طبعاً ، بل حجرة فى مستوى إتقانها ولكنها أشبه بما تحلم به ، ولكن بيتها الصغير لسوء الطالع لن يتسع لها ، لأنها تريد من طراز عصر النهضة الضخم الفخم ، وبمدفأة مثل تلك الموجودة فى قصر بلوا Blois . وفى هذه المناسبة صارت سوان برأيها فى مقره برصيف أورليان . قالت بلهجة ربة البيت البرجوازية :

- صديقتى لا يمكن أن ترضى مثلك بالسكن وسط كراسى محطمة وأبسطة بالية !

وكانت تضع أصحاب الذوق فى انتقاء وتسقط الأشياء الجميلة ، ومن يعجبون بالشعر ، ويحتقرون حسابات الكسب والخسارة ولم مثل العليا فى الشرف والحب ، فى طبقة خاصة بهم ، أعلى من سائر البشرية . ولم تكن هناك حاجة فى نظرها للاتصاف بهذه الأدواق ، بشرط أن يستطيع المرء الكلام عنها باستفاضة . وعندما يقول لها رجل ما على مائدة عشاء : إنه يجب أن يجوب الأزقة ، ويغطفى الغبار والتراب يديه فى محلات الأثاث العتيق ، وإنه لا يكثرث بالعصور ذات القيمة التجارية ، تعود إلى بيتها وهو تقول :

- إنه لشخص رائع ، شديد الحساسية ! لم أكن أظنه كذلك !

ثم نحس نحوه بصداقة وثيقة ، ولكن من ناحية أخرى ، كان أمثال سوان ممن يملكون الذوق الرفيع فعلاً ولكنهم لا يشدقون به ،

لا يحركون عواطفها . وكانت تعتقد فعلاً أن سوان شديد المسخاء بماله ، ولكنها تردف ذلك بقولها متندمة :

— ولكن ذلك ليس ما عنيت بالدوق الرفيع .

فما يجذبها ليس التزاهة ، بل التشديق بها !

ولما كان قد شعر بهذا ، وبأنه لا يستطيع أن يتيح لها المتع التي تعلم بها ، لذا كان يحاول على الأقل أن يكفل لها السعادة في صحبته ، ألا يعارض أفكارها السوقية ولا ذوقها الفاسد الذي كانت تكشف عنه في كل مناسبة ممكنة ، وهو ذوق كان يحبه من أجلها لأنه لا يسمعه إلا أن يجب كل شيء يصدر منها ، فعيوب المرأة المحبوبة تبرز تفرداً أكثر مما تبرزه محاسنها ! وهكذا عندما تكون في حالة انتعاش لأنها ذاهية لرؤية « الملكة توباز » Reine Topaze ، أو عندما تكون عيناها جادتين ومضطربتين إن خشيت التأخر عن معرض الزهور ، أو حتى لجرد التأخر عن موعد الشاي مع القبطائر والتوست في محلات الشاي بشارع « رويال » — حيث تعتقد أن تناول الشاي هناك بانتظام أمر لا غنى عنه ، لأنه يضيئ على المرأة الشهادة المتمددة بأناتها ووجاهتها ، عندئذ يستطير السرور سوان لهذه السذاجة ، مثلاً يستخفنا جميعاً السرور أمام مسلك طفل برىء ، ويقبل على عشيقته بكل مرح وبشاشة ، ليقول لها :

— أوه ! إذن أوديت الصغيرة تريد منا أن نأخذها إلى معرض الزهور . أليس كذلك ؟ وتريد أن يعجب بها الناس هناك ؟ وهو

كذلك ! سنأخذها إلى هناك ، فليس في وسعنا إلا أن نطيع رغباتها : ولما كان نظر سوان قد بدأ يضعف ، كان لابد له أن يلبس نظارة ، عندما ينكب على العمل في المنزل : أما عندما يواجه العالم فإنه يستخدم مونوكلا (نظارة زجاجية لعين واحدة) لأنه أقل تشويهاً للوجه . وعندما رأته لأول مرة بهذا المونوكل لم تتألم نفسها من شدة الطرب وصاحت :

— أعتقد أنه ، أعني بالنسبة لرجل ، شيء غاية في الوجاهة ! كم تبدو وسيماً ! كل سنتيمتر فيك يقول إنك جنتلمان . وكل ما يتقصك الآن أن تحصل على لقب !

وكانت نبرتها في العبارة الأخيرة تفيض أمي وحسرة . وكان يجب من أوديت أن تقول هذه الأشياء ، تماماً كما كان يجتمع — عندما أحب فتاة من مقاطعة بريطانيا — أن تبدو في زيها المخلى ، وتقول إنها تؤمن بوجود الأشباح . وهكذا نجد أناساً كثيرين تنمو أذواقهم في الفنون الجميلة مستقلة تماماً عن حساسيتهم الشهوانية : ومن هنا كان هذا التفاوت الجسيم بين ما يرضى كلاً النوعين من الذوق عند سوان ، حتى غدا ذوقه الفني مع الأيام يزداد رهاقة في حين تزداد متعته بمصاحبة نساء يزددن مع الزمن أمية وسوقية . ولذا من الممكن أن تراه يأخذ خادمة يافعة إلى لوج له ستائر في مسرح تعرض به مسرحية منقطعة ، أو إلى معرض للرسوم الانطباعية ، معتقداً أن إحدى نساء المجتمع الراقى ما كانت تريد عنها فهماً لتلك

الوحدات ، ولكنها ما كانت لتلتزم الصمت المريب المذهب مثل هذه الخادمة . أما الآن وقد عشق أوديت ، فقد تغير هذا كله ، وصارت مشاركتها ما تميل إليه مهجة محبة إليه ، حتى أنه صار يحاول أن يجد الرضا والمتعة في الأشياء التي تحبها هي . وصار لا يجد متعة ولذة في محاكاة عاداتها فحسب ، بل أيضاً في اعتناق آرائها . وهذه مسألة أخطر وأعمق ، لأن عاداتها وآراءها لم تكن تابعة من جذور في عقلها أو ذكائها ، ولكنه مع ذلك يعتنقها حباً لها هي ، وصار يفضلها على عاداته وآرائه شخصياً ! وهكذا صار يرتاد حفلات موسيقية معينة - لم تكن تحظر ببالة - لمجرد مشاركتها في ذوقها . وصارت جاذبية اختياراتها أحب إليه من ارتياد الأماكن التي كان يحبها لجمالها الموضوعي ولكنها لا تذكره بأوديت . وكان مع نضجه قد صار شكوكياً ، يعتقد أن الموضوعات التي تعجب بها ليست لها قيمة مطلقة في حد ذاتها ، وأن المسألة كلها مسألة تواريخ ، ووجهات نظر ، وموضات متعاقبة . وأن أشدها سوقية لها نفس قيمة ما تحسبه غاية في الرهافة . ولما كان قد قرر أن الأهمية التي تعلقها أوديت على تلقى بطاقات الدعوة لعرض خاص ليست في حد ذاتها أخف من المتعة التي كان يحسها يوماً ما في التوجه لتناول الغداء مع أمير ويلز ، لذا لم يعتقد أن إعجابها بمونت كارلو أو الريجي Righi ليس منافياً للمعقول أكثر من حبه شخصياً لولندة (التي كانت تخالط قبيحة) ، ولفرساي (التي كان تضجرها إلى حد البكاء) ، ولذا حرم نفسه

لذة الذهاب إلى تلك الأماكن التي يحبها ، معزياً نفسه بأنه إنما يريد ألا يشعر بشيء أو يحب شيئاً إلا ما تشعر به هي وتحبه .

ومثل أي شيء آخر من عناصر بيئة أوديت ، التي تتبع له أكبر الفرص للوجود معها ، صار سوان يستمتع بمجتمع آل فرديران ، بما يستتبع ذلك من كل حفلاتهما ، ومآدب العشاء ، والأمسيات الموسيقية ، والألعاب ، وحفلات العشاء المتأخر في ملابس تنكرية ، والرحلات إلى الريف ، والحفلات المسرحية ، بل والسهرات الموسعة النادرة التي يدعوان إليها « السمجيين » : فما دامت أوديت حاضرة ، ومرآها متاحاً ، والحديث معها ميسوراً ، فهو في غاية السرور لدعوة آل فرديران إياه إلى كل تلك المناسبات ، وإنه يشعر في هذه « الخلية الصغيرة » بمزيد من المتعة أكثر مما يشعر بها في أي مكان آخر ، وجعل يجتهد في تحمل وتوهم المزايا لكل عضو من أفرادها ، متخيلاً أن ذوقه سيحمله على التردد على مجتمعهم سائر حياته . ولم يجسر على أن يهمس لنفسه - حتى لا يداخله الشك - بأنه سيحب أوديت على الدوام ، وإن أوحى لنفسه أنه سيظل يتردد دائماً على بيت آل فرديران (وهو فرض لم يثر في البداية أي اعتراض من جانب ذكائه) وكان يخال نفسه دائماً مستمراً في مقابلة أوديت كل مساء . وإن كان هذا لا يعنى بالضبط أنه سيكون دائماً عاشقاً لها :

ولكن ما دام في الوقت الحاضر يحب أوديت ، فلا محل لتخيل أنه سينقطع يوماً واحداً عن رؤيتها : وكان يقول لنفسه :

- يا له من جو خاص ساحر ، ذلك الذي يعيش فيه هؤلاء الناس بهذه الأصالة ! فهم أذكى ، وأكثر فنية من جميع من أعرفهم . ومدام فرديران (برغم مبالغتها اليسيرة المضحكة) شديدة الإخلاص في حبها للرسم والموسيقى ! وكم هي مولعة بالأعمال الفنية ، وكم هي متلهفة على إدخال السرور على الفنانين ! وآراءها عن بعض الناس الذين أعرفهم ليست صائبة تماماً ، ولكن آراء هؤلاء الناس عن الأوساط الفنية خاطئة تماماً ! ولعل لا أهتم كثيراً بالمستوى الثقافي للأحاديث ، ولكني سعيد جداً بالتحدث إلى كوتار ، برغم غرامه بالتلاعب بالألفاظ والتورية . أما الرسام ، فهو متكلف حين يحاول التفوه بالمفارقات ، إلا أنه من أحسن العقول التي التقيت بها ... ثم إن أهم شيء أن المرء يشعر بنهم حريته هناك ، بحيث يصنع ما يحلو له دون ضغط أو حرج . فما أشد المرح الذي يسود هذا الصالون كل يوم ! وأنا بالقطع لا أرغب في الذهاب إلى أى مكان آخر ، إلا في حالات استثنائية نادرة . وسيصبح ذهابي إلى هناك كل يوم عبادة متأصلة لدى ، وسوف أقضى ما بقى من عمري في صحبتهم .

ولما كانت الصفات التي افترضها جزءاً لا يتجزأ من طابع جماعة فرديران ، ليست أكثر من انعكاس سطحي في الواقع للذة التي استمتع بها في صحبتهم لحبه لأوديت ، إلا أن هذه الصفات صارت

أكثر جدية وأشد عمقاً وحيوية مع زيادة هذه المتعة : فدام فرديران صارت تقدم لسوان ، بين حين وآخر ، الجوهر الأساس لسعادته : ففي ذات ليلة شعر سوان بالقلق لأن أوديت تحدثت مع أحد أعضاء الندوة أكثر مما تحدثت مع سوان ، ويدافع ضيقه لم يظهر المبادأة كالعادة بسؤال أوديت أتود العودة إلى البيت ، وإذا بمدام فرديران تقوم بدور حامية السلام وتسأل أوديت من تلقاء نفسها :

- أوديت ! ستوصلين مسيو سوان إلى بيته . أليس كذلك ؟ ولما حلت عطلة الصيف ، وكان يسائل نفسه أترى ستغادر أوديت باريس بدونها ، وهل سيتاح له في الصيف أن يراها كل يوم ، وإذا بمدام فرديران تدعوها معاً لقضاء الصيف معها في الريف . وهكذا سمح سوان لهذا العرفان أن يتسرب إلى عقله وأفكاره ، وذهب إلى حد المناذاة بمدام فرديران « نفساً عظيمة نبيلة ! » فلو حدث أن كلمه أحد رفاقه السابقين في مدرسة اللوفر للرسم عن فنان نادر مرموق ، لأجابه إنه يفضل مائة مرة آل فرديران ، وأكد له بجدية طارئة عليه :

- إنهما شخصان في منتهى الشهامة والسياسة ، والسياسة بعد كل شيء هي الصفة الوحيدة ذات القيمة الحقيقية على وجه الأرض . وفي رأي أن البشر نوعان : أهل السياسة فئة ، وسواهم فئة أخرى : وقد بلغت السن التي يجب أن أتحاز فيها لفئة منهما ، وأرى الفئتين أحبا وأبيهما أكرهما ، بحيث ألازم من أحبيهم وأعزّس الوقت الذي

أضعته مع غيرهم ، ولا أفارقهم ما حيت . لقد حسم الأمر ، وقررت ألا أحب سوى النفوس السمحة ، التي لا يمكن أن يرقى المرء إليها بدون سمو عقلى . فدام فرديران بلا مرء ذات فهم عميق للفن . ولكن هذا ليس أروع صفاتها ، فكل لفظة وعمل ودى صغير صدر منها لأجل ، مهما بلغت بساطته ، ومهما كان مألوفاً ، يدل على وجود فيه شمولية أكثر من كل ما فى كتبك الفلسفية !

وكان من الممكن أن يذكر نفسه ، على كل حال ، بأن من بين أصدقاء أسرته القدامى من كانوا فى مثل بساطة آل فرديران ، وهم رفاق شبابه ، وكانوا مثلهما أيضاً من حيث الشغف بالفن . ولكنه منذ انحاز نهائياً للبساطة والفن والسياحة ، كف عن رؤيتهم ، ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون أوديت ، ولو عرفوها لما فكروا أبداً فى تقديمها له :

وهكذا لعله لم يعد بين « خالصاء » آل فرديران من يحبهما بكل الإعزاز الذى يحبهما به سوان . ومع هذا فعندما قال مسيو فرديران إنه غير راض عن سوان ، لم يكن معبراً عن رأيه الخاص ، بل كاشفاً عن رأى زوجته أيضاً . أجل إن سوان كان يضمّر إعزازاً خاصاً لأوديت ، ولكنه لم يكشف بذلك مدام فرديران : وهذا التكتّم هو الذى جعله أحياناً كثيرة جداً يعتذر عن عدم حضور مأدبة العشاء لديهما ، لسبب لم يخطر ببالها ، فى الوقت الذى يثلهف على عدم

رفض دعوة إلى بيت بعض « السمجين » ، ثم هناك أيضاً ما اكتشفاه تدريجياً - رغم تكتّمه - عن مركزه المثالى فى المجتمع الراقى : فلا شك أن هذه العوامل مجتمعة أسهمت فى ضيقهما العام بإزاء سوان . ولكن السبب الأساسى كان مختلفاً عن هذا كله ، وهو أنهما اكتشفا لديه باباً موصداً لقسم من نفسه ، يؤمن فيه بخفية أن أميرة ساجان ليست فظلية ، وأن نكات كوتار ليست مسلية . وفى عبارة أخرى ، اكتشفا استحالة فرض معتقداتهما القطعية عليه ، وإدخاله حظيرة إيمانها ، وكان فى وسعهما أن يغفرا له تردده على بيوت « السمجين » (التى يفضل عليها فى أعماق قلبه بيت آل فرديران و « خجلتهما الصغيرة ») لو أنه كان قدوة حسنة لغيره بنبذه هؤلاء « السمجين » وتنديده بهم أمام « الخالصاء » . ولكن هذه الردة كما يعرفان جيداً كانا عاجزين عن انتزاعها منه .

وما أشد اختلافه فى هذا عن « قادم جديد » طلبت أوديت إليهما أن يدعوا . مع أنها شخصياً لم تقابله إلا مرات قليلة ، وكانا يبنيان عليه آمالا كبيرة ، وذلك هو « الكونت دى فور شفيل » ! Comte de Forcheville (واتضح أنه ليس أكثر ولا أقل من زوج أخت سانيت ، وهو اكتشاف مألّ جميع الخالصاء بالدهشة : فسلك دارس النقوش القديمة كان متواضعاً جداً ، بحيث اعتقد الجميع أنه ينتمى إلى طبقة أدنى اجتماعياً من طبقتهم ، ولم يتوقعوا قط أن يعرفوا أنه ينحدر من عائلة ثرية و « أرستقراطية » نسبياً) . وطبعاً

كان فورشفييل صاحب المقام الرفيع الذي لم يكنه سوان ، وطبعاً ما كان ليحلم - مثل سوان - بوضع وسط فرديران فوق سائر الأوساط . ولكنه كان يفتقر إلى الرهافة الطبيعية التي تمتعت سوان من الانضمام إلى الانتقادات التي كانت توجهها مدام فرديران إلى من يعرفهم من الناس . أما عن التفرع السوقي والمفتعل الذي كان الرسام ينغمس فيه أحياناً ، ومزاج التجار المتجولين الذي كان كوتار كثيراً ما ينساق فيه - في حين أن سوان - الذي يحب كلا الرجلين بإخلاص - كان يجد لهما عذراً فيه ، من غير أن يجد الشجاعة للتصديق له . أما فورشفييل فكان على مستوى ثقافي يسمح له بأن يذهل ويدهش لهذه المطاعن (من غير أن يفهم على الإطلاق مراميها) ويضطرب في الوقت نفسه لما فيها من فكاكة . وكان أول عشاء في بيت آل فرديران حضره فورشفييل كافياً تماماً لإلقاء ضوء كاشف تماماً على كل ما بين الرجلين من اختلافات ، بحيث أبرزت مزاياه لدى آل فرديران ، وأسّرت بالتقليل من حظوة سوان :

وكان موجوداً على مائدة هذا العشاء ، إلى جانب المجموعة المعتادة ، أستاذ في السوربون ، يدعى « بريشو » Brichot ، وكان قد التقى بمسعود مدام فرديران في أحد أماكن الاستشفاء بالمياه المعدنية . ولولا أن واجباته في الجامعة وأعماله العلمية الأخرى لا تترك له فراغاً كبيراً ، لسره أن يأتي لنيهما مراراً كثيرة .. فهو من ذلك الطراز المتحرر في نظرته إلى الحياة ، مع قدر من الشك في موضوع ومجال

دراسته . وهو طراز يجعل من الأطباء كافرين بالطب ، ومن المعلمين كافرين بمجذوى التطبيقات المدرسية ، فيكتسب هذا الصنف من الناس سمعة الذهن المتألق وسعة الأفق . وكان يعتمد عندما يكون في صالون مدام فرديران أن يختار أمثلة لآرائه من أبرز موضوعات الساعة ، عندما يتحدث عن التاريخ أو الفلسفة ، لأنه يعد هذين العلمين مجرد تعميده للحياة نفسها ، وتحيل أنه يرى تطبيق ما تعلمه من الكتب حتى الآن في ممارسات هذه « العشرة الصغيرة » . وكان يجد سروراً في توهم خلع روب الجامعة عندما يتحدث بتحرر وبأسلوب الحديث العادي عن موضوعات حفظها وحشا بها دماغه منذ صباه . وفي مرحلة مبكرة من العشاء ، قال المسيو دي فورشفييل الجالس عن يمين مدام فرديران (التي كانت احتفاءً بالقادم الجديد قد عثيت عناية فائقة بزيئها) .

— كم هو طريف في أصالته هذا الثوب الأبيض !

وكان الدكتور لا يحول عينيه عنه ، لشدة فضوله إلى معرفة طبيعة وخصائص رجل من الطبقة التي يسبق اسمها كلمة « دي » ، ويتلهف على فرصة يلتفت فيها نظره ، كمن يزداد اتصالاً به ، والتقطت أذناه كلمة « أبيض » ، فعلق على ذلك بتورية لفظية ليس لها مناسبة ولا طعم . فابتسم سوان ابتسامة مختصة تنبئ عن رأيه في سخافة هذه التورية . أما فورشفييل فأبدى على الفور إعجابه بها ، فراق ذلك مدام فرديران . وسألت فورشفييل

— ما رأيك في عالم على هذه الشاكلة ؟ إنك لا تستطيع أن تتحدث إليه حديثاً جاداً لمدة دقيقتين متتاليتين .

وأردفت ملتفتة إلى الدكتور :

— أهذا هو نوع الكلام الذى تقوله للناس في مستشفىك ؟ لا بد أنهم يستمتعون بالمرح هناك ، إن كان الحال هكذا . وهذا يغربني بدخول مستشفىك كمریضة !

فقال أستاذ السوربون بريشو لمدام فرديران التى استبد بها السرور حتى أنها أغلقت عينيها بإحكام ، ودفت وجهها بين يديها ، ومن بينهما كانت تطلق صيحة بين الحين والحين :

— أظننى سمعت الدكتور يذكر اسم هذه النصابة الشريرة « بلانش دى كاستيل » Blanche de Castile . أليس كذلك يا سيدتى ؟

وراح الأستاذ يلقى بحثاً مستفيضاً عن الخفايا التاريخية لهذه المرأة ، فسأل فورشغيل ربة الدار :

— من هذا السيد ؟ يبدو أنه يتحدث عن خبرة عظيمة .

— ماذا ؟ أتريد أن تقول إنك لا تعرف بريشو الشهير ؟ إنه ذائع الصيت في أوروبا بأسرها !

فصاح فورشغيل وهو يثبت عينيه الجاحظتين على ذلك الرجل الشهير :

— أهذا هو بريشو إذن ؟ ما أطرف أن يقابل المرء المشاهير

على مائدة العشاء . ولكنك يا سيدتى والله الحجد تحسنين تخبر ضيوفك ، فلا يشكو أحد الملل في أمسياتك :

فقالت لمدام فرديران بتواضع :

— الأمر وما فيه أن ضيوفى يشعرون هنا بالأمان . ففى وسعهم أن يتحدثوا عن أى شىء يخطر ببالهم ، فتتلقى الأحاديث كالألعاب النارية . ولكن بريشو هذه الليلة ليس فى أوجه المعتاد . وقد رأيت فى مناسبات أخرى غاية فى التألق ، وعندئذ توشك أن تجشو على ركبتيك أمامه . ولكنه عندما لا يكون معى وحدنا لا يكون فى أفضل حالاته ، وتكاد تحتاج إلى جذب الكلام من فمه ، وربما بدا مملاً .

فقال فورشغيل بدهشة تناسب المقام :

— ما أغرب هذا !

وكانت نكات بريشو من نوع يبدو لسوان وخطائه فى باكورة حياته ضرباً من الغباء أو البلاهة الذهنية ، لو هن علاقتها بالذكاء الحقيقى . وقد تأثر سوان بمعاييرهم إلى حد أنه لم يستطع النظر بعين الرضا إلى مزاح بريشو ، الذى بدا له متحذلقاً ، وسوقياً ، وجلفاً بصورة مقززة . وقد صدمه أيضاً — وهو الذى ألف معاشره ذوى السلوك المهذب — ما لمسه من فجاجة تعبيراته التى تكاد تشبه لغة ثكنات الجندين ، أياً كان الشخص الذى يتحدث إليه .

ولعل سوان — أخيراً — كان قد نفذ صبره وهو يراقب لمدام فرديران ترحب بكل هذه الحرارة التى لا مبر لها ولا ضرورة

بذلك المدعو فورشفيل ، الذي خطر لأوديت - لسبب لا يدريه - أن تأتي به إلى هذا البيت . وشعرت أوديت بالحرج بسبب وجود سوان ، فسألته :

- ما رأيك في ضيقي ؟

وفجأة أدرك سوان للمرة الأولى أن فورشفيل ، الذي عرفه منذ سنوات ، يمكن بالفعل أن يجتذب امرأة ، وهو نموذج حسن للرجل ، فأجابها :

- شنيع !

وطبعاً لم يخطر له ببال أن يغار على أوديت ، ولم يشعر بالسعادة كعادة ، وعندما شرع بريشو يخبر الحاضرين بقصة أم « بلانش دي كاستيل » ، التي كانت حسب روايته « تعاشر هنرى بلنتاجينييه Henry Plantagenet سنوات طويلة قبل أن تتزوج شرعاً ، ثم سأل سوان ليستدرجه للالتفات إلى حديثه :

- أليس كذلك يا ميسو سوان ؟

فاعتذر سوان بقلة اهتمامه ببلانش دي كاستيل ، وانصرف إلى الرسام يسأله عن موضوع آخر . والظاهر أن سوان كان قد ذهب بعد ظهور ذلك اليوم نفسه إلى معرض رسوم فان آخر ، وهو أيضاً من أصدقاء مدام فرديران . وكان هذا الرسام قد توفي منذ قليل . وأراد سوان أن يستفسر من الرسام الجالس بجواره (لأنه كان يقدر حصافته وحسن تمييزه) هل في هذا المعرض الأخير ما يتجاوز

التبوغ أو المهارة والحذق اللذين لفتا أنظار الناس بشدة البالغة في معارضه الباكرة :

وقال سوان باسمًا :

- من ناحية الحذق ، كان المعرض خارقاً للمعتاد ، ولكن لم ينجح إلى أن ما رأيته في هذا المعرض شكل من أشكال الفن التي يمكن أن نسميها « رفيعة » :

فقاطعه كوتار رافعاً ذراعيه متصنعاً الوقار :

- رفيعة ... إلى مستوى المعهد العلمي !

فانفجرت المائدة كلها بالضحك ، وقالت مدام فرديران لفورشفيل :

- ماذا قلت لك ؟ مستحيل أن يكون المرء جاداً معه - فعلى حين غرة ، تبدر منه النكتة !

ولكنها لاحظت أن سوان ، دون سواه ، لم يضحك : فهو لم يكن مسروراً للغاية من أن كوتار أضحك الحاضرين عليه أمام فورشفيل . ولكن الرسام بدلاً من الرد على سوان بطريقة تتمشى معه أو تثير اهتمامه - كما كان خليقاً أن يصنع لو أنهما كانا وحدهما - آثر أن يكسب إعجاباً سهلاً في نظر الآخرين ، بالتكتيك على موهبة صديقهم الراحل . قال :

- لقد ذهبت إلى أحد معارضه ، لحيرت مشاهدة صنعته ، ودمست أفتى في لوحاته : ولكني لم أستطع أن أؤمن أروعها بالرسام ،

أم بالصايون ، أم بالشمع الأحمر ، أم بضوء الشمس ، أم الخميرة ، أم البراز ! ... بل يبدو أنه لم يرسمها بشيء إطلاقاً ... أجل كانت رانحتها على ما يرام ، ويمكن أن تدبر رأسك ، وتجعلك تلهث :: ولكنك لن تعرف أبداً كيف رسمها ولا بأى شيء رسمها . إنه رجل ساحر ، أشبه بالخواة ، وعمله يبدو معجزة خارقة . ولكنه (وانفجر ضاحكاً) غشاش !

وفيا عدا اللحظة التي تلفظ فيها بكلمة « البراز » - وعندئذ ألقى فورشفيل نظرة مختلة على من حوله ليتأكد أن الأمر على ما يرام ، قبل أن يفتر عن ابتسامة مجازاة محتشمة - كانت المجموعة كلها (اللهم إلا سوان) مثبتة أعينها بكل انتشاء على شفتي الرسام ؟ وصاحت مدام فرديران ، عندما فرغ من كلامه ، وهي شديدة السعادة بأن أحاديث المائدة بلغت هذا الشأو البديع ليلة قدوم فورشفيل :

— كم أحبه عندما يخلق في الهواء على هذا النحو !

والفتت نحو زوجها قائلة :

— ماذا بك يا صاحبي الجالس هناك ؟ إنك فاغر الفم كأنك

حيوان كبير !

واستدارت نحو الرسام ، وقالت :

— ولكنك تعرف أنه يحسن الكلام عندما يريد . ومن يراه

الآن يحبه يسمعك الليلة للمرة الأولى . ولو رأيته وأنت تتكلم لرأيته

يشرب كلامك شرب الظائم . وغداً سيعيد على مسامعنا كل ما قلته ، لا يغفل منه حرفاً واحداً .

فاتحج الرسام قائلاً ، وقد طرب لنجاح حديثه :

— لا لست مازحاً في الحقيقة ! كلكم يبدو عليكم أنكم حسيتموني أنخر ، أو أحاول خداعكم بأضحوكة - سأخذكم لتروا المعرض بأنفسكم ، وعندئذ ستعرفون هل كنت أهزل وأبالغ أم كنت جاداً ، ومستعد للرهان بأى شيء بأنكم ستخرجون من هذا المعرض وأنتم أشد مني حيرة !

فقال مدام فرديران :

— ولكننا لم نخطر ببالنا لحظة واحدة أنك تبالح . وكل ما هناك أننا نريد لك أن تكمل عشاءك ، وكذلك زوجي . (للنادم) أعسط المسبو بيش سمكة موسى أخرى . ألا ترى أن سمكته بردت ؟ نحن لسنا متعجلين ، وأراك تندفع حول المائدة كأن حريقاً شب في البيت . تمهل قليلاً ، ولا تقدم السلطة الآن :

وكانت مدام كوتار امرأة عجولاً ، لا تتكلم إلا نادراً ، إلا أن اللغة بالنفس لم تكن تنقصها عندما يسوق إليها الإلهام كلمة مناسبة ، وتحسن أنها ستقابل بقبول حسن . وكانت تجد الشجاعة عندئذ للكلام لا رغبة في التألق ، بل رغبة في تحسين مركز زوجها . وهكذا لم تترك كلمة « السلطة » التي تفوهت بها مدام فرديران تمر بدون تعليق ، فهمست لملفتة نحو أوديت :

— إنها ليست سلاطة يابانية . أليس كذلك ؟

ثم قاض سرورها الطفلى لتوفيقها فى مزج النكتة المحتشمة
لالتعريض الواضح بمسرحية المسيو ديما Dumas الجديدة اللامعة ،
فانفجرت فى ضحك فائن طفلى ليس عالياً جداً ، ولكنه قوى عميق
بحيث انقضت فترة قبل أن تتمكن من السيطرة عليه .

وسأل فورشفيل :

— من هذه السيدة ؟ إنها فيما يبدو ذكية بارعة .

فأجابته مدام فرديران :

— لا . إنها ليست كذلك . ولكننا سنحضر لك واحدة بهذه

الصفة إن جئت لتناول العشاء يوم الجمعة القادم .

وقالت مدام كوتار لسوان :

— إنك قد تظننى ريفية جداً يا سيدى ، ولكن أتعلم أنى لم

أذهب بعد لمشاهدة هذه المسرحية الشهيرة «فرانسيون» Francillon

التي يتحدث عنها الجميع . أما الدكتور فقد ذهب لمشاهدتها (وأندكر

الآن لم كان استمتاعه بتمضيته الأسمية هناك معك) ويجب أن أعترف

أننى لا أجد من المعتقد أن ينفق مالا ثمناً لمقعدى كى يصحبنى إلى

هناك . ما دام قد شاهد المسرحية بالفعل : أجل إن قضاء أمسية فى

«المسرح الفرنسى» لن تكون مضية لوقت أو المال : فالتخيل هناك

جيد دائماً . ولكن لنا نقرأ من ألطف الأصدقاء ، الذين لم لوج فى

معظم الليالى ، ويتكلمون بأخذنا معهم إلى كل المسرحيات الجديدة

التي تستحق المشاهدة . ولذا فأنا واثقة بأنى سوف أرى مسرحية
«فرانسيون» هذه إن عاجلاً أو آجلاً ، وعندئذ أستطيع أن أكون
عنها رأياً : ولكنى مع هذا أشعر بأنى مغفلة — وأنى أعترف بهذا
صراحة — كلما قمت بزيارة أحد هنا أو هناك ، وإذا بالجميع يتحدثون
— وهذا أمر طبيعى — عن تلك السلاطة اليابانية . حتى أن المرء بدأ
يميل سماع الحديث عنها ،

ولاحظت أن المسيو سوان أقل اهتماماً مما كانت تأمل بمثل هذا
الموضوع الساخن ، ولذا استطردت قائلة :

— ولكنى لا بد أن أعترف أن طريقة مزاحهم حول هذا

الموضوع مسلية . فلى مثلاً صديقة غاية فى الطرافة والأصالة ، مع

أنها امرأة جميلة جداً فى الواقع ، ومشهورة للغاية ، فى المجتمع ، وتذهب

إلى كل مكان ، وقد قالت لى إنها جعلت طبختها تعبد طيقاً من

السلاطة اليابانية ، ووضعت فيها كل ما قال المسيو ديما الشاب فى

مسرحيته أنك يجب أن تضيفه إليها . ثم دعت مجموعة من الأصدقاء

للحضور كى يتذوقوها . ويؤسفنى أن أقول إننى لم أكن من بين

هذه القلة القليلة المحظوظة ، ولكنها أخبرتنا بكل ما جرى فى يوم

«استقبالها» التالى ، إذ يبدو أن هذه السلاطة كانت فظيعة الطعم

جداً ، وجعلنا وصفها نضحك حتى دمعت عيوننا :

ولما رأت المسيو سوان ما زال عابساً ، أردفت فى تردد :

— ولعل ما أضحكنا هو طريقة سردها...

ثم خطر لها أن سبب تهجم المسيو سوان قد يكون عدم سروره بمسرحية «فرانسيون» فقالت مستدركة :

- ومن يلدرى ، ربما لم ترقى هذه المسرحية ، بل لعلها تخيب أملى ، ولست أحسبها بعد كل شيء فى مثل جودة المسرحية التى تهتم بها مدام دى كريسى (أوديت) وهى «سيرج بانين» Serge Panine : فهى مسرحية شديدة العمق ، وتحملك على التفكير ! ولكن تخيل الأدلاء بوصفة عمل نوع من السلاطة على خشبة المسرح الفرنسى ! أما سيرج بانين ، فهى طبعاً مثل أى شيء ينشئه قلم المسيو جورج أونيه G. Ohnet ، فهى مكتوبة بليجادة وإتقان . وإنى لأتساءل هل شاهدت «المعلم الحداد» التى أفضلها أيضاً على «سيرج بانين» ؟

فقال المسيو سوان ، فى سخرية مهذبة :

- عفوك ياسيدتى ! ولكنى أؤكد لك أن عدم إعجابى موزع بالتساوى بين كل هذه الروائع !

- الحقيقة أن هذا شيء طريف حقاً ومثير للاهتمام . وما الذى لا يروقك فيها ؟ ألن تغير رأيك فيها أبداً ؟ لعلك تظن أن موضوعاتها عذرة أكثر مما يجب .. ومن رأيي دائماً أن المرء لا ينبغي أن يناقش أحداً فيما يتعلق بالمسرحيات أو بالروايات ، فكل إنسان لديه طريقته الخاصة فى النظر إلى الأشياء : وما قد يكون فظيهاً فى نظرك ، قد يكون أحب ما يمكن فى نظرى !

وقطع عليها كلامها صوت فورشفيل مخاطباً سوان . وما حدث هو أنه بينما كانت مدام كوتار تناقش فى شأن مسرحية «فرانسيون» كان فورشفيل يعرب لمدام فرديران عن إعجابه بمحدث الرسام ، قائلاً لها :

- صدديق هذا لديه موهبة التدفق اللغوى ، مع ذاكرة عجيبة ! ونادراً ما رأيت شيئاً كهذا ، ولو اشتغل بالوعظ لكان واعظاً من الطراز الأول . كنت أتمنى - وإيم الله - لو كنت هكذا ، وأراك فزت بجائزتين رابحتين هذه الليلة بدعوتك هذا الفنان والأستاذ بريشو ، وإن كنت أعتقد أن الرسام يخطف الأضواء من الأستاذ فى بعض الجوانب . فالكلام يتدفق من فيه بسلاسة طبيعية ، ولا يخطر ببالك أنه كمن يقرأ فى كتاب . وإن كان طبعاً يستخدم بعض ألفاظ واقعية أكثر مما ينبغي ، ولكن هذه هى «الموضة» هذه الأيام . وأنا على كل حال لم أسمع منذ وقت طويل أحداً يملك ناصية الخطابة فى مثل براعته . أو «يحمل المصقة» كما كنا نقول ونحن فى الجيش ، وبهذه المناسبة أراه يذكرنى بزميل كان معنا فى الكتيبة . كان فى وسعك أن تختارى أى شيء : وليكن هذا الكوب ، وتدفعينه إليه ، فيسترسل فى الكلام عنه ساعات وساعات . كلا ! ليس هذا الكوب فهو اختيار ضعيف ، ولكنى أعنى شيئاً أكبر من هذا الكوب ، وليكن معركة واترلو مثلاً ! أو أى شيء من هذا القبيل . وتأكدى

أنه سيقول لك أشياء لا يمكن أن تصدقها . وكان معنا في المكتبة في ذلك الوقت سوان ، ولا بد أنه يعرف هذا الشخص .

فسألته مدام فرديران :

— أترى المسيو سوان كثيراً ؟

فأجابها :

— لا ، وربي !

ثم تذكر أنه إذا تطفل مع سوان ربما راق ذلك أوديت ، فقرّر أن ينتهر هذه الفرصة كي يتملقه ، بالحديث عن أصدقائه الوجهاء ، ولكن بما أنه شخصياً من رجال المجتمع ، فقد تحدث بلهجة الناقد المترفق ، لا بلهجة من بيتي سوان على حسن طالع لا يستحقه ؛ قال :

— أليس هذا صحيحاً يا سوان ؟ أنا لم أعد أراك . أليس كذلك ؟ ولكن أين بحق الله يمكن للمرء أن يراه ؟ إنه يقضى وقته كله في أماكن مغلقة مع أصدقائه من آل تريمويل Trémouilles ، ومع آل لوم Laumes ، ومن لف لفهم !

وهو اتهام كان من الممكن أن يكون غير صحيح في أى وقت ، ولكنه الآن أمعن في البتآن وقد مضى على سوان أكثر من عام وقد تخلّى عن الذهاب إلى أى بيت تقريباً عدا بيت آل فرديران . ولكن ذكر أسماء الأسر التي لا يعرفها آل فرديران قوبلت لديهما بصمت مشحون بالوم .



بينما كانت مدام كوتار تتناقش في شأن مسرحية « فرانسيسون »
كان فورشفيل يعرب لمدام فرديران عن إعجابه بصديق الرسّام . .

وخشى المسيو فرديران من الوقوع المؤلم على زوجته لذكر هؤلاء « السمجين » ، ولا سيما أن هذا حدث بتلك الصورة الخسالية من الذوق ، وفي حضور « اللصماء » ، فرمقها بنظرة مختلطة كلها تعاطف وقلق ومناشدة أن تتشجع ، فتيين لم يمتها أنها قررت عدم إلقاء بالها إلى ما حدث وما سمعت ، وكأنه لم يبلغها شيء من الأنباء التي وجهت إليها ، فكأنها أصيبت بالصمم ، كما يفعل المرء حين يذكر أمامه اسم خصم يكون ذكره أمامه من المحرمات . وهكذا أفرغت مدام فرديران صحتها من كل أمارات الحياة ، الراضية والرافضة على السواء ، قبلما يجينها صفحة صافية لم يعكرها ذكر آل تريموي وآل لوم هؤلاء ، الذين يقضى المسيو سوان جل وقته مختلياً بهم . وكل ما هناك أن تغضنا يسيراً أعترى أنفها فوسع من متخريها . وكان يخيل إليك أن شفتيها المنفرجتين تهمان بالكلام : ولكن الحقيقة أن ملاعها كلها كانت كتمثال جامد من الشمع ، يصلح للعرض في « قصر الصناعة » بالمعرض العام ، نموذجاً مجسماً لأنفة آل فرديران في مواجهة تماثيل آل تريموي وآل لوم ، وكيف أنها نذ لها ، (إن لم تكن أفضل منهما) ولكل « السمجين » الآخرين على وجه الأرض جماء ! لقد كان جودها وبياضها في هذه اللحظة جديرين بالبايا !

ولكن التمثال الجامد تحرك في النهاية لكي يعبر عن ازدرائه لحساسية من يردد على بيوت كهذه ، الزوجة فيها مخمورة دائماً ،

والزوج غير متعلم : وختمت مدام فرديران كلامها وهي ترمق سوان بمنتهى التعالي :

— ستغرم مبلغاً باهظاً من المال لكي تغريني بالسباح لأى واحد من هذه الطلقة بأن تطفأ قدمه أرض بيتي !

ولم تكن تتوقع منه أن يسلم بوجهة نظرها تسليمًا كاملاً ، بحيث يردد أصداؤه السذاجة التي تكلمت بها عمة عازف البيانو ، التي صاحت على الفور :

— ما أعجب هذا ! إن ما يدهشني أن هؤلاء الناس يغرون أى أحد بالاقتراب منهم . أنا شخصياً أخشى الاقتراب منهم . ولا يمكن للمرء في هذا أن يكون مفرطاً في الحذر . ولا أدري كيف يمكن لأحد أن يبلغ به اللسوقية إلى حد الجرى وراءهم ، أو الترائى عليهم ! ولكنه كان يستطيع — على الأقل — أن يقول مثل فورشيل :

— رياه ! إنها دوقه . ولم يزل هناك أناس كثيرون يبهرون هذا اللقب .

وكان ذلك يتيح لمدام فرديران الرد النهائي :

— وما أجدى هذا عليهم !

ولكن بدلاً من هذا ، اكتفى سوان بالابتسام ، بصورة تفيد أنه لم يكن باستطاعته طبعاً أن يأخذ مثل هذا القول مأخذ الجد . أما المسيو فرديران للذي كان لا يزال يلقى نظرات مختلطة ومتقطعة نحو زوجته ، فتيين أنها الآن في حالة غضب وغيظ شديدين . وكأنها رئيس محكمة

التفتيش وقد شعر بالعجز عن تحقيق هرطقة . ولذا فعل أمل حمل سوان على الارتداد قال :

— قل لنا الآن بكل صراحة ما رأيك شخصياً في هؤلاء الناس ونحن طبعاً لن نخبرهم بما تقول .

فرد عليه سوان قائلاً :

— أنا لست خائفاً على الإطلاق من اللدقة (إن كنتم تتحدثون عن مدام دي تريوى) . فإني أستطيع أن أؤكد أن كل امرئ يجب أن يذهب لزيارتها .. ولست أعني بهذا أنها « حبيقة » (وتفوه بهذه الكلمة وكأنها تعني شيئاً خيفاً أو مضحكاً) ، بل أنا صادق جداً في قولي إنها ذكية ، أما زوجها فهو فعلاً دودة كتب . لأنهم ناس ممتازون .

وكان كلامه بالغ الأثر حقاً . وأدركت مدام فرديران الآن أن هذه الحالة من الزندقة ستحول دون تمتع « عشيرتها الصغيرة » بوحدة الرأي التامة . ولم تستطع أن تتألك نفسها ، لشدة غضبها من عناد هذا التعس الذي عجز عن تبين مدى ما يسببه لها بكلماته هذه ، فصاحت بصوت عال ، من أعماق قلبها المعذب :

— لك أن تعتقد هذا إن شئت ، ولكنك على الأقل ما كان ينبغي أن تقول هذا لنا !

وشعر فورشفيل أن دوره كان كفى يكون أليماً ، فقال :

— الأمر كله يتوقف على ما الذى تعنيه بالذكاء ، فسر لنا الآن يا سوان ما الذى كنت تعنيه بأنها سيدة ذكية ؟

فصاحت أوديت :

— هاك ! هذه مسألة من المسائل الكبرى التى طالما رجوته أن يحدثنى عنها ، ولكنه كان يأبى هذا دائماً .

فاحتج سوان قائلاً :

— أوه . ولكن ...

فقالت أوديت :

— أوه ، ولكن هذا هراء !

وواصل فورشفيل كلامه قائلاً :

— هل الذكاء فى نظرك ما يسمونه الكلام البارع ، فأنت تعرف نوع الناس الذين يزحجون المجتمع ويمهلون سبيلهم فيه . وقالت مدام فرديران لسانيت بجفاء ، وقد رأته استغرق فى التفكير وكف عن تناول طعامه :

— انته من تناول طبق الحلوى ، كفى يتسنى للخدم رفعه ...

ثم لعلها خجلت من قضاظتها فعادت تقول له :

— لا بأس . خذ كل وقتك . فلننا متعجلين . ولكنى قلت

لك هذا من أجل الآخرين ، لأن هذا الأخير يعطل الخدم ...

فشرع بريشو يتكلم متشدقاً بكل مقصود فى كلامه :

— هنالك تعريف غريب للذكاء أورده هذا الفوضوى المتع

فينيلون Fenelon

فقلت مدام فرديران لفورشفيل والدكتور :

— أنصت إلى هذا الكلام ! إنه سيذكر لنا تعريف فينيون للذكاء . وهذا شيء طريف . ولا تسنح فرص كثيرة لسماحه .

ولكن بريشوكان يدخر تعريف فينيون إلى ما بعد تفوه سوان بتعريفه . وظل سوان صامتاً . وبهذه الخيانة الجديدة أفسد مباراة الجدل التي كانت مدام فرديران سعيدة بتقديمها إلى فورشفيل .. لكن أوديت قالت بعناد :

— ها أنتم ترون أنه فعل معكم كما يفعل معي . ولست آسفة لأنني أرى أني لست الوحيدة التي لا يجدها ترتفع إلى مستواه .

وتسامل بريشو ، وهو يضغط على الألفاظ :

— هل آل دي لا تريموى التي أظهرت مدام فرديران لنا أنهم غير مرغوب فيهم ، ينحدرون من سلالة من قالت عنهم تلك المتفينة دي سيفينييه Seigné إنها سرت بمعرفتهم ، لأن ذلك مفيد جداً لفلاحيهما ؟ وطبعاً كان لدى المركيزة دي سيفينييه سبب آخر لهذا القول ، لأنها كانت في أعماقها محفوية ممتازة . وكانت الدوقة دي لاى تريموى هي التي تمولها بأسرار السياسة الخارجية ، التي تبعث بها يوماً إلى ابنتها .

فقلت مدام فرديران بياأس :

— لا يا عزيزي . لا . أنا واثقة بأنها ليست من نفس هذه الأسرة .

أما سانيت ، الذي كان منذ تخليه عن طبقه من غير أن يمسسه لكبير الخدم ، فقد استغرق مرة أخرى في التأمل الصامت ، ثم استقر رأيه على أن يحكى لهم — وهو يضحك ضحكة عصبية — كيف تعيش ذات مرة مع الدوق دي لا تريموى ، وخلاصة هذه الحكاية أن الدوق دي لا تريموى لم يكن يعرف أن « جورج ساند » اسم مستعار لامرأة . ولما كان سوان يجب سانيت حياً حقيقياً فقد شعر بأن من واجبه أن يقدم له بضع حقائق تبين مدى ثقافة هذا الدوق ، بحيث يتضح أن مثل هذا الجاهل من جانبه مستحيل استحالة ثامة . بيد أنه امتنع عن ذلك ، وقد أدرك أن سانيت ليس بحاجة إلى هذا الدليل ، وأنه يعرف أن تلك القصة المزعومة غير صحيحة ، لسبب بسيط ، وهو أنه اخترعها لساعته ! وكان هذا الرجل الفاضل (سانيت) يقاسى من أن آل فرديران يعدانه شديد الغباء ، ولما كان هذه الليلة أشد اكتئاباً من العادة ، فقد قرر أن يبدو ظريفاً مرة واحدة على الأقل ، قبل نهاية العشاء ، ولكنه لم يلبث أن استسلم بسرعة ، وبدا نعساً وهو يرى القصر الذي شاهده ينهار ، ورد على سوان بصوت هزيل ، متوسلاً إليه ألا يلح في تفنيد لا لزوم له :

— وهو كذلك : وهو كذلك ! حتى ولو كنت ارتكبت غفلة

فليس هذا جرماً ، فيا أنمحي !

فرغب سوان في مواساته ، بالتأكيد على أن الحكاية صحيحة بلا شك ، وأنها فضلاً عن هذا مضحكة جداً ...

وبعد العشاء اتجه فورشفييل صوب الدكتور ، وقال له :

— لا يمكن أن تكون مدام فرديران في شبابها دمية . وهي على كل حال امرأة يمكنك أن تتحدث إليها ، وهذا كل ما أريده .
وأما مدام دي كريسي ، فهناك امرأة صغيرة تعرف الأصول :
وأقسم بشرفي أنك تستطيع بنظرة واحدة ذات عينين أمريكيتين !
وقال موضحاً لمسيو فرديران عندما لحق بهما وغيلونه في فقه :
— كنا نتحدث عن مدام دي كريسي . وفي رأي أنها عينة ممتازة للأثوثة .

وقال كوتار في تعثر :

— أنا أفضل أن تقاسمني في فراشي ، على أن يقاسمني فيه الرعد والبرق !

وسر فورشفييل للتكنة الخفية التي كان الدكتور منذ مدة يتحضر لإلقائها ونحشى أن يتحول الحديث إلى موضوع آخر ، قبل أن يلقى قطعة محفوظاته ! أما المسيو فرديران فاستطاره المرح ، وراح يهتر من شدة الضحك ، ثم أخذ يسعل ، وقد جعله الضحك يبتلع جانباً من دخان غليونه . وبإبقائه الغليون في فقه استطاع أن يطيل مشهد الضحك إلى حد الاختناق ! أما زوجته ، مدام فرديران ، فكانت في الطرف الآخر من القاعة تصغي للحكاية يرويها لها الرسام ، وقد

أغلقت عينيها وخجأت وجهها بين يديها . فكان الزوجان أشبه بقناعين من أقمعة المسرح ، يمثل كل منهما الكوميديا ، ولكن بطريقة مختلفة :
وكان المسيو فرديران أحكم مما يظن بتشبته بغيلونه في فقه ، لأن كوتار استأذن في الخروج من القاعة لحظة وهو يتفوه بكناية تعلمها أخيراً وصار يردها كلها هم بالذهاب إلى دورة المياه :
— لا بد لي من الذهاب « لحاسبة القاضي » برهة !

وكانت لهجته مضحكة ، حتى كاد يخنق المسيو فرديران مرة أخرى من شدة الضحك : وقالت له مدام فرديران التي أقبلت تدور على الضيوف بصنية ليكير :

— أخرج غليونك من فمك وإلا اختنقت وأنت تحاول كتمان ضحكك بهذا الشكل :

وقال فورشفييل لمدام كوتار :

— ما أظرف زوجك ! إنه بارع النكتة :

وقال وهو يتناول كأس الليكير :

— شكراً لك : ألف شكر ! جندي قديم مثلي لا يمكن أن يقول لا لكأس شراب :

وقال المسيو فرديران لزوجته :

— المسيو دي فورشفييل يرى أوديت فاتنة :

فقال مدام فرديران لفورشفييل :

— أتدري أنها راغبة جداً في أن تقابل مرة أخرى ذات يوم

على الغداء ؟ ولابد أن ترتب ذلك ، ولكن إياك بأى حال أن تدع سوان يعرف شيئاً عن هذا ، فهو يفسد كل شيء ، كما تعلم . ولست أعنى بهذا ألا تأتى للعشاء أيضاً ، بالطبع . فنحن نتمنى أن نراك مراراً كثيرة جداً . وها هو الجو الدافئ قادم ، وسوف نناول العشاء خارج البيت كلما أمكننا هذا . ولا أظن ذلك يضجرك : عشاء صغير هادئ ، بين الحين والحين ، فى الغاية ؟ عظيم . عظيم جداً ! سيكون هذا رائعاً . وصاحت فجأة بعازف البيانو ، وقد وجدها فرصة لكى تظهر أمام « قادم جديد » فى مثل أهمية فورشفيل ذكاءها الملاح ، وروح فكاهتها ، وسلطانها الدكتاتورية على « الخلقاء » :
 - ألن تقوم الليلة بأى عمل ؟

وحذرت مدام كوتار زوجها لحظة دخوله القاعة :
 - لقد كان المسيو دى فورشفيل بصدد أن يقول عنك شيئاً قبيحاً :

وكان كوتار لم يزل مشغول البال بموضوع « نبالة » فورشفيل ، منذ أول السهرة . ولذا قال له الآن :

- إنى أعالج الآن بارونة : البارونة « بيتيبس » Putbus ، ألم يكن فى الحروب الصليبية أفراد من آل بيتيبس ؟ إنهم على كل حال يملكون بحيرة فى بوميرانيا Pomerania تبلغ مساحتها عشرة أضعاف مساحة ميدان الكونكورد : وأنا أعالجها من التهاب المفاصل الجاف ، وهى امرأة فائقة : وأعتقد أن مدام فرديران تعرفها :

فأتاح هذا الحديث لفورشفيل ، بعد لحظة ، عندما وجد نفسه على انفراد مع مدام كوتار ، أن يتم لها رأيها فى زوجها قائلاً :

- إنه رجل طريف أيضاً ، فهو يعرف بعض عليّة القوم ! رباه ... لابد أن هؤلاء الأطباء يعرفون أشياء كثيرة :

وسأل عازف البيانو مدام فرديران :

- أريدتني أن أعزف تلك الجملة من السوناتا للمسيو سوان ؟

فصاح المسيو دى فورشفيل ، محاولاً إثارة المرح :

- أتمنى ألا تكون سوناتة الثعبان !

ولكن الدكتور كوتار ، الذى لم يكن سمع هذه التورية من قبل فائته نكبتها ، وظن المسيو دى فورشفيل قد ارتكب خطأ ، فاندفع بصحبه قائلاً :

- لا . لا . لا . المقصود هو الثعبان ذو الأجراس !

فشرح له فورشفيل ما يقصده ، فاحمر وجه الدكتور : وقال فورشفيل :

- اعترف يا دكتور أن النكتة ليست رديئة .

- أوه ! أنا أعرفها منذ زمن بعيد !

وساد الصمت ، مع بداية العزف للجملة الموسيقية من سوناتا فانتى : واتجه إليها سوان بكل مشاعره ، وراح يخاطبها من أعماق قلبه ، وكأنه يقضى لصفية أسرار هواه : وكأنها الجملة الموسيقية صديقه

لأوديت يمكن أن تؤكد له أنه لا موجب للاهتمام بهذا الثقل المسعى فورشفيل :

ورحبت مدام فرديران بأحد « الخلاء » ، وكانت قد وجهت إليه الدعوة للمرور بالصالون بعد العشاء ، قائلة له :

— آه ! لقد حضرت متأخراً أكثر مما يجب ! لقد كنا نحظى بحديث من بريشو وهو في قمة التجلي ! وبقينا لم يسبق لك أن سمعت مثل هذه البلاغة ! ولكنه انصرف . أليس كذلك يا مسيو سوان ؟ وأنا أعتقد أن هذه أول مرة تقابله فيها . ألم يكن بريشو رائعاً الليلة يا مسيو سوان ؟

فألحني سوان بهذيب شديد . فسألته بخفاء :

— كلا ؟ ألم تكن مهتماً بما قاله ؟

— أوه : بل أؤكد لك أني انتشيت جداً به . ولكن لعله أشد خفة وزناً مما يروقي : وأتني أن أراه أحياناً وهو أقل ثقة بنفسه ، وأكثر تسامحاً . ولكن المرء يشعر دائماً أن هذا الرجل يعرف الشيء الكثير ، وهو على العموم يبدو لي شخصاً لا غبار عليه إطلاقاً .

وانفض الحفل الساهر في بيت آل فرديران في وقت متأخر جداً تلك الليلة . وكانت أول كلمات كوتار لزوجته :

— قلنا رأيت مدام فرديران في مثل هذه الصورة :

وقال فورشفيل للرسم ، وكان قد أركبه معه في عربته :

— ما هي حقيقة صاحبك مدام فرديران هذه ؟

وأما أوديت فرأت فورشفيل ينصرف وهي كارهة ، فلم يكن في وسعها أن تتجاسر على رفض صحبة سوان لها إلى بيتها ، ولكنها كانت ضيقة الصدر متوترة الأعصاب وهي معه في عربته . وعندما سألتها أيمكنه الدخول معها قالت :

— أظن هذا !

وهي تهر كفتها في نقاد صبر :

وعندما تم انصراف الجميع ، قالت مدام فرديران لزوجها :

— هل لاحظت الطريقة التي كان سوان يضحك بها ، وم كانت ضحكته بلهاء ، عندما تحدثنا عن مدام لاتريموي ؟

وكانت قد لاحظت ، أكثر من مرة كيف كان سوان وفورشفيل يخذلان الحرف « دي » من أمام اسم تلك السيدة . ولم يخامرها الشك أن ذلك كان عن عمد ، ليظهرا مدى عدم تنبيهما من فخامة اللقب ، ولذا قررت أن تحذو حذوهما وتحاكيهما في غطرستهما تلك واستعلاتهما ، إلا أنها لم تدر أي ضيقة نحوية يقتضيها ذلك الحذف : ولذا كانت تقول دائماً « دي » « لاتريموي » ، بدلا من « لاتريموي » مثل الجمهوريات المتطرفات ، أما ذكر حرف « دي » فلا يد أن تسبقه كلمة « السيدة » أو « مدام » أو « الدوقة » : وكانت أحيانا تقول بدون « دي » :

— مدام لاتريموي :

ثم تردف ذلك قائلة في صغرية كالمستدركة :

— أو اللدقة ، كما يسميها المسيو سوان !

وتتسم ابتسامة صفراء ، متبرقة من هذا التحديد الطبقي السخيف ، وكأنها تقول : إن العهدة في هذا الكفر على سوان ، وناقل الكفر ليس بكافر .

واستطردت تعلق على ابتسامة سوان ، قائلة لزوجها :

— أنا لا أبالي أن أقول : إنني أحسبه غاية في الغباء !

والتقط المسيو فرديران هذا الخيط فقال :

— إنه ليس مخلصاً . بل هو شخص شديد الدهاء ، ودائم التراجع من هذا الجانب إلى ذاك الجانب : يحاول في الوقت نفسه الجري مع الأرب ، والمطاردة مع كلاب الصيد التي تقتنى أثره ! وما أعظم الفرق بينه وبين فورشفيل : فقورشفيل على الأقل رجل يحرك على الفور ، وبصراحة ما هو مكنون فكره : ولك الخيار في أن توافقيه أو تخالفيه : وهو في هذا ليس كالأخر (سوان) الذي لا يكشف القناع عن موقفه قط : أهو مع الثوران أم مع القتل : فهل لاحظت بهذه المناسبة أن أوديت شديدة التفاهت على فورشفيل ؟ وأنا شخصياً لست ألومها . ثم إذا كان سوان يتظاهر أو يفرض نفسه علينا بصفته رجل الأناقة والوجاهة ونصير الدوقات المنكودات ، فإن الآخر (فورشفيل) على الأقل صاحب لقب من ألقاب النبالة : فهو على كل حال « الكونت دي فورشفيل » :

وتفوه بهذه الكلمات في رهاقة ، وكأنه خبير بالسلالات النبيلة : يقوم بتقويم « السلعة » أو « العينة » موضوع الحديث ! فقالت مدام فرديران :

— أنا لا أبالي أن أقول إنه غامر بالتفوه ببعض التعريض السخيف بيريشو : فهو طبعاً حين رآه موضع حفاوة في هذا البيت ، أراد بالظن فيه أن يشوه تدوتنا ويفسد حفلتنا : وأنا أعرف هذا الصنف من الضيوف أصدقاء الأسرة ، الذين يمزقونك إرباً وهم منصرفون على سلم دارك !

فأجابها زوجها :

— ألم قل لك هذا ؟ إنه ببساطة شخص قاسل ، يمضي في الحياة وهو ينضح بل يطفح غيرة وحسداً لأي شيء كبير الشأن !

ولو عرفت الحقيقة ، لانتضح أنه ما من واحد من « الخلفاء » إلا وهو شر من سوان ، ولكن الآخرين حريصون على تغطية أو تمويه شرهم بالمزاح السطحي ، وبمظاهر الولاء والتزلف . أما تحفظ سوان فكان يبدو لصاحبي الدار علامة على الخيانة والغدر !

وهكذا الحال أيضاً بين المؤلفين : فهناك مؤلفون يمتازون من ذوى الأصالة يظن الناس حريتهم في التعبير منفرة ، لأنهم لم يبدعوا بتعلق الذوق العام ، ولم يستخدعوا في أسلوبهم الصيغ الشائعة التي اعتادها الجمهور : وبعين هذا الأسلوب أثار سوان غضب المسيو

فرديران . فطرفة أو جدة لغته على هذا الوسط هي التي جعلت هذا الوسط المعين يرتاب في خلوص نيته ويظن به سوء :

وكان شوان ما يزال غير شاعر بالنعمة التي تهدده في بيت آل فرديران ، وظل ينظر إلى مخافات هذين الزوجين بتسامح ، بل بمودة واستحسان ، لأنه كان يراها بعيني حبه وإعجابه بأوديت ، وكانت القاعدة أنه لا يرتبط بمواعيد مع أوديت إلا في المساء ، ذلك أنه كان يخشى أن تحمله أوديت لو أنه زارها أثناء النهار أيضاً ، وكان في الوقت نفسه لا يريد أن يخسر - ولو ساعة واحدة - المكان الذي يحتله في تفكيرها ، وكان دائماً يتسقط فرصة لاستغاثات نظرها واسترعاء اهتمامها ، بأي طريقة غير منفرة لها : فإذا لفتت نظره في واجهة محل أزهار أو جواهر نبات أو حلية ، فكر على الفور في إرسالها إلى أوديت ، متخيلاً أن المتعة العابرة التي أحسها في رؤيتهما ستشعر هي أيضاً بها شعوراً غريباً ، فيزداد إعزازها له : ويأمر على الفور بإرسالها إلى شارع « لا بيروز » على وجه السرعة ، تعجلاً للحظة التي ينقله فيها الخيال إلى المثل بين يديها في صورة هديته ، ليستمتع بفرحها :

وكان شديد الحرص على أن تتلقى هداياه هذه قبل خروجها لتقضاء الأمسية ، لكي يضيف هذا العرفان شيئاً إلى حرارة ترحيبها به عندما يصل إلى بيت آل فرديران . بل لعل صاحب المتجر إن أسرع بإرسال الهدية كما يتمنى هو ، أن يحفرها هذا على إرسال خطاب



وكان شديد الحرص على أن تتلقى هداياه هذه قبل خروجها لتقضاء

الأمسية ، لكي يضيف هذا العرفان شيئاً إلى حرارة ترحيبها به .

إلى سوان قبل العشاء . أو ربما وجدها شخصياً على عتبة بابه ، قادمة لزيارة فوق العادة على سبيل الشكر والعرفان . وكما كان في المرحلة الأولى يقوم بالتجارب على ردود أفعالها بالغضب أو الازدراء ، صار يحاول الآن بهذا التقرب إليها بالهدايا أن يستخرج منها مشاعرها الداخلية التي لم تكن قد كشفت عنها بعد .

وفي أحيان كثيرة كانت تضيق بحاجتها إلى المال ، وتحت ضغط الدائن قد تأتي إليه طلباً للمساعدة . وكان يستمتع بهذا مثل استمتاعه بكل شيء . يمكن أن يوحى إلى أوديت بحبه لها ، أو بنفوذ ، حسباً تدعو حاجتها إلى ذلك :

ولعله لو كان أحد قال له في البداية :

— إن مركزك هو الذى يجذبها إليك .

أو قال له قائل في المرحلة الراهنة :

— إن مالك هو الذى تعشقه هى فى الواقع :

لما صدق هذا القول : ولكن حتى لو صدق هذا الاحتمال ، لما سبب له أى معاناة أن يكتشف أن حب أوديت له كان قائماً على أساس أمتن وأبقى من الإعزاز ، أو أى صفات جذابة يمكن أن يجدها فيه : مثل المصلحة التجارية الراضية ، وهى مصلحة يمكن أن تؤجل إلى الأبد اليوم المشؤم الذى يستويها فيه أن تضاع نهاية لعلاقتها : وهو فى الوقت الحالى إذ يغدق عليها الهدايا ، ويسدى إليها كل أنواع الخدمات ، إنما يعتمد على مزايا ليست جزءاً من

شخصه أو ثقافته ، بل هى محاولات لجعل نفسه أشد جاذبية لها . وهذا السرور بكونه عشيقة لها ، يعيش بالحب ولحب وحده ، وإن كان مرتاباً فى حقيقة هذا الحب ، يزيد من قيمة هذا الحب فى نظره بكثرة ما يقدمه فى سبيله من جهد ومال : على نحو ما يقتنع شخص كان يشك فى جمال منظر البحر بمبلغ هذا الجمال عندما يدفع عن طيب خاطر مبلغاً جسيماً أجراً لكل ليلة فى غرفة بفندق تطل على الشاطئ ، ومن نافلتها يستمتع بمنظر البحر وصوته ، فيشعر كم هما جديران بكل تضحية !

وذاث يوم ، ساقته خواطر من هذا القبيل مرة أخرى إلى تذكر ما كان قد قاله له أحد الناس عن أوديت ، من أنها محظية أو خلية يحوزها الرجل لقاء راتب متفق عليه : وداعبه تصور « المحظية » وما فى صورتها من مزيج متلون بألوان قوس قزح لصفات مجهولة وشيطانية ومزركشة ، وكأنها إحدى تصاوير جستاناف مورو Gustave Moreau ، التى تقطر فيها أزاهير غريبة سماً ، وقد تخللتها الجواهر الثمينة : ويقارن بين هذا التصور وبين أوديت التى عرفها وكَم قرأ على ملاحظها أمارات الرحمة لشقاء شئى ، وأمارات السخط على فعل جائر ، وأمارات العرفان لعمل من أعمال الرفق والحنان ، وكَم تشبه الأمارات التى رآها طفلاً على محيا والدته ، وعلى وجوه صديقات محترمت مصونات : أوديت هذه التى كثيراً ما دارت أحاديثها حول أمور هو شخصياً أعرف بها من سواه :

مثل مجموعاته الفنية ، وحجراته ، وخادمه المسن ، وصيرفيه الذى يحتفظ له بكل أوراقه المالية ومستنداته :

وذكره تفكيره بهذا الصيرفى بأنه لا بد أن يمر عليه قريباً لكي يسحب مبلغاً من المال . ولئن كان فى الشهر الحالى قد قلل من مخائنه فى معاونة أوديت فى متاعبها المالية عما كان عليه الحال فى الشهر الماضى (الذى أعطاهما خلالهما خمسة آلاف فرنك) ، ولئن أحجم عن إعطائهما قلادة ماسية كانت تصبو إليها ، فهو بذلك يتيح لها التعجب من تقلص مخائنه ، ويقلل من عرفائها الذى كان مصدر سعادة كبرى له . بل إنه بذلك يغامر بأن تتخيل أن حبه لها (كما كانت تراه فى مظاهره الملموسة) قد تناقص : وعندئذ سأل نفسه فجأة أليس ما كان يصنعه معها هو ما يعنيه الناس بحيازة خليعة ؟ وهل ليس من الممكن إطلاقاً هذه التسمية على أوديت منذ عرفها (لأنه لم يستطع أن يتصورها تقبل نقوداً من رجل قبله) ؟ ولم يستطع أن يمضى أكثر من هذا فى استقصاء هذه الفكرة ، لأن فكره توقف عن الاشتغال بها فجأة ، على نحو ما يتوقف الضوء الكهربى (الذى دخل البيوت أخيراً) بمجرد الضغط على زر صغير .

وظل ذهنه يعسفس فى الظلام لحظة ، فخلع نظارته ، ومسح زجاجتيها ، ومر بيده على عينيهِ ، ولكنه لم يجد أى ضوء إلا عندما وجد نفسه وجهاً لوجه أمام فكرة مختلفة تماماً ، وهى أن يحاول فى الشهر القادم أن يبعث إلى أوديت بست أو سبع أوراق نقد من ذات

الآلاف فرنك بدلاً من خمس ، على سبيل المفاجأة السارة لها لا أكثر . وفى المساء ، عندما لا يمكنك بالبيت إلى أن يحين وقت لقاء أوديت فى بيت آل فرديران ، أو فى أحد المطاعم بالخواء الطلق التى يحجون ارتيادها فى الغابة ، ولاسيما فى سان كلو Saint - Cloud ، فإنه يذهب ليتعشى فى أحد البيوت الراقية التى كان يوماً ما ضيفاً دائماً عليها . فلم يحجب أن يفقد اتصاله بالناس الذين يمكن أن يكونوا ذوى نفع يوماً ما لأوديت ، ولم يزل فى استطاعته بفضلهم وعن طريقهم أن يحصل لها على خطوة أو متعة تريدها . يضاف إلى هذا أنه تعود منذ زمن طويل على الرفاهية وأساليب الترف فى المجتمع الراقى ، فصار ذلك يمثل لديه حاجة ماسة وملحة إلى غشيانه . حتى أنه عندما وصل إلى المرحلة التى صار يستوى فى نظره أفخم قصور الأمراء ، وأشد المساكن تواضعاً ما دامت أوديت موجودة به ، أسى مع هذا لا يدخل البيت المتواضع من غير إحساس عميق بعدم الراحة . ويحدث هذا له عندما يدعى - ولا يفكر فى رفض الدعوة - إلى حفل راقص بشقة عادية يصعد إليها السلام حتى الطابق الخامس ، ويدق الباب الأيسر ، على نحو ما يشخص لحضور حفل راقص فى قصر أميرة بارم Parme ، التى كانت تقيم أفخم الحفلات الراقصة بباريس على الإطلاق . إلا أنه لم يكن يشعر أنه حقاً فى حفل راقص عندما يجد نفسه وسط قطع من الآباء فى حجرة نوم ربة الشقة ، ويلاحظ أحوال غسيل الوجه التى غطيت بالمشاكير ، وعندئذ

الأسرة إلى حجرات المعاطف ، تعلوها أكاداس من القبعات . فيشعر عندئذ بمثل شعور من تعود طيلة حياته على النور الكهربى عندما يجد نفسه فجأة في مكان تضيئه شمعة أو مصباح يترول يتصاعد منهما الدخان الخالق الحارق للعيون !

وإذا كان سيتسنى في الخارج ، أمر بحضور عربته في منتصف الساعة الثامنة ، ويتسائل وهو يبذل ثيابه عما تفعله الآن أوديت : وبهذه الطريقة لم يكن يشعر بالوحدة أبداً ، لأن تفكيره المتصل في أوديت كان يضيئ على لحظات اقترافه عنها نفس السحر الذى للحظات وجودها بجانبه : ويستقل عربته وينطلق بها ، وهو مدرك أن تفكيره فيها قفز معه إلى العربة واستقر على ركبته ، وكأنه حيوان أليف مدلل يأخذه معه إلى كل مكان ، ويستقيمه معه على مائدة العشاء ، من غير أن يلحظ رفاقه على المائدة وجوده : ويمد يده فيدله ويربت عليه ، ويستدفئ به : وعندما ينتابه شعور بالوهن تند عنه رجفة تقيض لها عضلات حلقه وخياشيمه ، وهو يثبت في عروته باقة الأزهار الصغيرة :

وهو منذ فترة من الزمن لم يشعر بالعافية ولا السعادة ، ولا سيما منذ أحضرت أوديت فورشفيل إلى بيت آل فرديران . ولذا كان يتمنى لو سافر للاستجمام بعض الوقت في الريف : ولكنه لم يستطع قط استجماع همته لمغادرة باريس ، ولو لمدة يوم واحد ، ما دامت أوديت موجودة بها : وكان الطقس دافئاً ، لأن تلك الفترة كانت

أجمل فترات الربيع : ومع هذا كان يمر بعربته وسط شوارع مدينة صخرية ، ليدخل بيتاً لا حديقة له ولا أعشاب حوله . في حين أن ما يترأى دائماً أمام عينيه هو بستان يملكه قرب كبراي ، حيث يتسنى له في الساعة الرابعة بعد الظهر قبل الوصول إلى حوض الإسبرجس ، بفضل النسيم الذى يهب عبر الحقول من « ميزجليز » ، أن يستمتع بعبير الهواء المنعش ، سواء أكان تحت أيكة في الحديقة ، أو على شاطئ البركة التى تحف بها الأزاهير : وهناك في ذاك البيت عندما يجلس إلى مائدة العشاء ، تحف به باقات الورد التى أعدها يد البستاني الصانع :

وبعد العشاء ، إذا كان لديه موعد ميكروفي الغاية أو في سان كلو ، ينهض عن المائدة التى كان ضيفاً عليها ويغادر الدار على عجل - ولا سيما إذا كان الجو ينذر بالمطر ، وبذلك يفرض عقد الجماعة قبل الأوان المعتاد - فتقول الأميرة ديه لوم Des Laumes مستاءة (حيث تأخر تقديم العشاء حتى أن سوان غادر القصر قبل تقديم القهوة ، لكي ينضم إلى جماعة آل فرديران في الجزيرة بالغابة) :

— لو كان سوان أكبر سناً ما هو بثلاثين سنة ، ومصاباً بالسكر ، لكان له بعض العذر في الإسراع بالانصراف . أما هكذا فواضح أنه يستهين بنا !

وأقنع نفسه بأن صبر فصل الربيع الذى لم يستطع التمتع به في كبراي ، في وسعه على الأقل أن يجده في جزيرة السحج أو في

سان كلو : ولكن لما كان تفكيره منحصراً في أوديت ، لذا كان عند عودته إلى بيته لا يدري هل تذوق عبير الأوراق الجديدة على غصون الأشجار : وهل كان القمر ساطعاً أم لا ! ويستقبله عازف البيانو بالجملة الموسيقية من السوناتة ، معزوفة على بيانو المطعم — أو الحديقة . فإن لم يوجد بيانو في الحديقة ، اتخذ آل فرديران الإجراءات اللازمة لإحضار بيانو من حجرة بداخل المطعم ، لا لأن سوان عاد إلى الخطوة — فهذا لم يحدث — بل لأن ذلك التدبير يسر الزوجين صاحبي الدعوة : وبين الحين والحين يحمل سوان نفسه حملاً على تذكر الربيع ، ويلقي باله إلى الأشجار والسماء : بيد أن حضور أوديت كان يكفي كي ينتابه شعور محموم قلباً فارقه الآن ، يحرمه من العلمات اللازمة للإحساس بمظاهر الطبيعة :

و ذات مساء ، وقد وافق سوان على تناول العشاء مع آل فرديران ، ذكر سوان على المائدة أنه مضطر في اليوم التالي لحضور مأدبة سنوية احتفالاً برفيق قديم ، وإذا بأوديت تصبح على الفور عبر المائدة ، أمام الجميع ، وأمام فورشفيل — الذي كان قد أمسى من «الخلاص» — وأمام الرسام ، وأمام كورتار :

— نعم . أعرف أنك ستحضر هذه المأدبة غداً ، وأنتى سوف لا أراك إلا بعد عودتي إلى البيت : فاجتهد ألا تتأخر كثيراً !
ومع أن سوان لم يكن قد استاء استياء جدياً من قبل لما تظهره أوديت أحياناً من أمارات الصداقة لأحد «الخلاص» ، إلا أنه شعر

بفرح غامر عندما سمعها تعترف علناً على هذا النحو ، أمامهم جميعاً ، وبكل « قلة حياء » أنها يتقابلان بانتظام كل مساء ، وأنه يحتل هذا الموضع الممتاز في بيتها ، وما يتطوى عليه هذا من تفضيل له : أجل إن سوان كان كثيراً ما فكر أن أوديت ليست امرأة غير عادية ، وأن تفضيله لامرأة أدنى منه كثيراً ليس فيه ما يطريه عندما يذاع ذلك على رعوس الأَشْهاد . ولكن بما أنه لاحظ أن أوديت تبدو فاتنة ومرغوبة لرجال كثيرين غيره ، لذا تمنى أن يقرن جاذبيتها الجسدية التي تتيحها له بالاستحواز الكامل على كل ذرة من فؤادها ، ومنذ هذا الحين وهو يعلق أهمية كبرى على تلك اللحظات التي يقضيها في بيتها كل ليلة ، وقد أجلسها على ركبتيه ، وراح يسألها عن رأيها في هذا الأمر أو ذاك ، معتزاً بهذا الكثر الذي أصبح يحرص عليه دون سائر ممتلكاته الدنيوية . ولذا فإنه بعد الانتهاء من العشاء انتحى بها جانباً ، وعنى بشكرها شكراً جماً ، كي يشعرها بمدى قدرتها على إدخال السرور على نفسه ، وأن أقصى متعة له في الدنيا أن يأمن لذعات ونزعات الغيرة وعذابها :

* * *

ولما انصرف من المأدبة في الليلة التالية ، كان المطر ينهمر مدراراً ، وكانت عربته مكشوفة ، فعرض عليه أحد الأصدقاء أن يوصله إلى بيته في عربته المقفلة : ولما كانت أوديت بإصرارها على قدومه إليها قد أفهمته أنها لا تنظر استئذاناً ، لذا كان في وسعه

— بسبب المطر — أن يذهب إلى بيته ويأوى إلى فراشه مطمئناً : ولكنه تخشى أن تسيء فهم عدم حضوره ، وتظنه غير حريص على أن يحكم كل أمسية ، بلا استثناء في صحبتها . وربما ترتب على هذا أن تتحرر هي أيضاً من التقيد به ، ولا تخصصه باليلة التي يتمناها بالذات :

وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة حين وصل إلى بابها : وبينما هو يعتذر إليها ، لأنه لم يتمكن من القدوم قبل ذلك ، شكت إليه من أن الوقت متأخر فعلاً ، وأن العاصفة أصابها بوعكة وصداع ، وأندرت به بأنها سوف لا تسمح له بأكثر من نصف ساعة ، ولا بد أن تصرفه عند منتصف الليل . وبعد قليل قالت إنها مجعدة وتريد أن تنام : فسألها :

— ألا « كاتالاي » (كناية عن الجماع) الليلة إذن ؟ لقد كنت طول السهرة أمني النفس بلذة « الكاتالاي » !

ولكنها لم تستجب لتوسله ، وقالت بعصبية :

— لا يا عزيزي . لا « كاتالاي » الليلة . ألسنت تراني على غير ما يرام ؟

— ربما أفادتلك الكاتالاي وأصلحت مزاجك ! ولكنني لن أزعجك !

وطلبت إليه أن يطفىء النور قبل انصرافه . وفعلاً أحكم الستائر حول فراشها ، ثم غادرها متصرفاً . ولكنه ما إن صار في بيته ، حتى

خطر له فجأة أن أوديت ربما كانت تنتظر قدوم أحد آخر هذه الليلة ، ولذا تذرعت بالتوعل والتعب ، وما طلبت منه إطفاء النور وهو منصرف إلا لكي توقع في روعه أنها ستنام ، في حين أنها ، ما إن غادر هو بيتها حتى بادرت بإشعال النور وفتحت بابها للشخص الآخر المجهول الذي سيكون ضيف أحضانها هذه الليلة !

ونظر إلى ساعته ، فإذا به قد فارقتها منذ نحو ساعة ونصف ، فخرج ، وركب عربة أجرة وأوقفها قرب بيتها في شارع صغير يصنع زاوية قائمة مع شارعها الخلقى ، وهو الشارع الذي كان من عادته أن يسلكه أحياناً لكي يدق على نافذة مخدعها كي تنهض وتذهب لتفتح له الباب الأمامي ويدخله خلسة . وغادر عربة الأجرة : وكانت الشوارع هناك خالية تماماً ومظلمة : ومشى بضع خطوات حتى صار في مواجهة بيتها من الخلف تماماً : ورأى صف النوافذ المتشابهة مظلمة كله ، وقد أطفئت جميع الأنوار منذ وقت طويل ، ما عدا نافذة واحدة ليس إلا ، كان النور يتدفق من بين وصوص مصرعيا المغلقين كما تغلق عصارة النبيذ على عصيرها الذهبي الثمين الخفى : وهو نفس النور الذي كثيراً ما كان يبتهج في الليالي الأخرى حين تكتحل به عيناه عندما يهل على رأس الشارع ، فيعلم أنها ساهرة في انتظار قدومه . ولكن هذا النور نفسه كم عذبه الليلة وكأنه يهيب به :

— إنها هناك ، مع الرجل الذي كان تأمله

آه ! لابد أن يعرف من هو هذا الرجل !

ومشى على أطراف أصابعه لصق الحائط إلى أن صار عند النافذة : ولكن وصاوص النافذة المائلة لم تسمح له برؤية شيء بداخلها . ولكنه سمع فقط - في سكون الليل - همهمة حديث :

ويا للعذاب الذى انتابه وهو يرقب ذلك الضوء ، الذى كان يتحرك فيه الاثنان ! وراح يصغى للهمهمة التى كشفت له عن وجود ذلك الرجل الذى تسدل داخلا بعد خروجه ، وكشفت له غدر أوديت والمذات التى تتلوثها الآن مع هذا الغريب !

ومع هذا لم يكن أسفاً لقدومه . وكان العذاب الذى دفعه لمغادرة بيته قد فقد حدثه ، عندما زايه الشك . فحياة أوديت الأخرى التى كان يرتاب فى وجودها ها هى قائمة أمام سمعه وبصره ، يكاد يضع يده عليها ، واضحة كل الوضوح فى ضوء المصباح ، فى هذه الحجره التى يمكنه أن يقتحمها عنوة فيضبط هذه الحياة الخفية : أو لعل الأفضل أن يدق على مصراعى النافذة ، كما فعل مراراً عندما كان يحضر فى وقت متأخر ، وسوف تدرك أوديت على الأقل من هذه الإشارة أنه عرف كل شيء ، وأنه رأى الضوء وسمع الأصوات . فى حين أنه ، وهو الذى كان يصورها منذ برهة تضحك منه ، وتشارك هذا الرجل الآخر السرور بخداعها له ، ها هو قد صار فى موقف الساخر منهما ، سوف تعرف أنه رأهما متلبسين بالخطأ والخيانة ، وليس على مسافة كيلومترين كما كانت تظنه . بل

ها هو هنا حاضراً بشخصه ، وعلى وشك أن يطرق مصراعى النافذة . ولعل ما شعر به (وهو شعور يكاد يكون ساراً) فى تلك اللحظة كان شيئاً أكثر من الارتياح لانهاء هذا الشك على أى وجه ، فبرغم ألم هذا اليقين أحسن لذة عقلية ناجمة عنه .

ولئن كانت حدة الجاذبية التى لأوديت قد خفت قليلاً ، فقد حلت محل ذلك الشعور ملكات أخرى رنحت فيه منذ حدثته وفترة دراسته ، تتركز حول الابع بالحقيقة ، إلا أن هذه الحقيقة التى صار يهيم بها لا تخصه وحده ، بل هى مشتركة بينه وبين عشيقته ، وتشمل أنوارها منها وحدها : فهى حقيقة من نوع خاص وشخصى جداً ، موضوعها الوحيد المائل القيمة ، ذو الجلال المطلق ، هو « أوديت » : أوديت فى أوجه نشاطها وبيئتها ، ومشروعاتها الحالية والمستقبلية ، وماضيها :

وفى فترة أخرى من حياته كانت كلمات الحياة اليومية لشخص آخر ، وأفعال وتصرفات هذا الشخص تبدو عديمة القيمة تماماً فى نظر سوان : وفى حالة إعادة مثل هذا اللغو على مسامعه كان يراه بلا معنى . وأما إن أصغى له فهو لا يعيرد إلا أدنى مستويات ذهنه : أما فى هذه المرحلة الجديدة الغريبة من حبه فقد تضخمت جداً صورة المعشوقة وصارت لها أعماق بعيدة ، فاستبد به الفضول لمعرفة أصغر تفصيلات مشاغلها اليومية ، وصار ظمأه إلى هذا بديلاً من عطشه القديم لدراسة التاريخ : وكل الأساليب التى كان فيها ينعكس

عنها في خزي - مثل التجسس هذه الليلة خارج نافذة ، والتحرى غداً من الخدم ورشوتهم بالمال ، والتصنت على الأبواب - صارت اليوم مشروعة ومباحة في نظره ، تماماً مثل انكيا به القديم على حل وتفسير النقوش الغامضة ، والتيش عن الوثائق وما إلى ذلك من وسائل البحث العلمي : أجل صارت لهذه الوسائل الدنيئة الجديدة قيمة ذهنية لأنها سبل - وإن كانت ملتوية - للوصول إلى الحقيقة : ولما رفع يده وهم بالطرق على مصراعي النافذة شعر بوخزة خزي ، مصدرها تفكيره في أوديت وأنها ستعرف الآن أنه شك فيها ، وأنه عاد ، ووقف تحت نافذتها يتلصص عليها : وكثيراً ما قالت له من قبل كم تفرع من الرجال الغيورين ، ومن العشاق الذين يتجسسون . وما بهم يفعل الآن يمكن أن يكون في منتهى الخرق ، ويمكن أن تحتقره أوديت وتحقته بسببه إلى الأبد بعد ذلك . أما إن امتنع الآن عن الطرق ، فربما ظل له في قلبها بعض الحب ، حتى وهي منهمكة في خيانه مع الآخر . وما أكثر ما يهدر الآخرق سعادة مستقبلة في سبيل إلحاح نفاذ صبره الذي يتطلب إرضاء فورياً ! ولكن رغبته في معرفة الحقيقة كانت أقوى ، وبدت له أنيل وأجدر بالاستجابة لها من اشتباهه لأوديت ورغبته فيها . وكان يعرف أنه كان مستعداً أن يضحي بحياته في سبيل استقصاء القصة كاملة وبدقة ، وسبيل معرفتها هو ما وراء هذه النافذة التي يتسرب من شقوقها الضوء . وتلهف على إشباع جوعه إلى معرفة هذه الحقيقة . ثم لعل



النشوة التي يصبو إليها لم تكن في معرفة الحقيقة ، بقدر ما كانت في أن يبين لها أنه « يعرف » .

وشب على أصابع قدميه ، وطرق النافذة مرة : ولم يسمعا ، فطرق مرة أخرى ، بصوت أعلى ، فتوقف الحديث الدائر بينهما ، وسمع صوت رجل - وأرهف أذنيه جيداً ليميز صوت من يكون من بين أصدقاء أوديت الذين يعرفهم - يسأله :

— من الطارق ؟

ولم يستطع التأكد من هوية صاحب الصوت : فطرق مرة ثالثة . وسمع صوت فتح زجاج النافذة ، ثم مصراعها الخشبيين : ولم تعد هناك فرصة للتراجع : وبما أنها لا بد أن تعرف كل شيء : وحتى لا يبدو خسيساً أو غيوراً وفضولياً ، صاح بصوت غير مبال وفيه مرح وترحيب :

— أرجوك ألا تزعج نفسك . لقد تصادف مروري من هنا ، ورأيت الضوء ، فأردت أن أعرف هل تحسنت حالتك الآن أم لا : ورفع بصره إلى أعلى ، فرأى رجلين في مواجهته مطلين من النافذة ، وفي يد أحدهما مصباح : واستطاع أن يرى الحجرة من خلفهما ، فإذا هي حجرة لم يقع عليها بصره قط من قبل !

وكان قد تعود ، عند حضوره متأخراً لزيارة أوديت ، أن يتعرف على نافذتها بأنها النافذة الوحيدة المضيئة في هذه الساعة في

صف من النوافذ المتشابهة تماماً . فانخدع هذه المرة بالضوء ، وطرق نافذة تالية لنافذتها ، في بيت ملاصق لبيتها !

وأسرع يقدم الاعتذرات التي استطاعها وانصرف على عجل إلى داره . وقد استخفه الفرح لأن إشباع فضوله قد أبقى على حبه سليماً لم يمس : ولأن ما كان يخامره أحياناً وهو في خلوة مع أوديت من بوادر عدم الاكتراث قد تبخر الآن تماماً بنيران ما استولى عليه من غيرة ، فكان ذلك دليلاً دافعاً على فرط شغفه وتدلّفه في حبها :

* * *

ولم يبح لها قط بهذه المغامرة الفاشلة ، بل وكف هو شخصياً عن التفكير فيها : ولكن بين الحين والحين كانت خواطره الهائمة على وجهها تتوقف عند هذه الذكرى ، وتبعث فيها الحياة ، وتعمق أثرها في وعيه ، وتسبب له وخزاً شديداً للإيلام : وكان ذهن سوان يعجز عن تخفيف هذا الألم المعنوي وكأنه ألم جسمي ، لأنه مستقل تماماً عن مجال العقل الذي يمكنه أن يتخذ موضوعاً يتأمله ويتدبره ، إلى أن يلاحظ أنه تضاعف من تلقاء نفسه ، ثم تلاشى . إلا أن العقل حين يعاود بعد ذلك التفكير فيه يبعثه حياً من جديد. وإذا قرر سوان ألا يفكر فيه ، كان هذا القرار نفسه تفكيراً فيه ! وربما أنساه الحديث مع أصدقائه في أمور أخرى هذا الحادث ، ولكن كلمة عابرة قد تثير ذكره عن غير عمد ، كما يحدث للبرج أن يتعرف

جرحه من جديد من أثر لسة طائشة غير مقصودة من صديق ،
أو حتى من عابر سبيل !

وعندما كان ينصرف من عند أوديت كان يشعر بالسعادة
والهدوء ، ويتذكر الابتسامة التي اقترنت - في محزنة لطيفة - بجديتها
معه عن هذا الرجل أو ذاك . وهي ابتسامة كلها رقة وحنان وموجهين
إليه . ويتذكر الجد الذي يكسو محياها حين يهوى رأسها فوق شفتيه
- وكأنما يحدث هذا رغم إرادتها - كما حدث ذلك منها ليلة قبلتهما
الأولى في العربة . ويتذكر نظرتها الواهنة المسترخية وهي مستكنة
بين ذراعيه ، وقد غاص رأسها بين كتفها كن تلوذ من شدة البرد .
ولكن لا تلبث غيرته - وكأنها ظل حبه لها - أن تمده بتقيض هذه
الابتسامة ألا وهي ابتسامتها التي استقبلته بها تلك الليلة التي امتنعت
فيها عليه لأنها مجعدة . ويتخيلها وقد أطبقت على شفتي رجل آخر
بكل الإعزاز الذي كانت تبذره له شخصياً . وكانت كل هذه
الخواطر والرؤى التي تتوج بها نفسه وهو منصرف ، كأنها اسكنشات
تزوده بها تخيلته لما يمكن أن تتمعه لسواه في صور ودرجات مختلفة
من انقاد العاطفة . حتى أنه صار يندم على كل مداعبة جديدة ابتكرها
في جماعه لها (وكان طائشاً حين نبهها إلى مدى حلاوتها) وعلى كل
فتنة اكتشفها لديها ، لعلمه أنها بعد لحظة ستري حجراته السرية التي
تردح بأدوات التعذيب عند انقاد لبيب غيرته :

وحديث تحول جديد في الموقف النفسي لسوان عندما تذكر
تعبيراً مفاجئاً كان قد لاحظته قبل ذلك ببضعة أيام ، ولأول مرة ،
في عيني أوديت . وكان ذلك بعد العشاء في بيت آل فرديران : وكان
فورشفييل قد رد على كلمة غير موفقة صدرت من نسييه سانية بوابل
من الإهانات المتعمدة ، وشجعه على الرد في ذلك ما أبداه سانيت
من ألم وخوف وتوسل : وذلك إما لأن فورشفييل فطن إلى أن سانيت
- صهره - لم يكن يتمتع بالحظوة لدى آل فرديران ، أو لأنه استاء
من ملاحظة خرقاء وجهها إليه سانيت ، وإن كانت قد مرت ولم يتنبه
إليها بقية الحاضرين الذين كانوا لا يعرفون ما وراءها من تعريض
خفي ، أو لأنه ربما كان يبحث منذ زمن عن مناسبة تكفل له إبعاد
هذا الضيف الذي يعرف عنه الكثير ، لدرجة أنه كان يشعر بالخرج
من مجرد وجوده في الحجرة . وترتب على هذا التعرض العدواني أن
سأل سانيت مدام فرديران أبتى أم ينصرف ، فلم ترد عليه ،
فانصرف من البيت وهو يغمغم والدموع في عينيه ، وكانت أوديت
ترقب هذا المشهد من غير أن يبدو عليها أى انطباع ، ولكن ما إن
أقبل الباب وراء سانيت حتى بدلت تعبير محياها بحيث هبط إلى
مستوى سوقية تصرف فورشفييل ، ولعت عينها بوميض بسمه
شريرة تنبئ بها فورشفييل على جسارته ، ومازجت هذه الابتسامة
إشفاقاً ساخرة على ضحيته : ورمقت فورشفييل بنظرة تواظف على
هذه الجريمة ، كأنها تقول :

— ها قد فرغنا من أمره وقضينا عليه ! أترى كيف كان يبدو أبله ؟ لقد كان يبيكى فعلا .

ولما التقت عينا فورشفيل بعينها انفثأت معالم غضبه المزعوم وابتم وقال :

— ما كان عليه إلا أن يكون لطيفاً ، كى يبقى معنا . ولا أظن التفرغ الملائم يضر أحداً ، فى أى وقت .

وذات يوم ذهب سوان فى وقت مبكر بعد الظهر لزيارة شخص ، ولم يجده فى بيته ، فخطر له أن يذهب لزيارة أوديت ، فى ساعة لم يتعود زيارتها فيها ، إلا أنه يعلم أنها تكون فيها دائماً ببيتها ، مخلدة للراحة ، أو مشغولة بتحرير الرسائل حتى يحين وقت الشاي . وسوف يسره أن يراها برهة من غير إزعاج لها . وقال له الباب : إنه يعتقد أن أوديت موجودة بالبيت : ودق سوان الجرس ، وظن أنه سمع صوتاً ووقع خطئى . ولكن لم يأت إلى الباب أحد : فانتابه القلق والضيق ، ودار حول البيت ، ووقف تحت نافذة مخدعها ، فوجد الستائر مسدلة فلم يستطع رؤية شئ ، وطرق زجاج النافذة بشدة . وصاح منادياً ، ولكن أحداً لم يجبه . ولاحظ أن الجيران يحملقون فيه ، فابتعد وهو يحسب أنه ربما كان مخطئاً فى اعتقاده أنه سمع وقع أقدام . بيد أنه ظل مشغول البال بشكوكه بحيث لم يستطع أن يفكر فى أى شئ آخر : وبعد أن انتظر ساعة عاد إلى بيتها ، فوجدها فيه . وقالت له : إنها كانت فى البيت عندما رن الجرس ،

ولكنها كانت نائمة فأيقظها الجرس ، وخنث أنه سوان ولا شك ، وجرت لتقابلها ، ولكنه كان قد انصرف : وقد سمعت بالطبع دقه على النافذة : واستطاع سوان على الفور أن يتبين فى هذه القصة شذرات من الحقيقة الظاهرية التى يدسها الكذابون فى قصصهم لإكسابها مظهر الصدق وإخفاء ما يريدون إخفاءه خلف هذا المظهر . وخالت أن ذلك كفىل ألا يفضحها أو يفضح أكاذيبها ، ولكن فاتها أن عناصر الصدق التى استخدمتها لا تتكامل مع عناصر الأكاذيب ، فبقى هناك ثغرات تكشف الخديعة والزور :

وقال سوان فى نفسه :

— إنها تعترف بأنها سمعتنى أرن الجرس ، ثم أطرق النافذة : وأنها عرفت أن الطارق أنا ، وأنها كانت تريد أن ترانى . ولكن هذا لا يتفق مع امتناعها عن فتح الباب لى !

بيد أنه لم يلفت نظرها إلى هذا التضارب ، لأنه اعتقد أن أوديت لو تركت لنفسها واعتقدت أنه صدقها ، ربما زل لسانها بعد ذلك بما يرشده إلى الحقيقة . ولكن أوديت كانت حريصة على ألا يفلت منها شئ يكشف عما كانت تصنعه فعلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر :

وعندما هم أن يتصرف عائداً إلى بيته ، رجته أوديت أن يبقى برهة أخرى ، بل واحتجزته بالقوة ، وجذبته من ذراعه وهو يفتح الباب ليخرج ، وقالت له بالبحاج :

— إنك للأسف الشديد لا تأتي أبداً لزيارتي بعد الظهر : وفي المرة الوحيدة التي جئت فيها ، لم أرك : وكان يعرف جيداً جداً أنها لم تكن عاشقة له إلى درجة التعاسة الحقيقية لأنها لم تدركه عند الباب ، ولكنها امرأة طيبة القلب تريد أن تسره ، وكثيراً ما استاءت لأنها صنعت أى شيء يمكن أن يضايقه : ولذا وجد من الطبيعي أن تأسف هذه المرة لأنها حرمتها من قضاء ساعة في صحتها ، لا شك أنها مصدر متعة كبرى له على الأقل ، إن لم تكن لها . ولكن المسألة على كل حال كانت قليلة الأهمية ، ولذا حيرته مظاهر كل هذا الأسف الشديد في نهاية الأمر : وذكرته بوجوده بعض النسوة اللواتي صورهن رسام البريمافيرا Primavera : فقد رأى على عجاها ما على وجوههن من أمارات انكسار القلب ، وكأنهن يوشكن أن ينهرن تحت عبء حزنهن الفاجع ، وهن يرقبن يسوع الطفل يلعب برماته ، أو موسى وهو يصب الماء في طست : وكان قد رأى هذا الحزن الشديد على عجاها من قبل ذات مرة ، ولكنه لا يذكر الآن متى كان هذا . ثم فجأة تذكر . لقد كان هذا عندما كذبت أوديت ذات مرة مضطرة وهي تعتذر لمدام فرديران في الأمسية التالية للعشاء الذي تناولته معه متلذذة بالمرض ، في حين أنها كانت تريد أن تنفرد بسوان تلك الليلة : وبالغاً ما بلغت سذاجتها وطهارة ذمتها ، فلا يمكن أن تشعر بكل هذا الندم على أكذوبة بريئة كهذه . ولكن الأكاذيب التي كانت أوديت تنفوه بها عادة كانت

أقل براءة من هذه ، والغرض منها منع افتضاح أمور يمكن أن تسبب لها أشد المتاعب مع أحد أصدقائها . ولذا كانت عندما تكذب تشعر بقلّة الثقة في نجاحها ونحس الإعياء لفرط ما تبذله من جهد ، مثلاً يبكي الأطفال أحياناً عندما لا يحظون بالنوم . وكانت تعلم أيضاً أن كذبتها تسبب عادة ضرراً كبيراً للرجل الذي تنفوه بها له ، وقد تجدد نفسها تحت رحمته إن لم تحسن قولها . ولذا تشعر على الفور بالذنب في حضرته ...

فأى أكذوبة يا ترى دبرتها الآن لإرضاء أو ترضية لسوان ، بحيث يسبب لها هذا التدبير كل هذا الألم في تعبير وجهها ، وفي صوتها الذي يكاد يتخاذل من عنف المجهود الذي تستجمع قوتها لبذله ، وكأنها تستمحيه بذلك كله العفو والغفران ؟ وغلب على ظنه أن حقيقة ما حدث بعد ظهر هذا اليوم ليست هي ما تحاول أن تخفيه عنه ، بل هو شيء لعله لم يحدث بعد ، ولكنه من الممكن أن يحدث الآن في أى وقت : وعندما يحدث سيلقى ضوءاً على الحدث الذي وقع قبله : وفي تلك اللحظة سمع جرس الباب يرن ، ولم توقف أوديت قط عن الكلام ، ولكن كلماتها تحولت إلى شبه أنين غير واضح المعالم :

انتهى الجزء الثانى
من (غرام سوان)
ويليه الجزء الثالث

رقم الإيداع ٤٣٧٩
الترقيم الدولى ٠٨٠٠٦ - ١٧٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



مختارات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارى ..

فى الكتاب السابق قدمت لك الجزء الأول من رواية (غرام سوان) ، وهى الرواية الأولى من ملحمة الأديب الفرنسى الشهير « مارسيل بروست » (البحث عن الزمن المفقود) ، التى وصفها المفكر المصرى الكبير الدكتور زكى نجيب محمود بأنها من أعظم الكتب التى تفتق عنها الذهن البشرى فى القرن العشرين . واليوم أحدثك فى هذه النيزة المختصرة عن مؤلف هذه الملحمة الخالدة : ولد « مارسيل بروست » فى صاحبة (أوتوى) بباريس ، يوم ١٠ يوليو من عام ١٨٧١ . وكانت أسرته من عائلات باريس البورجوازية الثرية ، وكان والده أستاذاً فى كلية الطب بباريس . وقد تلقى مارسيل دراسته الابتدائية على مدرسين خصوصيين فى البيت ، فهو لم يختلف إلى مدارس فى تلك المرحلة الباكرة من طفولته وصباه ، التى كانت مرحلة اتسمت بالهدوء والتدليل . وفى مرحلة الشباب التى تلتها عقد عدة صداقات فى التينات الاجتماعية والأدبية التى أحاطت به . وفى عام ١٩٠٠ ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ارتحل إلى مدينة البندقية (فينيسيا) حيث اهتم بدراسة أعمال المفكر البريطانى والناقد الفنى الشهير فى العصر الفكتورى « جون راسكين » (١٨١٩ - ١٩٠٠) الذى كان قد توفى فى ٢٠ يناير ١٩٠٠ - وبلغ من إعجابه بتلك الأعمال أنه ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية !

.. وقد توفى والد « مارسيل بروست » فى عام ١٩٠٣ . ولحقت به أمه فى عام ١٩٠٥ .. وكانت هاتان الصدمتان - بالإضافة إلى حالة « الربو » وضيق التنفس التى كان يعاني منها - سبباً فى حياة العزلة المتزايدة التى أخذ نفسه بها ، وإن يكن قد تبادل منات المراسلات مع العديد من الشخصيات البارزة فى

عالم الأدب والفن . ومنذ عام ١٩٠٧ عاش « بروست » فى حجرة مبطنة بالفلين ، كى يقاوم نوبات الربو التى كانت تعذبه ، وكان يتام خلال النهار ، ويعمل طوال الليل ، وقد أنجز المسودة الأولى لملحمته الخالدة (البحث عن الزمن المفقود) خلال السنوات الثلاث ، من ١٩٠٩ إلى ١٩١٢ ، لكنه ظل يراجعها ويعيد مراجعتها ، ويضيف إليها . حتى ضاعف من طولها إلى نحو ثلاثة أضعاف حجم المسودة الأولى إلى أن أدركته الوفاة فى عام ١٩٢٢ (عن ٥١ عاماً) .. وقد ظفرت الرواية الثانية من الملحمة المذكورة (وعنوانها « داخل بستان دى براعم ») بجائزة جوتكور الفرنسية المشهورة . فى عام ١٩١٩ .

هلمى مراد

١٥٠

